

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

إعادة قراءة التاريخ

د. ياسر شحاتة



القراءة المحايدة للتاريخ تكاد تكون مستحيلة مهما حسنت النوايا ولكن هذا لا يمنع أن هناك قراءات نسبيا أكثر حيادية و موضوعية . و الانحياز في كتابة التاريخ قد يكون لمكان أو لدولة أو لشعب أو لمذهب سياسي أو ديني . و لكن أخطر أشكال الانحياز يكون للحاضر . فنحن عندما ننظر للماضي ننظر له من موقعنا الزمني في الحاضر ونراه من هذا المنظور ، فيتلون التاريخ كله بلون الحاضر الذي يطرح نفسه دائما ليس ك لحظة في حالة نمو و تغير مستمر ، ولذا كان هذا الكتاب الذي يحاول إعادة قراءة التاريخ .



إعادة قراءة التاريخ

د. ياسر شحاتة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : إعادة قراءة التاريخ

تأليف : د. ياسر شحاتة

حقوق الطبع محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفني : مرفت النحاس

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

email:info@gebo.gov.eg

شحاتة، ياسر.

إعادة قراءة التاريخ / ياسر شحاتة. - القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

٤٤٠ ص؛ ٢٤ سم.

٩٧٨ ٩٧٧ ٤٤٨ ٧٧٥ ٠ تدمك

١ - التاريخ - نظريات.

١ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٤ / ٣١٢٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 775 - 0

ديوى ٩٠١

مدخل نظري

القراءة المحايدة للتاريخ تكاد تكون مستحيلة مهما حسنت النوايا. ولكن هذا لا يمنع أن هناك قراءات نسبية أكثر حيادية من غيرها. ونحن في هذه الدراسة حاولنا توخي أكبر قدر ممكن من الحيادية والموضوعية. والانحياز في كتابة التاريخ قد يكون لمكان أو لدولة أو لشعب أو لمذهب سياسي أو ديني. ولكن أخطر أشكال الانحياز يكون للحاضر. فنحن عندما ننظر إلى الماضي ننظر إليه من موقعنا الزمني في الحاضر. ونراه من هذا المنظور، فيتلون التاريخ كله بلون الحاضر الذي يطرح نفسه دائماً ليس ك لحظة في حالة نمو وتغير مستمر، ولكن كحالة موجودة منذ البداية وعلى سبيل المثال فإن العديدين يرون حالة الظلم والقهر النسبي التي يعيشها الفلاح المصري حالياً حالة مزمنة، لا يمكن تخيل الفلاح المصري بدونها. ويرون حالة الحرية التي يعيشها المواطن الأوروبي أيضاً كحالة مزمنة، لا يمكن تخيل المواطن الأوروبي بدونها. ولنوضح الصورة أكثر فلنتأمل معاً فيلمًا تاريخيًا جيدًا ومهمًا رأيناه جميعًا (الناصر صلاح الدين) فرغم تسليمنا بأن الفيلم من روائع السينما المصرية فإنه كان يرى الماضي في بعض الجوانب من منظور الحاضر. فظهرت المرأة الأوروبية بشكل قوي وبدور مهم في الجيوش الصليبية، بل كانت تشترك في مجالس الحرب وفي اتخاذ القرار. في حين أنها في الجانب العربي لم يكن لها وجود على الإطلاق.

وهذه الرؤية هي تعبر ربما عن الحاضر، ولا تعبر أبدًا عن الماضي. فقد كان الوضع في الماضي معكوسًا تمامًا. فقد كان من السهل جدًا تصور وضعًا قياديًا متقدمًا للمرأة العربية، ومن الصعب بل من المستحيل تصور ذلك للمرأة الأوروبية في هذا الزمن، ولكن كاتب السيناريو رأى الوضع من منظور الحاضر وليس الماضي. ولهذه الأسباب، بالإضافة إلى التحيزات الدينية والقومية والأيدولوجية تظهر نظريات عدة لقراءة التاريخ. أهم هذه النظريات هي الوضعية المنطقية (Positivism)، التي نشأت في ألمانيا في بداية القرن العشرين، وهي رؤية تتعامل مع الأحداث التاريخية بشكل محايد تمامًا من أي تأثير سياسي أو ديني أو حتى أخلاقي (أحيانًا أكثر مما يجب). والمؤرخ والمفكر المصري الكبير كرم خلة يطلق على هذه النظرية (الواقعية). فهذا الاسم أكثر دقة في التعبير عنها. ورغم أننا نتمسك بموضوعية الواقعية (الوضعية المنطقية) فإننا نتمسك برؤيتنا الخاصة في معنى الزمن. (كمكث داخلي) - كما قال هنري برجسون¹ - وليس انتقالًا من نقطة إلى نقطة على طريقة الانتقال في المكان. فالانتقال من نقطة إلى نقطة يعني ترك نقطة ما أو فترة زمنية ما والانتهاء منها، إلى فترة أخرى. كمن يترك مدينة بنها لينتقل إلى القاهرة. ولكن المكث الداخلي يعني أننا نظل في نفس الفترة الزمنية، ولا نغادرها ولكنها تنمو معنا. كمن ينتقل من مرحلة دراسية إلى مرحلة دراسية أعلى. فهو لا يغادر ما تعلمه، ولا يترك خبراته ولكنها تظل موجودة مع الخبرات الجديدة. فيكون الماضي من هذا المنظور مكثًا داخليًا في حالة اتساع مستمر. تمامًا كمن ينفخ هواء في بالون فتكون فترة تاريخية. ثم ينفخ هواء مرة أخرى فيزداد حجم البالون فتكون فترة تاريخية أخرى دون أن نفقد هواء الفترة الأولى التي تظل متضمنة في الحاضر. ولكنها تتسع بنا

¹ هنري برجسون فيلسوف فرنسي ظهر في منتصف القرن العشرين، وله تفسير للزمن على النحو الذي أسلفناه.

بشكل مستمر. الماضي موجود مع الحاضر الجديد. وهذا يتفق تمامًا مع الفيزيائيين الذين يؤكدون أن الكون في حالة اتساع مستمر.

هذا يعني أن الماضي لا يموت، ولا يترك (بضم الياء)، ولكنه موجود كخلفية للحاضر تمامًا كعقل باطن حضاري. فكما أن الكثير من جوانب شخصية الإنسان ومشكلاته في مراحل النضج تعود إلى طفولته، فإن الكثير من الظواهر والسمات الاجتماعية الحضارية تعود إلى العقل الباطن الحضاري الغارق في البعد الزمني.

هذا الفهم للزمن يتيح أن ننتقل من قراءة التاريخ إلى مرحلة تأمل التاريخ. وهذا ما نحاول أن نسعى إليه.

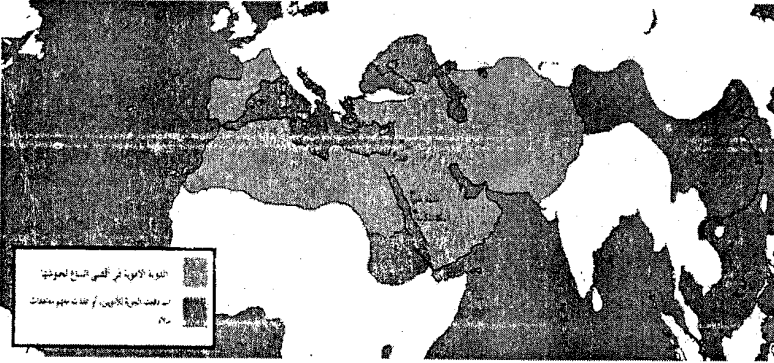
والله الموفق.

مقدمة

1492

عام 1492 ميلادي هو - بلا شك - أهم عام في تاريخ البشرية. ففي هذا العام وصلت مراكب كولومبوس إلى السواحل الأمريكية؛ حيث بدأت الكشوف الجغرافية العملاقة التي انطلقت من خلالها أوروبا إلى كل العالم، كما شهد هذا العام أيضاً انحسار آخر فلول العرب من شبه جزيرة أيبيريا ليقبعوا قانعين في أراضيهم. فكان عامًا يقسم التاريخ إلى فترتين مختلفتين تمامًا.

قبل هذا العام كان العالم العربي يمتد من الصين شرقاً حتى تلتني فرنسا غرباً.



الإمبراطورية العربية (عباسية)

حيث كانت هذه الإمبراطورية هي أكبر إمبراطورية عرفتھا البشرية حتى ذلك الوقت. كانت رمزًا للتطور والرقي والنظام والتقدم العلمي والاجتماعي، بل وللنظافة والجمال واحترام المرأة والأقليات الدينية وغير الدينية. كان هذا العالم لا يعاني مما تعاني منه أوروبا من فقر مدقع وملوك طغاة، وكنائس أكثر طغيانًا، وحروب طاحنة تعصف بها، وأمراض وأوبئة قاتلة لم ينقذهم منها سوى الأطباء العرب. كانت اللغة العربية هي لغة المثقفين حتى في أوروبا التي كان مثقفوها يتباهون بالحديث معا بالعربية كدليل على الرقي والتحضر. وكان التخلف والظلم يصل إلى كل الفئات حتى النساء كن يحرقن بالملايين في الميادين العامة بكل وحشية وبدون رحمة كن يربطن أحياء في أعمدة خشبية فوق كومة كبيرة من الحطب أمام جمع من المشاهدين الفضوليين من رجال ونساء وأطفال. ثم يشعل الحطب وتقرب النيران من الضحية التي تصرخ طالبة الرحمة، والجمع يسبها بكل اللعنات وهي تتأوه وتزداد صرخاتها مع ازدياد النيران في جسدها وتتبعث في الجو رائحة شواء اللحم الأدمي والكل يهتف ويصرخ للعدالة ولموت الساحرة الشريرة (المسكينة) حتى يخبو صوتها سريعًا ثم يتوقف. وتستمر النيران في التهاب الجسد المحروق الصامت وسط تهليل الجمع. ثم تخدم النيران ويهب الناس إلى بيوتهم وهم يحيون العدالة التي خلصتهم من المرأة الشريرة (المسكينة). في الوقت الذي كانت فيه النساء تعامل في العالم العربي باحترام أوصلها لأعلى المراكز (ملكات)، ولم تعرف المجتمعات العربية أبدًا هذا القدر من التوحش ضد المرأة في أي عصر من عصورها. حتى الأدبيات الأوروبية ظلت حتى فترة طويلة تتعامل مع الشخصية العربية على أنها الأكثر نبلا. وربما كان أهم مثل لذلك هي مسرحية عطيل لوليام شكسبير عام 1600. ورغم أن هذه المسرحية تنتمي إلى ما بعد

1492، فإنها كانت تعبر عن ثقافة العالم قبل هذا التاريخ. فالتغير الثقافي لا يحدث بين ليلة وضحاها، بل يكون هو آخر شكل من أشكال التغيير. وهذه المسرحية تظهر البطل العربي المغربي (عطيل) على أنه من أنبل الفرسان في الجيش الروماني ومثالا للشجاعة والإخلاص والصدق والشرف والعظمة والكبرياء، في حين كان (ياجو) الضابط الإيطالي رمزاً للخسة والندالة والحقارة والعش والخبث. وكان هذا تعبيراً عن الثقافة العامة في هذا الوقت.

في عام 1492 كتب أسقف قرطبة:

"إن الشباب النابه الآن منصرف إلى تعلم اللغة والأدب العربيين باللهول لقد نسوا حتى لغتهم، ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية، بينما تجد عدداً كبيراً لا يحصى ولا يعد يتكلم العربية بطلاقة، ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم"².

عام 1492 وقعت أوروبا على أعظم كنز في التاريخ. الكشوفات الجغرافية المهولة. مساحات شاسعة من الأراضي الغنية التي تصل مساحتها أضعاف أضعاف القارة الصغيرة. مناجم ذهب، ومنجنيز، وكل المعادن حتى اليورانيوم، ومزارع ضخمة للقصب والبن والكافور والشاي وكل المحاصيل والفواكه. كما كانت هناك شعوب كاملة استغلت في استغلال الأرض بلا ثمن وبكل قسوة وصلت إلى حد المذابح. فتفاقم الغنى والثراء في أوروبا وتفاقت معه المجازر في الناحية الأخرى، وتفجر الجشع وجنون العظمة فانقضت أوروبا على الهنود الحمر تفنيهم عن بكرة أبيهم، فتحولوا في قرن من الزمان في المكسيك مثلاً من 80 مليوناً إلى 8 ملايين فقط. ثم

² مارتين برنال، أثينا السوداء ص60.

انقضت في خضم زمن التوحش على إفريقيا تسرق أبناءها وتستعبدهم لاستغلالهم في الكنز الخرافي. كان ذلك بلا أي رحمة أو أي مشاعر إنسانية، وكان من الطبيعي أن تظهر أفكار تعتبر الأفارقة غير بشر، والهنود غير آدميين. (كانوا يطلقون على الأفارقة لقب الكائنات السوداء) ثم تفاقم الوضع أكثر لتتكون نظريات تبرر هذا القدر والإجرام الأوروبي المهور فاعتبر الأوروبيون أنفسهم عنصرًا مختلفًا عن كل عناصر الأرض، وسموا أنفسهم بعنصر الأسياد. فقد أضحوا بصدفة الكشوف الجغرافية التي شملت الأمريكتين وأستراليا يمتلكون معظم أراضي العالم وأغنى الأمم. وأصبحت أنجح تجارة في التاريخ هي تجارة العبيد من إفريقيا وبيعهم عن طريق شركة الأسيانتوس الإسبانية للمناطق الإسبانية ثم لكل أمريكا فيما بعد. ومول تجار العبيد العالم (جيمس وات) في اختراعه الآلة البخارية التي فتحت عصر الصناعة. وبدأت تنمو شركات لتجارة العبيد مثل الأخوين باركليز اللذين تحولوا من أصحاب حانة فقيرة قذرة في إحدى حواري لندن إلى تجار عبيد. ثم أضحوا بعد ذلك من أكبر بنوك العالم، والمغامر الألماني لويد الذي تحول من بائع متجول إلى تاجر عبيد. واليوم أصبحت مؤسسته شبكة ضخمة من شركات تأمين عملاقة ومجموعة بنوك وشركات ملاحية عالمية مركزها هامبورج حتى اليوم. لقد تحول العالم بشكل سريع إلى عالم آخر. هذه القوى العملاقة المجنونة التي نمت كسرطان مخيف لم تكف بأمريكا وأستراليا فانقضت على إفريقيا بعد ذلك وقطعتها للتجارة في أبنائها ونقلهم لأمريكا، ظهر في العالم توجه ثقافي جديد مبني على أن الأوروبي هو السيد، وتغلغل الفكر العنصري في كل مكان، حتى خارج أوروبا. حتى الأفكار الشرقية الإنسانية التي خرجت من الشرق على شكل أديان تلونت في أوروبا بالعنصرية الجديدة، وأضحت الكنائس في الغرب تبرر العنصرية وتستجيب لها. ولم

يعزو الأوروبيون غناهم المفاجئ إلى الكشوف الجغرافية وإلى تجارة العبيد واستغلالهم غير الإنساني، بل عزوه إلى تفوق طبيعي مزعوم أمام بقية أجناس البشر. وانقضت أوروبا الجديدة العملاقة والعنصرية على العالم بأكمله فأضحى تقريباً كل العالم غير الأوروبي مستعمراً من العالم الأوروبي المتوحش. (لم تكن مصر مستعمرة، بل كانت أحد الاستثناءات القليلة الحرة).

وظهرت المركزية الأوروبية لأول مرة كتعبير عام 1741 من الكاتب الألماني يوهان هاينرش زلدر Johann Heinrich Zedler). وانقض العلماء الأوروبيون على التاريخ يحورونه ليثبتوا تفوقهم العنصري المزعوم. فثاروا على شكل التاريخ الكلاسيكي الذي كان يتعامل مع اليونان بكل تواضع، ويعترف صراحة بالدور الحاسم لمصر والشرق في صناعة الحضارة. ولجأ كتاب التاريخ إلى ما أسماه العلامة الأمريكي مارتين برنال (تلفيق اليونان) واستطاعوا بنكاء تحويل التطورات الاجتماعية الإنسانية القادمة من الشرق إلى صناعة يونانية وأظهروا ما غير اليونان على أنها حضارات صناعة أحجار على أساس إذلال شعوب مستعبدة ومستسلمة. واستأثروا لأنفسهم بالتطور الديمقراطي، الحرية، تحرير المرأة، حقوق الإنسان.... إلى آخر القيم النبيلة.

ثم تفاقم الجنون ونقض هذا العالم الأوروبي الجديد على نفسه في حربين ضروسين، العالمية الأولى والثانية كان أساسهما الأوهام العنصرية أيضاً. كان الكل مهزوماً. وبدأ الانتباه لخطورة الأفكار العنصرية. ولكن لأن العنصرية الأوروبية وهم كاذب، وأن التفوق الأوروبي كان نتيجة صدفة اكتشاف كنز الكشوفات الجغرافية، فقد ثار العالم ضد هذا التوحش وانتشرت حركات التحرر في كل مكان وبدأت الإمبراطوريات الخرافية في التقهقر. وحاول العالم الأوروبي

الجديد الحفاظ على معاقله وثقافته فتمسك بنظام التفرقة العنصرية في أماكن عدة، ولكن هذا أيضاً لم يصد، وبدأت الأنظمة العنصرية تتساقط أيضاً الواحدة تلو الأخرى. فسقط النظام العنصري في أمريكا عام 1964 وروديسيا في عام 1980، وجنوب إفريقيا في 1992. ولا يتبقى حتى الآن غير إسرائيل كآخر معقل عنصري. وكان وصول أسود لرئاسة أمريكا (الرئيس باراك أوباما) مؤشراً لبداية أفول الفكر العنصري.

ولكن رغم أن الفكر العنصري ينحسر تماماً من الثقافة الإنسانية فإن بقاياه تستمر في استمرار ظاهرة المركزية الأوروبية. وهي ظاهرة حضارية لاتزال تتمسك بأن أوروبا هي مركز التطور البشري، وأن الخير يكمن في تقليد أوروبا والاقتراب منها، والشر يكمن في الابتعاد عنها. ومازالت اليونان في هذا السياق هي بداية الفلسفة والفكر والمنطق والديمقراطية والحرية والشعر والموسيقى والمسرح.... والتاريخ يكتب بنفس هذه الروح غير المنصفة والتي تحول الثقافات غير الأوروبية إلى ثقافات شعوب عبيد وملوك آلهة، أي ثقافات غير إنسانية لا تترك شيئاً نتعلمه منها، وتحول الثقافات الأوروبية التي تبدأ (كذباً) باليونان إلى ثقافات شعوب حرة ديمقراطية في الأساس مما يجعلها نموذجاً يحتذى به الجميع، وأصبح تعبير العالم الحر هو تعبير مهذب يعني في النهاية (الرجل الأبيض).

في النهاية نجد أنفسنا أمام ثلاث نظريات لتفسير التاريخ.

- النظرية الأولى وهي النظرية العنصرية التي تعني أن التاريخ البشري الحقيقي يبدأ بحضارة الأسياد التي بدأت باليونان رمز الجنس الأري الذي أخذ في قيادة البشرية؛ لأنه الأفضل والأقوى والأكثر نكاه، وعلى الجميع التسليم بذلك والانصياع له.

- النظرية الثانية وهي أن التاريخ يبدأ باليونان كبداية للديمقراطية، ويستمر التاريخ في تطوير النظام الديمقراطي في روما، الثورة الفرنسية وأمريكا وأوروبا وعلى العالم كله الانصياع لذلك وتقليد أوروبا والعالم الحر.

- النظرية الثالثة وهي النظرية الماركسية، وهي أن التاريخ يبدأ أيضًا باليونان ويستمر في التطور حتى وصل إلى المجتمع الصناعي في إنجلترا (والآن أمريكا). وأن الطبقة العاملة في إنجلترا (والآن أمريكا) هي أنضج طبقة وهي التي ستقود العالم وعلى العالم الانصياع لها.

الحقيقة أن كل النظريات الأوروبية التي تفسر التاريخ تصب في النهاية في مصب واحد وهو ضرورة الاستسلام لأوروبا، كقبلة للتطور.

مما يشير إلى أن الفكر العنصري مازال متواجداً، ولكن في ثياب أخرى.

لا يكفي إلقاء اللوم والرفض والشكوى، بل يجب طرح البديل. إعادة قراءة التاريخ.

تقسيم

دراسة المجتمع البشري وتطوره تدفعنا إلى تتبع علم (الأنثروبولوجي)³. ففي هذا الزمن الغارق في القدم الذي يعد بالملايين، ومن خلال بعض المعلومات المهمة التي وصلتنا من خلال هذا العلم، نستطيع أن نلمح ظواهر على درجة من الأهمية ذات دلالات تساعدنا في دراستنا على فهم الماضي القريب والحاضر بل تعطي احتمالات لتصور المستقبل.

ومن هنا يجب علينا تقسيم التاريخ إلى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: التاريخ الأنثروبولوجي والعصر الحجري والحضارات القديمة.

الجزء الثاني: من الحضارات القديمة حتى الكشوف الجغرافية.

الجزء الثالث: من الكشوف الجغرافية حتى اليوم.

³ علم الأنثروبولوجي (Anthrobology) يعرف في اللغة العربية بعلم تطور الإنسان. وهو علم جديد في الجامعات العربية، ويعاني هذا العلم من مشكلات متعددة أهمها التعصب الديني الذي يمنع أي أبحاث حرة في هذا المجال. والجامعات الأمريكية تقسم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام: الأنثروبولوجي العضوي، الأنثروبولوجي الاجتماعي، الأنثروبولوجي اللغوي.

الفصل الأول

التاريخ الأنثروبولوجي والعصر الحجري

أصل الإنسان

تظهر الدراسات الأنثروبولوجية أن تطور الإنسان مر خلال عدة مراحل تتميز كل مرحلة منها بخصائص معينة. ومن الممكن تلخيص هذه المراحل إلى أربع مراحل مهمة⁴ وهي:

- 1- الإنسان الإرجاستر (Homo Ergaster) وكلمة إرجاستر تعني الشغيل.
- 2- الإنسان الموريتانيكوس أو الإركتوس (Homo Erectus) وكلمة إركتوس تعني المنتصب.
- 3- الإنسان الروديسيانس (Homo Rodisians) نسبة إلى منطقة روديسيا في الجنوب الإفريقي.
- 4- الإنسان النيندرتالانيسيس (Homo Neanderthalansis) نيندر نسبة إلى أحد العلماء.
- 5- الإنسان السابيانس (Homo Sapiens) أي العاقل.

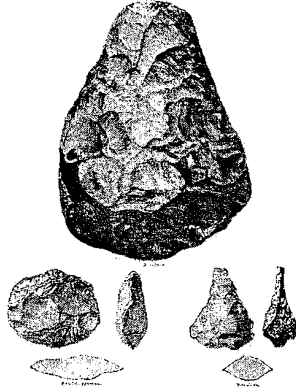
⁴ مر التطور الإنساني بمراحل متعددة ومعقدة، ولكننا نلخص هذا التطور في هذا البحث إلى هذه المراحل الأربع الرئيسية بحيث لا يؤثر هذا التلخيص في مسار التطور المعروف علميًا.

الإرجاستر

ظهر الهومو أرجاستر كأول كائن إنساني له ملامح بشرية في إفريقيا منذ حوالي 2,5 مليون سنة.

تطور هذا الإنسان عن كائن يسمى هايبيليس وهو كائن يختلف العلماء على الاعتراف به كبداية للإنسان، ولكن الجميع يتفق على أن (الإرجاستر) ينتمي إلى الجماعة البشرية، ومن الممكن اعتباره بداية الإنسان. ظهر الإرجاستر أول ما ظهر في إفريقيا⁵. كان يعيش في جماعات يتراوح عددها حول 25 شخصاً في المجموعة. كان يعيش على الصيد وجمع الثمار ويستخدم بعض الأدوات التي يجدها في الطبيعة مثل: جذوع الأشجار القوية والحادة أو بعض العظام التي تمتاز بميزات مماثلة، وبعض الأحجار الحادة التي تستخدم كبلطة (صورة رقم 1)⁶

صورة رقم 1. بعض الأحجار المستعملة في الصيد للهومو ارجاستر

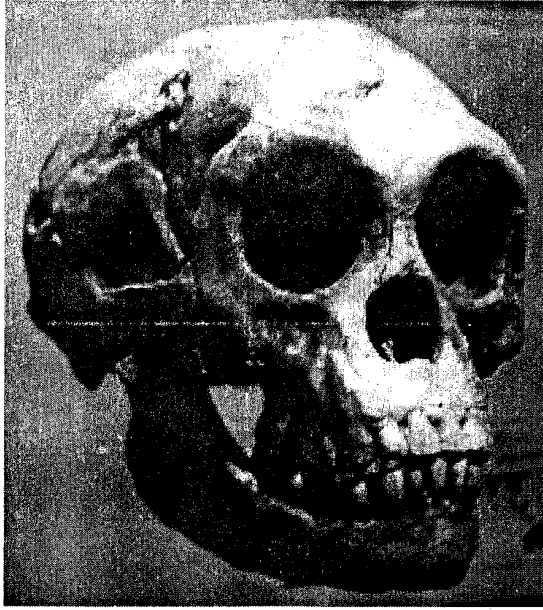


⁵ قبل ظهور الإرجاستر ظهرت عدة سلالات تقترب من الإنسان وإن لم يعترف بها العلماء كبداية للإنسان. وكل هذه السلالات ظهرت أيضاً في إفريقيا.

⁶ In *Journal of Human Evolution*, vol. 22, no. 2, pp. 79-108.

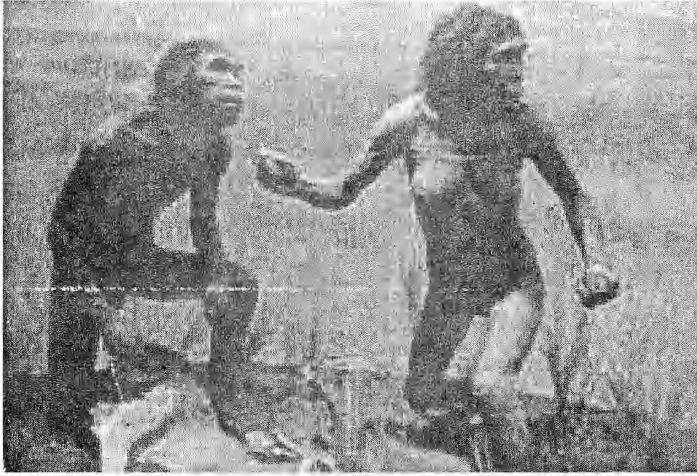
كان حجم المخ عنده يتراوح من 700 إلى 850 سم مكعب (ثلاثة أرباع المخ الحالي) (صورة رقم 2)، وطوله يقترب من طول الإنسان الحالي. والاكتشافات الخاصة بهذا الإنسان متعددة وكان معظمها في كينيا، تانزانيا، إثيوبيا وجنوب إفريقيا، وإن كان هناك بعض الاكتشافات في آسيا وأوروبا (صورة رقم 2).

صورة رقم 2. جمجمة الهومو أرجاستر



أهم الاكتشافات في هذا المضممار اكتشاف عظام طفل بالقرب من بحيرة توركانا ينتمي إلى الإرجاستر عام 1984 بواسطة ريتشارد لاكاي وتيم وايت على حواف بحيرة توركانا⁷ (صورة رقم 3).

صورة رقم 3. تصور لأشكال الإنسان الإرجاستر.



ولأسباب يفسرها العلماء بالتغيرات المناخية هاجرت جماعات من إنسان الإرجاستر إلى آسيا أولاً، ثم إلى أوروبا. ولكن يبدو أن هذه الهجرات لم تستمر كثيراً، بل صمدت حوالي 200 ألف سنة ثم انقرضت.

⁷ Göran Burenhult, Die ersten Menschen, Weltbild Verlag, 2000.

الهومو إركتوس

تطورت الجماعات البشرية التي بقيت في إفريقيا ولم تهاجر إلى نوع أكثر تطوراً من البشر وأكثر قدرة على مواجهة الظروف الطبيعية ونشأ ما يعرف بالهومو إركتوس أو الإنسان المنتصب. والهومو إركتوس كان أكثر قوة من الإرجاستر ويمتاز عقله بكبر نسبي⁸ (صورة رقم 4). كانت أدوات الإركتوس أو الإنسان المنتصب أكثر تطوراً فكان يستعمل ما يمكن تسميته بالحرايب .

صورة 4. جمجمة الهومو إركتوس



⁸ كان حجم عقل الهومو إركتوس حوالي 850 سم مكعب، في حين أن عقل الإنسان الحالي يمثل حوالي 1350 سم مك ب.

المصنعة من جذوع الأشجار الحادة أو البامبو⁹. ويبدو أن اكتشاف النار كان في عهد هذا الإنسان المنتصب. وطهي الطعام على النار كان يسهل عملية الهضم، كما كان يقيه العديد من الأمراض. كما كانت النيران تساعد في التدفئة، كما كانت تساعد في الحماية من الحيوانات التي تهدده، كما أن الأكل بعد الشواء يقيه من العديد من الأمراض. (صورة رقم 5)¹⁰.

صورة 5. تصور للهومو اركتوس

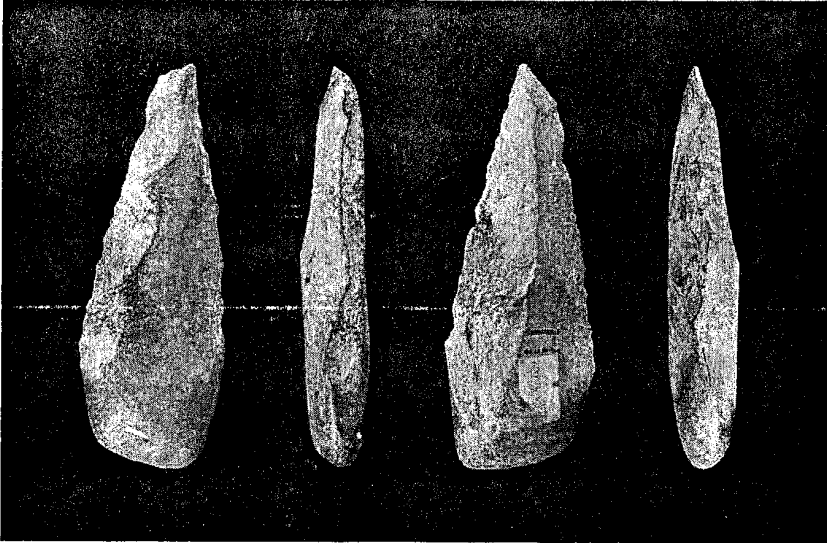


⁹ Brown, F., Harris, J., Leakey, R. & Walker, A. (1985). Early Homo erectus skeleton from west Lake Turkana, Kenya. *Nature* 316: 788-792.

¹⁰ Gibbons, Ann (1996). Human origins - Homo erectus in Java.

وقد كان هذا الإنسان صائدًا ماهرًا¹¹ وقد ساعده على ذلك جسده القوي وتطويره لأدوات الصيد (صورة رقم 6). فالأدوات المستعملة في الصيد اختلفت في صناعتها كثيرًا عن أدوات الإرجاستر¹² وأصبحت أكثر حدة وأكثر طولًا وأنجح استعمالًا.

صورة رقم 6
أدوات حجرية تستخدم في الصيد والقتال للهومو ارجاستر



¹¹ Gibbons., Human origins, Homo erectus. (1996).

¹² Gibbons, Ann (1996). Human origins - Homo erectus in Java.

فقد كانت قواطع حجرية لها نهاية مدببة حادة للطعن بها وأخرى مكورة ناعمة للإمساك بها. وتطورت صناعة هذه الأدوات من مجرد كسر الصخور الملقاة على حافة الأنهار وجمع ما يصلح منها بالصدفة، إلى تطوير مهارة الطرق والحك والإحماء لتطوير الشكل المطلوب. وكانت هذه هي أول تكنولوجيا لصناعة سلاح.

وأهم المناطق التي اكتشف فيها هي أيضًا كينيا وإثيوبيا وتانزانيا. ورغم أن الهومو إركتوس نشأ وتطور في إفريقيا فإنه لأسباب يفسرها العلماء بالتغيرات المناخية قررت جماعات منه الهجرة إلى آسيا وإلى أوروبا فوصل حتى جزر عديدة في جنوب شرق آسيا ويبدو أنه كان بحارًا يجيد الانتقال عن طريق القوارب البسيطة¹³. كما وجد منه في الصين وحتى في اليابان وفي أوروبا في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وألمانيا. ويطلق عليه في أوروبا إنسان هايدلبرج وهذه التسمية لا تعني أنه نوع آخر من البشر، بل تعني الهومو إركتوس ولكنها تسمية نسبة إلى جامعة هايدلبرج. واستطاع هذا الإنسان أن يعمر كثيرًا في القارات الثلاث. فقد عاش في آسيا ما يقرب من مليون سنة. وفي أوروبا من يقرب من نصف مليون سنة. ولكنه انقرض من آسيا قبل حوالي 200 ألف سنة وانقرض من أوروبا أيضًا في وقت أبكر أي منذ 700 ألف سنة. أما الجماعة التي ظلت باقية على الأرض الإفريقية فقد كتب لها الاستمرار واستطاعت مرة أخرى أن تطور نفسها لتخرج نوعًا ثالثًا من البشر

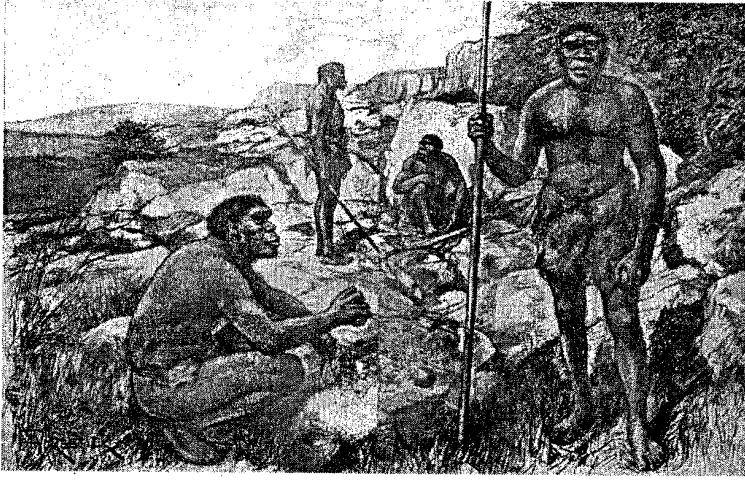
¹³ Gibbons, Ann (1998). Paleoanthropology - Ancient island tools suggest Homo erectus was a sefarer. Editorial. *Science* 279, 5357 (March 13): 1635-1637.

وهو الروديسيانس (صورة رقم 7). ويبدو أن هذا النوع الجديد من البشر الأفارقة أخرج بعض الهجرات إلى أوروبا وآسيا وإن كان بعض العلماء يعتبرون أن إنسان هيدلبرج هو هجرة من جماعات الروديسيانس. وهذه الهجرات كسابقاتها لم تعمر كثيراً لا في آسيا ولا في أوروبا، وكتب عليها الفناء والانقراض كما حدث للهجرات السابقة من إفريقيا إلى آسيا وأوروبا.

صورة رقم 7
جمجمة إنسان رودسيان



صورة رقم 8. تصور لإنسان روديسيان



على أية حال فإن هذا النوع من البشر في إفريقيا قد أخرج نوعًا آخر أكثر تطوراً وهو النيندرتالر.

النيندرتالر (سابقا نيندرتالر سايبانيس)

وهذه الكلمة (نيندرتال) مأخوذة من الاسم الأخير للعالم الألماني يواخيم نيندر مع إضافة كلمة واد باللغة الألمانية (تال) عليها. وكان هذا اعترافاً بدوره في الكشف عن الكثير من المعارف عن هذه الجماعة البشرية. انتشر النيندرتال في إفريقيا. وكالعادة قررت جماعات من النيندرتالر الهجرة إلى آسيا وأوروبا كباقي الجماعات السابقة، فانتشر بشكل ملحوظ في أوروبا وبعض مناطق آسيا ومنطقة الشرق الأوسط. كان هذا النوع البشري يمتاز بالقوة البدنية وطول الأطراف (الذراعين والساقين). مع قوة خاصة في العضلات

وخاصة الكفين الكبيرين (صورة رقم 9)¹⁴. ظل الأوروبيون حتى وقت قريب يتصورون أنهم ينحدرون من هذا العنصر. لتمييزه بالقوة وكبر حجم المخ النسبي. كما تصوروا أن الأفارقة انحدروا من سلالة أخرى هي الهومو سابينس الذي ظهر لاحقًا. وأن الآسيويين انحدروا من سلالة الهومو اركتوس. أي قسم الأوروبيون العالم إلى ثلاثة أجناس¹⁵. وكان هذا التصور يعضد النظريات العنصرية بقوة والمنتشرة في أوروبا، والتي كانت تبحث عن جنس بشري خاص متميز عن غيره من الأجناس يكون نتاج الأوروبيين (صورة رقم 10)، فكانت هذه هي الإجابة حتى وقت قريب. وكانت آثار الإنسان الخاصة بالهومو سابينس والمعاصرة للنندرتالر والذي قدم إلى أوروبا قادمًا من إفريقيا في وقت لاحق تفسر على أنه كان هناك صراع بين العنصرين انتصر فيه النيندرتالر الأوروبي على العنصر الجديد القادم من إفريقيا.

صورة رقم 9
الهيكل العظمي للنيندرتالر. لاحظ طول
الذراعين والساقين



¹⁴ second edition Paleoanthropology. Wolpoff, M. 1999.

¹⁵ Wood, B.A. 1993. "Early *Homo*."

صورة رقم 10. وجه متصور سابقاً لفتاة من النيندرتالز.

لاحظ تصور الفنان للملامح الأوروبية



الهومو سابيانس أو (سابيانس سابيانس)

عنصر الهومو سابيانس هو آخر تطور بشري إفريقي وظهر منذ حوالي 200 ألف سنة، وهو إنسان يمتلك عقلاً بحجم كبير ومتطور، يمتلك لغة متطورة¹⁶ وقدرة على التفكير الموضوعي واكتشاف الأسباب، ونحن نضيف هنا أن أهم صفة تميز بها هذا الإنسان الجديد هي الخيال (القدرة على التصور)، والتي جعلت منه فناً مبدعاً مما جعله يَتميز عن كل الكائنات الأخرى بما فيها الأنواع السابقة للبشر (صورة رقم 11).

¹⁶ A history of language Fischer, Steven Roger (2004).

صورة رقم 11
الهومو سايبانيس وقدراته الإبداعية الفريدة



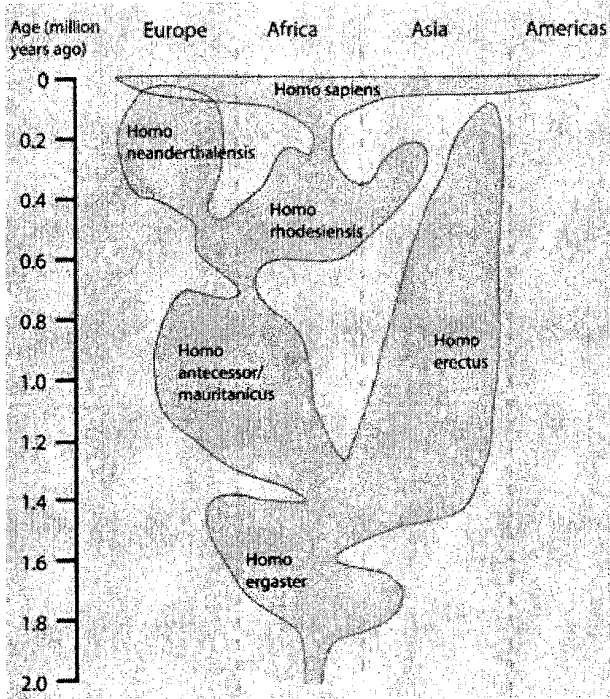
لأسباب ما - يصر العلماء دائماً على تلخيصها في أسباب مناخية - هاجرت جماعات من الهومو سايبانيس إلى أوروبا وآسيا منذ حوالي 100 ألف سنة. كان العلماء يتصورون أن هجرة الهومو سايبانيس إلى أوروبا فشلت بسبب الصدام مع إنسان النيندرتالر الذي كان العلماء الأوروبيون يتصورون أنه جد الجنس الأوروبي. ولكن الأبحاث العلمية ظلت تناقض هذا التصور باستمرار على أساس أن آثار السايبانيس كانت تزداد انتشاراً مع الوقت فيما نقل آثار النيندرتالر. وفي عام 1994 قام العلماء بسلسلة أبحاث على الحامض النووي لتحديد حقيقة العنصر الأوروبي فاكتشفوا بشكل نهائي أن الأوروبيين ينحدرون أيضاً من الجنس السايبانيس آخر عنصر بشري هاجر من إفريقيا. أي أن النيندرتالر اختفى تماماً وكان آخر أثر له هو موقع في البرتغال يعود إلى 30 ألف سنة سابقة. كان هذا بسبب الصدام المستمر مع عنصر السايبانيس الذي أثبتت

الأبحاث أنه كان أكثر تطورًا على المستوى العقلي رغم تفوق النيندرتالر الجسدي عليه، فاستطاع على مدى 100 ألف سنة أن يقضي تمامًا على النيندرتالر ويصبح الكائن البشري الأوحى على ظهر الأرض. حتى أن الآسيويين أيضًا ينحدرون من نفس الجنس السابيانس.

سلسلة تتابع هجرات البشر الأفارقة إلى أوروبا وآسيا (ثم الأمريكتين في وقت متأخر) لم تتغير منذ 2,5 مليون سنة، وانقراض البشر خارج إفريقيا ثم تجديد الانتشار بهجرات إفريقية جديدة أيضًا لم يتغير. ولهذا فإن كل البشر على وجه الأرض الآن ينتمون إلى عنصر السابيانس وهو آخر إنتاج بشري إفريقي. وهذا الرسم البياني البسيط يلخص تطور البشر وهجراتهم المستمرة لتعمير الأرض.

خلاصة

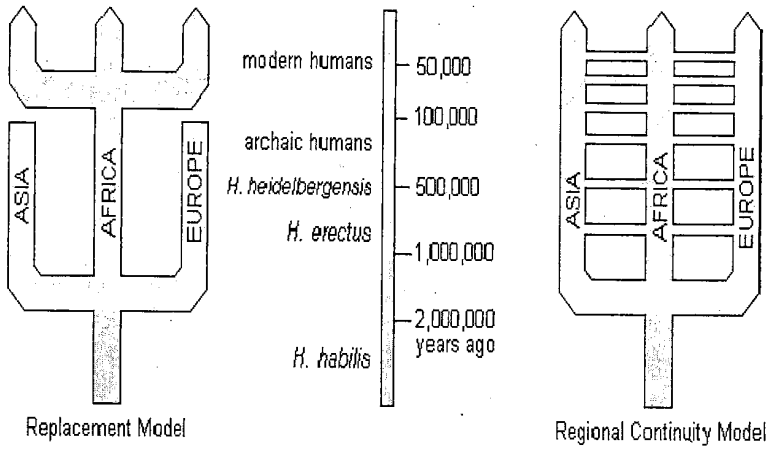
رسم بياني يبسط تطور البشر وهجراتهم



هذا الرسم البياني يحدد القارات في التقسيم الأفقي تبدأ من اليمين بأمريكا، ثم آسيا، ثم إفريقيا، ثم أوروبا. والتقسيم الرأسى يحدد الزمن، الذي يبدأ من الصفر حتى 2 مليون سنة. ويظهر الرسم البياني كيف أن إفريقيا كانت بداية الإنسان. وكانت القارة الوحيدة التي تطور فيها الإنسان، والقارة التي كانت تصدر البشر إلى أنحاء المعمورة.

والرسم البياني الثاني أصدره معهد سميثونيان (Smithsonian) الإنجليزي وهو من أهم المؤسسات العالمية في بريطانيا والعالم¹⁷. يبين هذا الرسم - بتبسيط جيد الدور - المركزي لإفريقيا في نشأة العنصر البشري وتطويره ومد القارات الأخرى بالبشر الأكثر تطوراً.

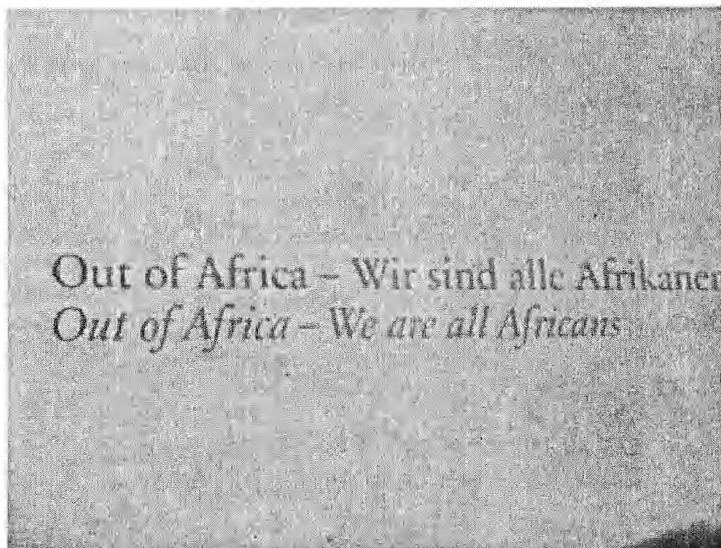
رسم بياني من معهد سميثونيان.



في المتحف المصري ببرلين وفي القاعة العليا؛ حيث يوجد قسم عن الأنثروبولوجي، في هذا القسم توجد لافتة تلخص هذا التاريخ الطويل للتطور الإنساني؛ حيث تقول بعدة لغات (نحن جميعاً أفارقة) ولافتة أخرى تقول (الخروج من إفريقيا).

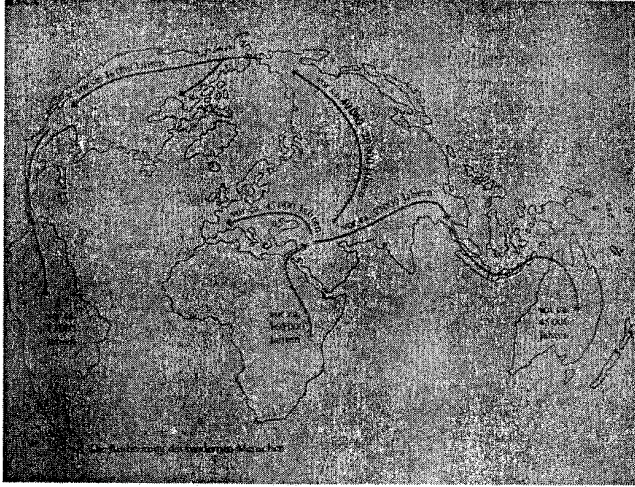
¹⁷ معهد سميثونيان معهد إنجليزي وسلسلة متاحف علمية تأسس سنة 1848، وينشر مجلة شهرية بنفس الاسم، وهذا الرسم من العدد يوليو 2008

لافتة من قسم الأثنروبولوجي في المتحف المصري ببرلين



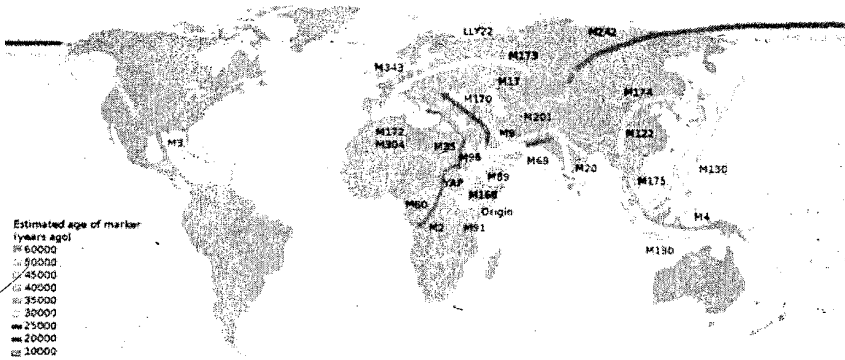
وهناك رسم آخر في نفس المتحف يوضح خريطة الهجرات التي قام بها الهومو سابينس (الإنسان العاقل). وخريطة الهجرات هذه توضح أيضاً طريقة هجرات الجماعات البشرية السابقة على الهومو يابينس (الإنسان العاقل) مع بعض احتمالات بسيطة وهي أن باب المنذب كان أحد المنافذ من إفريقيا لآسيا. وأن الهومو سابينس فقط هو الوحيد الذي انتقل من آسيا إلى أمريكا عن طريق آلاسكا وذلك قبل حوالي 10 آلاف سنة. ثم هجرة أخرى عبر الأطلنطي منذ 500 سنة تقريباً بعد اكتشافات كولومبوس.

خريطة الهجرات. لاحظ أن الجزيرة العربية هي مركز التوزيع الرئيسي لكل الهجرات لجميع الأجناس البشرية.



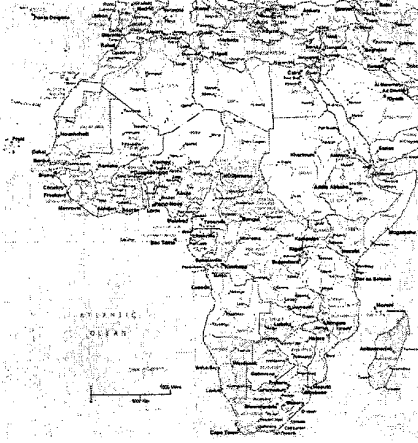
وهذه الخريطة توضح بتفصيل أكثر تاريخ الهجرات القديمة حتى آخر 10 آلاف سنة من عمر الإنسان. وسوف نتعرض لها بالتفصيل لاحقاً.

خريطة توضح الهجرات. الجزيرة العربية هي مركز التوزيع



1- أن الإنسان ظهر في إفريقيا وبالتحديد في المنطقة ما بين كينيا، تانزانيا وإثيوبيا وهي منطقة منابع النيل كما اتفق العلماء.

منطقة ظهور الإنسان ومنطقة بداية ظهور كل نوع متطور من الإنسان.



2- أن البيئة الإفريقية كانت المطبخ الوحيد القادر على تطوير البشر بشكل أكثر فاعلية تسمح له بالاستمرار.

3- أن هناك هجرات منتظمة تسلك خطأً يتكرر باستمرار على مدار ملايين السنين للخروج من إفريقيا لتعمير الأرض في آسيا وأوروبا ومؤخرًا الأمريكتين.

يبرر العلماء الخروج من إفريقيا بظواهر مناخية يمثلها البحث عن الغذاء والماء والطقس المناسب. ربما كان هذا الاحتمال قائمًا، ولكن تصور أفريقيا في هذا الزمن بدون تصحر¹⁸، ومليئة بغابات

¹⁸ ظاهرة التصحر في إفريقيا ظاهرة حديثة لا تتجاوز القرن العشرين، وكانت الغابات الكثيفة حتى وقت قريب هي إحدى مميزات هذه القارة.

السافانا والأمطار والمياه والحيوانات، مع اتساع مساحتها الضخمة، مع قلة عدد البشر في هذا الزمن السحيق (يقدر العلماء تعداد البشر السابيانس عند المائة ألف السابقة بوضع عشرات آلاف وليس ملايين)، هذا جعل من الصعب تصور وجود نقص غذائي يدعو لهذه الهجرات التي تتجاوز آلاف الكيلومترات، مع ضرورة تجاوز موانع مائية بركوب قوارب بدائية وهو ما كان يمثل مغامرة غير مضمونة وباهظة التكلفة¹⁹. ولكن تكرر هذه الهجرات مع كل نوع بشري وهي ظاهرة مؤكدة وأساسية لتعمير الأرض تتكرر على مدى ملايين السنين²⁰، وتذكرنا بهجرة الطيور المنتظمة كل عام وهجرات الأسماك مثل السردين في مواسم محددة لنفس الأماكن التي تبعد آلاف الكيلومترات كظاهرة كونية تتعلق بما يعرف بالساعة الكونية التي تخترق قوى العقل في فهم الجغرافيا والمناخ والطرق، وتعتمد على فطرة تولد بها الكائنات كبرنامج في الجينات لم يوجد الكائن الحي ولكن أوجدته الطبيعة فيه تحتمه ضرورة الاستمرار والتطور.

كان لظهور الإنسان وتطوره الحصري في إفريقيا، وكان لضرورة انتشاره في العالم أن تتحول مصر والجزيرة العربية لتصبح أهم مركز توزيع للبشر في العالم. فينتقل الإنسان من مصر إلى الجزيرة العربية، أو عن طريق اليمن إلى الجزيرة ومنها إلى أنحاء المعمورة عن طريق ثلاث هجرات أساسية. الأولى إلى الشمال (شمال آسيا)، والثانية إلى الغرب (أوروبا)، والثالثة إلى الشرق (جنوب شرق آسيا) حيث ينتقل بعد ذلك في هجرات فرعية ليصل إلى كل بقاع الأرض. والتاريخ الأنثروبولوجي يظهر بشكل مقنع

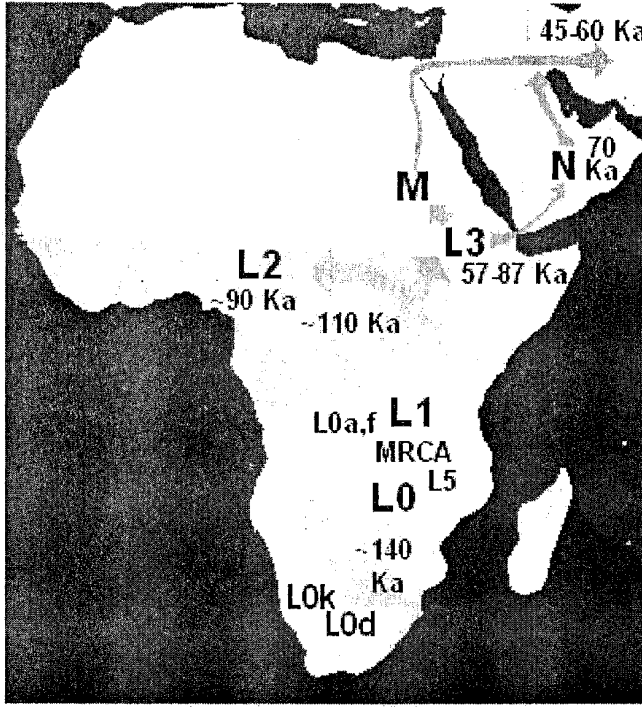
¹⁹ انتقل الهومو سابينس إلى أستراليا قبل حوالي 40 ألف سنة عن طريق القوارب، وإلى اليابان قبل 30 ألف سنة وإلى الأمريكتين أيضا قبل 25 ألف سنة وأيضا عن طريق القوارب.
²⁰ Seafaring in the Pleistocene". *Cambridge Archaeological Journal* 13 (1).

أن هذا التوزيع كان التوزيع الأساسي للهجرات الإنسانية منذ ملايين السنين. بل إن حتى ظهور الإنسان في شمال إفريقيا وهو هجرة من مركز التوزيع الرئيسي (مصر والجزيرة العربية) في هجرة غربية شملت أوروبا وشمال إفريقيا في وقت متزامن لتكون ما يعرف بشعوب البحر الأبيض المتوسط. وكان ذلك حوالي 20 ألف سنة قبل الميلاد وهو ما سنتعرض له لاحقاً.

وفي بحث مهم لدكتور كيلى في جامعة ليدس (University Leads) ببريطانيا تحت عنوان:

New 'molecular clock' aids dating of human migration history

وقد نشر هذا البحث يوم 3 يونيو عام 2009 وكان عن الرمز (حواء الميتوكوندريال) الذي يرمز به العلماء لبداية ظهور الهومو سابينس وهو بداية الإنسان الحالي. وقد أظهر بروفيسور كيلى أصل هذه الحواء (الرمز) وهجرات نسلها كما توضحه هذه الخريطة:



هذه هي البداية المنفق عليها للتاريخ.

الفصل الثاني

العصر الحجري القديم

يقسم العلماء العصر الحجري إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول ويسمى Paleolithic (العصر الحجري القديم) وهو يقسم بدوره إلى ثلاث فترات هي:

- 1- Lower Paleolithic وهي المدة من 2,5 مليون سنة حتى 200 ألف سنة. أي فترة العصر الحجري قبل ظهور الهوموسابيانس، وهي الفترة التي كان الإنسان يستعمل فيها أدوات حجرية، ويعني بالعربية العصر الحجري الأدنى.
- 2- Middle Paleolithic وهي المدة من 200 ألف سنة حتى 40 ألف سنة، وهي فترة ظهور الهوموسابيانس، وتنتهي عند ما يسميه العلماء ببداية النشاط المتحضر، ويسمى العربية العصر الحجري الأوسط.
- 3- Upper Paleolithic وهي المدة من 40 ألف سنة حتى 10 آلاف سنة قبل الميلاد وهي الفترة الأخيرة من العصر الحجري وبداية اكتشاف الزراعة، ويسمى بالعربية العصر الحجري الأعلى.

القسم الثاني ويسمى Neolithic وهو يمتد من 10 آلاف سنة حتى نهاية العصر الحجري وبداية الحضارات القديمة وقد حدث هذا في المنطقة العربية عند 6 آلاف سنة قبل الميلاد وفي أوروبا وآسيا حوالي 3 آلاف سنة قبل الميلاد، ويسمى بالعربية بالعصر الحجري الجديد أو (الأخير) ويجب التفريق بين العصر الحجري الأعلى والعصر الحجري الجديد أو الأخير.

وفي الفترة الثالثة من القسم الأول الذي يعرف بالباليو ليتيك الأعلى حدث تطور مهم، وإن كانت بداية ملامحه نلاحظها في الباليو ليتيك الأوسط.

الكهوف

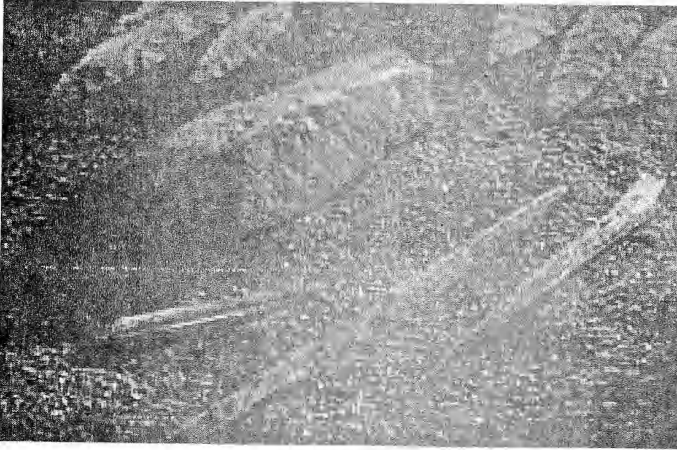
بدأ إنسان العصر الحجري حياته في كهوف تنتشر في كل بقاع الأرض. وتعطينا هذه الكهوف مادة عظيمة لدراسات هذه المجتمعات القديمة، وذلك من خلال أدوات تستعمل عظامًا لحيوانات وبشر ممكن دراستها، رسوم وإشارات، بعض التماثيل، وأشياء أخرى مثل حلي وخلافه مما يمكننا لتكوين تصور عن طبيعة هذه الجماعات.

الباليولتك الأوسط

بولومبوس

من الكهوف القديمة والهامة كهف بولومبوس في جنوب إفريقيا. وهذا الكهف يعود إلى 80 ألف سنة للوراء (صورة رقم 1). وهو يخص مجموعة من الهومو سايبانيس. وأهمية هذا الكهف أنه يحتوي مجموعة من الأدوات الدقيقة والحادة.

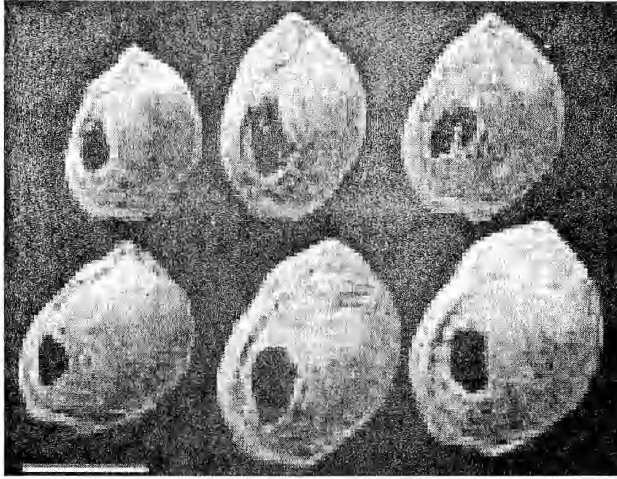
صورة 1. كهف بولومبوس في جنوب إفريقيا.



يلاحظ الحدة والدقة في هذه الحراب الدقيقة المصنعة من العظام التي تم حفها بمهارة. وهذه الأدوات المخصصة للصيد والجرب تظهر قدرة الهومو سايبانيس الفائقة على تطوير أدواته. ومن خلال عدة أبحاث لجامعة تولوز الفرنسية (Toulouse) تحت إشراف د. فتسانت مور عام 2010 تعتقد أن الإنسان في هذا الزمن قد

عرف تكنولوجيا الضغط الحجري²¹. وكان في هذا الكهف مجموعة من القواقع المنقوبة بعناية (صورة رقم 2).

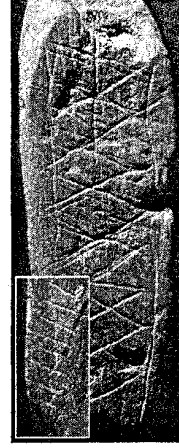
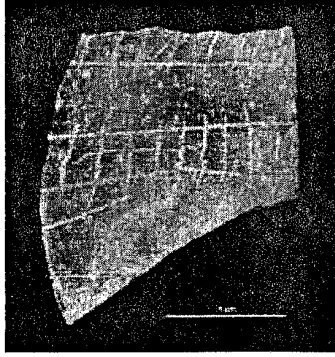
صورة رقم 2. القواقع المنقوبة



والتفسير الغالب لهذه القواقع أنها للزينة والتجمل. ويبدو أن طقس التجمل كان من الأهمية بمكان حتى أنه كان يبذل فيه مجهود ضخم وتركيز كبير في زمن لم يكن فيه أي وقت إلا للصراع من أجل البقاء. من الممكن من خلال مقارنة كمية قطع الزينة كعدد وانتشار وتقنية بآلات الصيد والحرب الأخرى أن نقول إنها كانت تمثل الأهمية نفسها. ويظل السؤال، هل كانت قطع الزينة للمرأة أم للرجل أم لكليهما معاً؟

في هذا الكهف نجد تخطيطات متكررة منحوتة في الصخور لأشكال هندسية تدعو إلى التأمل والتفكير (صورة رقم 3، 4)²².

²¹ الضغط الحجري هي عملية ضغط وتكسير حجر عن طريق حجر آخر لتحقيق حدة شديدة في أحدهما.



وقد احتار العلماء في تفسير هذه الخطوط. خطان طويلان متوازيان يقطعهما في الأولى مجموعة من الخطوط المائلة والمتقاطعة تخلق معينات متساوية المساحات وتتراص في نظام بين الخطين المتوازيين. وفي الثانية يقطع الخطين المتوازيين مجموعة من الخطوط الصغيرة الموازية لتخلق مستطيلات متساوية ومتراصة بين الخطين المتوازيين. هذه الأشكال المرسومة ليست حركة يد حرة عابثة، بل هي أشكال نتيجة عن فعل عقلي منطقي محدد يفهم التوازي والتقاطعات المستقيمة المتوازية والمائلة المتوازية والمعينات والمستطيلات المتطابقة. والسؤال هو:

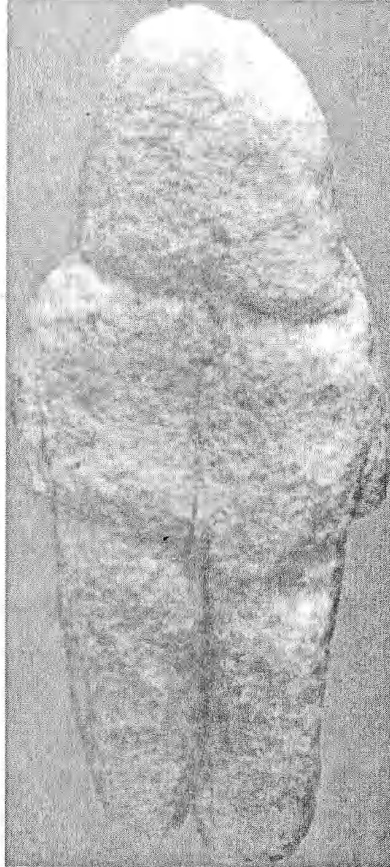
ما الباعث لهذا الرسم في هذا العصر الغارق في القدم؟

²² Botha, Rudolf P; Chris Knight (2009). *The cradle of language*. Oxford University Press. p. 49.

تظل الإجابة غامضة، ولكن يظل التعجب من قدرة هذا الإنسان البدائي على التفكير المنطقي الهندسي.

ومن المدهش أنه وجد في هذا الكهف الإفريقي الغارق في القدم (80 ألف سنة للوراء) واحد من أقدم تماثيل الآلهة المرأة (إيزيس الإنسان البدائي). ترى لماذا بدأ الإنسان في عمل تماثيل للمرأة وليس للرجل في هذا الوقت؟

صورة 5. إيزيس الإنسان البدائي



استمرت هذه الظاهرة لمئات الآلاف من السنين قبل أن تظهر
تمائيل الرجل فقط بعد نهاية العصر الحجري وبداية الحضارات
القديمة؟

الباليوليتك الأعلى

هذه الفترة تمتد من 40 ألف سنة حتى 10 آلاف سنة قبل الميلاد. وهناك عدة كهوف أهمها مجموعة الكهوف المنتشرة ما بين جنوب فرنسا وشمال إسبانيا يصل عددها إلى 350 كهفًا. هي كلها تخص هذه الفترة وبالتالي تخص الهومو سايبانوس. ونحن سنقتصر دراستنا على أهم هذه الكهوف والتي تظهر أهم ملامح هذا العصر.

كهف شوفيه

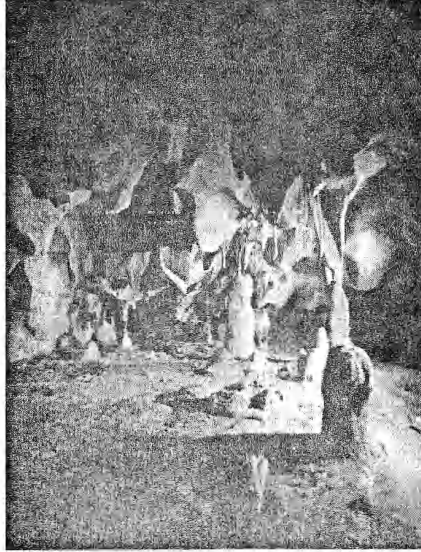
في يوم 18 ديسمبر من عام 1994 كان السيد جون ماري شوفيه وهو باحث في علم الكهوف مع صديقين هما إلبينا برونل وكريستيان هيلار في منطقة ساحرة من جنوب شرق فرنسا تسمى فولون بونت دارك. وفي نهاية اليوم وقبل حلول الليل بقليل اكتشف جون ماري مدخلًا بين الصخور وبعض الأشجار (صورة رقم 1). وبسرعة قرر مع أصدقائه عدم الانتظار للصباح، بل عادوا بسرعة للسيارة وأحضروا أدوات الحفر والاقترام. دخلوا المغارة وطبعًا اكتشفوا أنها كهف لجماعة من العصر الحجري. هالهم ما رأوه. أيقنوا أنهم أمام أهم كهف كشف حتى الآن (صورة رقم 2).

الكهف يعود إلى العام 30 ألف قبل الميلاد. أي أنها من بداية العصر الباليوليتك الأعلى بل هي من أجمل ما اكتشف في هذا العصر وكل عصر لجماعة الهومو سايبانوس القادم من إفريقيا. طول المغارة يصل إلى حوالي 400 متر تمتد داخل بطن الجبل في دهاليز ساحرة ينزل من أسقفها أعمدة صخرية تزيد الأمر جمالًا وسحرًا (صورة رقم 3). والأهم من كل ذلك كانت مجموعات كبيرة ومتنوعة من رسوم جدارية من أروع ما يكون، بل هي الأروع على الإطلاق في كل ما كشف حتى الآن.

صورة 1. مدخل كهف سوفييه من الخارج

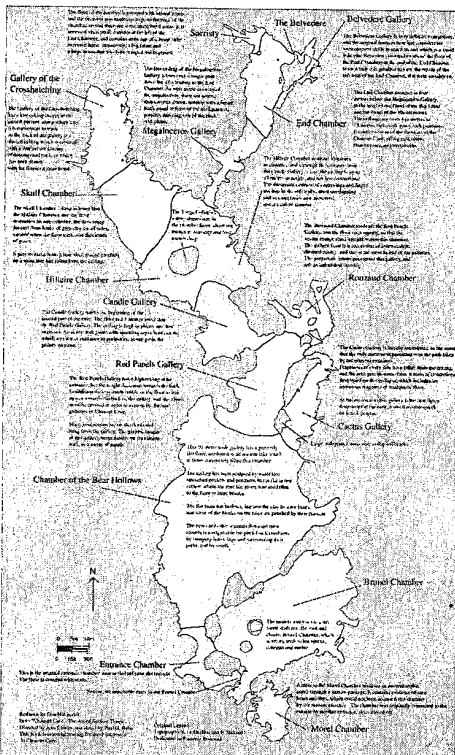


صورة 2. مدخل الكهف من الداخل، ولكن بالإضاءة الصناعية



مء اعادة قراءة التاريخ

صورة 3. خريطة لكهف شوفيه



في هذا الكهف بجانب بعض الأدوات الحجرية والحلي توجد مجموعة من الرسوم الفائقة الجمال والكمال لمختلف الحيوانات التي تمثل غذاء للإنسان وأخرى تمثل خطرًا عليه. والأخيرة هي الغالبة على الكهف (صورة رقم 4).

صورة رقم 4. رءوس الخيول



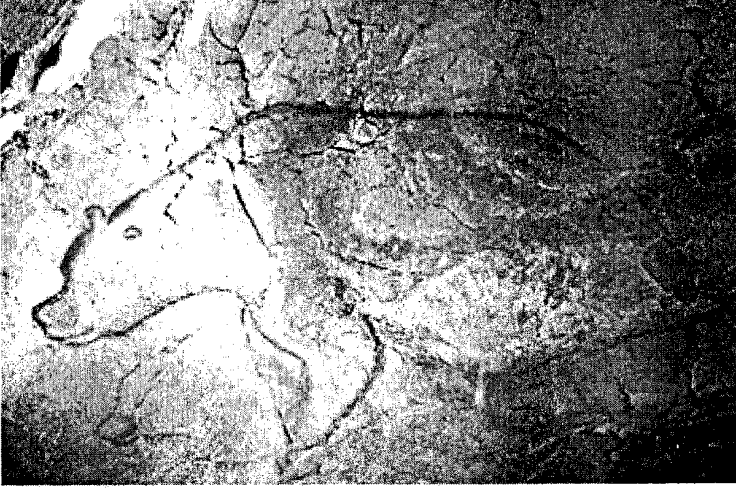
في صورة 4 لرءوس الخيول نلاحظ القدرة الفائقة على الرسم الصحيح من تشريح لا يخطئ وتظليل صحيح إلى أقصى درجة. طبعًا كان هذا بدون صورة فوتوغرافية لينقل منها الفنان هذه التفاصيل، بل من خلال رؤية بالعين المجردة للحيوان وهو في حالة جري أو هروب، ولكن كان هذا كافيًا للفنان لكي يقوم بتسجيله بمنتهى الدقة وإعادة رسمه ببراعة فائقة. استعمل الفنان تكنولوجيا خاصة للتلوين مستعملًا الفحم للون الأسود صخور الأوكر للون الأوكر والبنيات والألوان الزرقاء والخضراء من بعض الأكاسيد الموجودة في بعض الصخور.

صورة رقم 5 مجموعة لرعوس أسود وذئاب



في هذه الصورة (صورة رقم 5) لنفس الكهف نجد مجموعة رائعة لرعوس ذئاب وأسود غاية في الدقة والفهم التشريحي والبروزات والغوائر. طبعاً لم يحضر الفنان هذه الضواري إلى الكهف وأقعدتها ساكنة تحت إضاءة نيران لرسمها، بل هي لحظات رأى فيها هذه الضواري المخيفة إما في حالة هجوم أو هروب وهي بالقطع مجرد ثوان. وكانت هذه الثواني كافية لعينيه الفوتوجرافية لكي يسجلها ويرسمها داخل الكهف تحت أضواء المشاعل مظهرًا العظام والعضلات البارزة في الرعوس مع التظليل المدهش والذي لا يقل براعة بل ويتفوق على قدرات أي فنان معاصر درس التشريح والمنظور والتظليل وذلك بدون أدنى شك.

صورة رقم 6. صورة دب



في هذه الصورة في نفس الكهف (صورة رقم 6) نجد البراعة في الخط المرن المتصل والرشييق الذي يحدد بدقة جسم الدب بكل منحنياته وعظامه وتفاصيل الرأس، مع الاحتفاظ بالنسب التشريحية وصفات الدب الخاصة من طبيعة الرأس والجسم وباقي التفاصيل.

صورة رقم 7 ضبع (الشكل الكبير) وفهد (الشكل الأصغر)



في هذا الرسم الرائع (صورة رقم 7) نجد ضبعًا بجسمه المميز مع تنقيط بسيط في مناطق الرقبة حيث يوجد التنقيط في الطبيعة. وتحت الضبع نجد فهدًا منقطًا بشكل رائع في مناطق التنقيط الحقيقية مع ترك البطن السفلي أبيض كما هو تمامًا في الواقع. فهم كامل لطبيعة جسم الفهد وحجم الرأس التسبي والزيل كل التفاصيل محققة ببراعة مع استعمال الخط الخارجي الرشيح الجميل. درجة البراعة في الرسم تتفوق على فناني العصر الحديث الذين يعجزون بالتأكد عن رسم هذه الحيوانات بدون دراسة تشريح الجسم وتأملها في صور، أو في أقصاف في حدائق الحيوان. ولكن هذا الفنان الذي

عاش منذ 32 ألف سنة استطاع فقط من خلال نظرة عين فوتوغرافية أن يقدر على دراسة وتسجيل كل التفاصيل في لحظات بسيطة.

صورة 8. الخرتيت

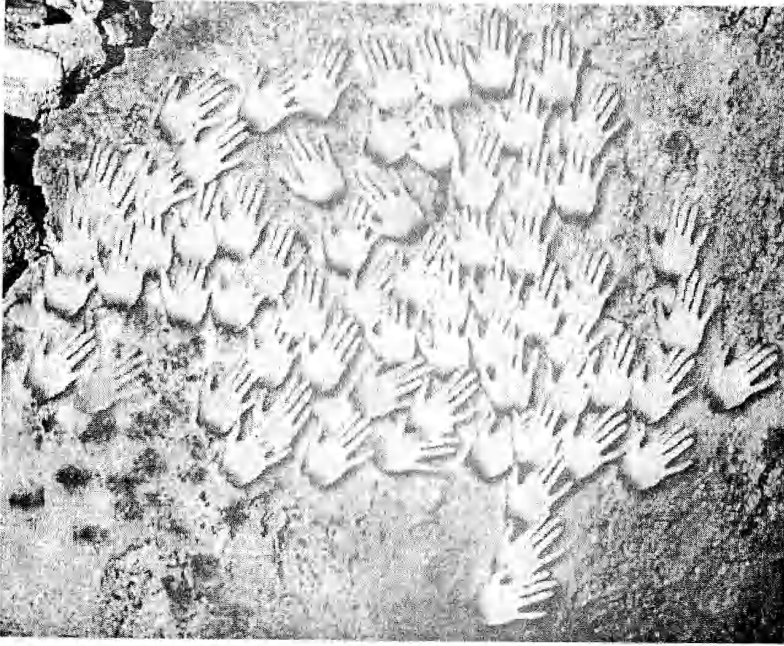


على أحد جدران الكهف نرى أيضاً رسماً رائعاً للخرتيت (صورة 8). هناك شكل متكامل لخرتيت مع احتفاظه بالنسب الطبيعية، وخلفه خرتيت آخر بقرن عملاق يتكرر بالتردد إلى الخلف مع تردد الجسم أيضاً، وهو تكنيك يذكرنا بالمستقبليين في فرنسا وإيطاليا في الخمسينيات من القرن الماضي²³. والسؤال هنا: هل هذا الرسم محاولة فذة لرسم الحركة؟ أم هي مجموعة خرائيت خلف بعضها البعض في منظور عبقرى؟ أي من الإجابتين يظهر مدى إعجاز

²³ هم مجموعة من الفنانين الفرنسيين والإيطاليين في منتصف القرن الماضي، أهمهم أومبرتو بوكسيوني، كارلو دي كيرا، لويجي روسولو، جيني سرفيريني. وكان بحثهم الأساسي في كيفية تحقيق الحركة في الرسم والتصوير. وكان من أهم تكتيقاتهم في هذا المضمار هو تكرار الشكل المتحرك عدة مرات، للإيهام بالحركة.

الفنان السابيانس القادم من إفريقيا في هذا العصر القديم، ويظهر مدى تطور قدراته الذهنية الفائقة. فإن رسم مجموعة من الخرافات خلف بعضها البعض فهذا إعجاز في المنظور الذي ظل حتى وقت قريب يوزع العناصر فوق بعضها البعض لتبيان الأمامي والخلفي. وإن كان للتعبير عن الحركة فهذا إعجاز أشد، ورؤية وخيال مذهل. ليس عجباً أن ينتصر هذا الإنسان المبدع على غريمه النيندرتالر الأقوى منه جسدياً، والأقدر منه على تحمل الأجواء الباردة.

صورة 9. الكفوف



هذه الصورة تمثل مجموعة كفوف. هي في الحقيقة كف واحد أيمن يتكرر باستمرار. يجمع العلماء أن فن الكهوف بدأ بهذه الصورة. وهي ربما صورة صنعتها إحدى المصادفات عندما وضع أحد أفراد الجماعة يده الملطخة بالدماء على أحد الجدران فتركت

طابعها على الجدار. وربما هزه هذا الاكتشاف كما يهز طفل صغير. فبدأ ولعه بتكرار هذا الفعل كبداية لاكتشاف الرسم (القدرة على الخلق) والانهيار به. وتطورت المسألة فيما بعد لتصبح نشاطاً مهماً، بل في غاية الأهمية لهذه الجماعة. نلاحظ في هذه الصورة (بعد التحليل) رقة الكف المتكرر وطول أصابعه الدقيقة والتي لا تتناسب كف وأصابع صائد محارب متعود على الإمساك بحجر الصوان بقوة والطنن به في الصراعات المتكررة، أو كف من يعمل على شحذ الأحجار والعظام القوية لصناعة أدوات الصيد والحرب. الكف أقرب لكف موسيقي أو جراح أو فنان. وربما كان كف امرأة: لكنها على أية حال كف لشخص يقوم بأعمال دقيقة وليست شاقة. هو شخص لا يشترك لا في الصيد أو الحرب ولا في الأعمال الشاقة الأخرى. ربما كانت وظيفته الوحيدة هي ما نراه من الرسم على الجدران. وهو - طبعاً - شخص يقوم غيره على العناية بنصيبه من الصيد والأكل. ومما لا شك فيه أن هذا العمل (الرسم على الجدران كان يحتاج إلى تفرغ كامل للتدريب عليه وإتقان التكنيك في التلوين من تحضير الصبغات النباتية والأكاسيد الملونة المختلفة، وإيجاد حجر الأوكرا الأساسي في تلوين الصور وتحضير كميات الفحم الخاصة بالرسم ثم التدريب على الرسم. ومن الصعب تصور أن الرسام كان صائداً يقضي طول اليوم مع الآخرين في البحث عن صيد ثم يبدأ مطاردته للصيد والتي قد تتجح أو لا تتجح مع كل ما يمكن أن يقابله مع الآخرين من أخطار يجب الدفاع عنها، ثم يعود منهكاً (إذا كتب له العودة) ثم يبدأ الرسم قبل أن يخلد للنوم. كان بالتأكيد متفرغاً لعمله داخل الكهف تاركاً الآخرين يعتنون بما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب وملبس ونوم. ربما كان هذا هو أول تقسيم طبقي اجتماعي على الإطلاق. كان هناك شخص لا يعمل، ولكن يعمل الآخرون من أجله. وكان هذا الشخص هو الفنان (الأب الروحي). ومن السهل تصور إلى أي مدى كانت سلطته على

الأخريين من خلال الرسم. فمن خلال التجربة البسيطة التي نعرفها جميعاً نرى كيف تبكي سيدات البيوت أو الجدات الطيبات أو حتى الرجال لرؤية الأفلام الرومانسية لعماد حمدي أو فاتن حمامة، وذلك رغم علمهم أن ما يرونه ما هو إلا تمثيل فقط. والتأثير النفسي على الإنسان من خلال الصورة قوي لدرجة أن الناس في عصر النهضة في إيطاليا كانت تتجمع على الطرق لترى أعمال الفنانين للمسيح ومريم وهي تسير على الطرق محملة على عربات تجرها الخيول ذاهبة إلى الكنائس وكانت الجموع على الصفيين تبكي بحرقه تأثراً بالصورة الدرامية؛ ذلك لأن التفريق بين الخيال والحقيقة هو شيء مكتسب لا يولد به الإنسان. ومن السهل تصور أن تأثير هذه الصور على جدران الكهوف كان لا يقل عن تأثير الصور والسينما اليوم على الناس، بل كان يزيد كثيراً. فالفرق بين الخيال والحقيقة يكون من الصعب تصور وجود خبرة به في هذا الزمن القديم. بل ربما حتى أن الإحساس بالزمن لم يكن كما نشعر به اليوم من ماضٍ وحاضر ومستقبل. بل ربما كان إحساساً بحاضر مستمر، فما يكون قد رآه يصلح أن يكون موجوداً في الغد. ومن الممكن تصور أن هذه الرسوم على الجدران ربما كانت أيضاً محاولة لامتلاك القوى الجبارة التي تمتلكها هذه الضواري الخطيرة خاصة وأن الفنان كان يهتم بزسم الرؤوس التي تثير الرعب في النفوس لما بها من عيون وأنياب وقرون تمثل قوة الحيوان، وذلك كتقليد تطور فيما بعد بأن أصبح المحاربون يرتدون أقنعة تصور أنواع الضواري للتمثيل بها أو وضع قرون الثيران على رؤوس المحاربين لمحاولة امتلاك القوى المطلوبة كما تصور لأعدائهم أنهم يمتلكون نفس القوى.

ويلاحظ أيضاً أن معظم الرسوم كانت في أماكن بعيدة خفية في الكهف المظلم الطويل المليء بالحجرات والأركان الخفية الغارقة

في الظلمة والتي لا ترى إلا بمساعدة مشاعل. ربما أنها كانت لزيارات محددة في مناسبات محددة ولأسباب محددة، وليست للرؤية اليومية للكل. ووجود هذه الرسومات في جو معتم لترى فقط عن طريق المشاعل بعد رحلة مخيفة في طرق الكهف الداخلية والمظلمة وغير المعروفة فهذا يجعلها مفاجأة مفرجة لمن يراها. ربما كان هذا أيضًا أحد الأسباب. ربما كان الرسام يستعملها كأحد السبل للتأثير لإيهام أفراد القبيلة ببعض الأفكار من ترهيب أوطاعة أو تهديد. وهناك نظرية هامة لهنري بويل وهي تفسير رسومات الكهوف على أنها طقوس سحرية للصيد أي لزيادة عدد الأبقار والخيول المراد صيدها²⁴. ولكن هذه النظرية تصطدم برسم الحيوانات المخيفة، وهي الحيوانات التي لا يريد الفنان أن يقابلها أو أن تتكاثر؛ لأنها تهدد حياته، فإذا كانت هذه النظرية منطقية في كهوف لاحقة فهي لا تستطيع تفسير رسوم كهف شوفيه. وهناك نظرية أخرى لدافيد لويس وليامس²⁵ وهو يرى أن هذه الرسوم ربما كان الغرض منها الخروج من جدران الكهف. وهي نظرية بها من الغرابة أكثر ما بها من التفسير، فلماذا يتمنى الساحر الخروج من الجدران وهو غير محبوس داخله؟ بل هو موجود داخل الكهف بملء إرادته، فالكهف يمثل نوعًا من الحماية للجماعة البشرية داخله.

كان هذا الرسام هو الأب الروحي للجماعة وصاحب الكلمة فيها. هل كان هذا الفنان رجلاً أم امرأة؟ إنها مازالت مسألة بحث. على

²⁴ Henry Boel, Four Hundred Centuries of Cave Art. Montignac, Dordogne, 1952.

²⁵ Lewis-Williams, D.J. and Clottes, J., 1998. The Shamans of prehistory: trance magic and the painted caves. Abrams, New York.

أي الأحوال كان هذا هو البداية الحقيقية لأول نشاط ذهني لإنسان الكهوف. على الإطلاق.

مجموعة كهوف بين 17، 20 ألف سنة قبل الميلاد

1- ألتاميرا

أكتشف هذا الكهف في العام 1897 في شمال إسبانيا. ويقال إن طفلة عمرها 9 سنوات اسمها سانتيلانا دالمار كانت وراء هذا الكشف. على كل كانت هذه الطفلة ابنة للباحث مارسيلينو سانز دي ساوتولا والذي كان يعمل كأركيلوجي. عندما دخل الكهف مع ابنته اكتشف أنه دخل مغارة تضاهي في أهميتها مغارة علي بابا²⁶.

مدخل كهف ألتاميرا



²⁶ Hugo The Cave of Altamira at Santillana del Mar, Spain (with Madrid, 1935 Obermaier.

يعود تاريخ هذا الكهف إلى حوالي 17 ألف سنة قبل الميلاد. أي ينتمي إلى فترة الباليوليتك الأعلى²⁷. وهي نفس الفترة التي ينتمي إليها كهف شوفيه، وإن كان شوفيه في بداية المرحلة والتاميرا في وسطها. تمتاز هذه المرحلة بالرسوم الرائعة ذات الطبيعة الواقعية.

صورة 1. جدار كهف التاميرا، بها ثيران متعددة



²⁷ Sieveking, H., 1979: *The Cave Artists*, London: Thames & Hudson, 1979.

في هذا الجزء من الجدار نجد رسوماً لعدة ثيران²⁸. الأكبر منها هو أكثرها وضوحاً. نلاحظ الدقة والفهم الشديد لتشريح الثور وتوزيع العظم به ونلاحظ أيضاً توزيع الشعر على بعض المناطق على الجلد الخارجي. نلاحظ أيضاً استعمال الفاتح والغامق لتحديد البارز والغائر في فهم كامل لهذا التكنيك. عرف تاريخ الفن نوعين من التكنيك. الأول هو اللجوء إلى الخطوط لتحديد التفاصيل، والثاني اللجوء للظل والضوء والغامق والفاتح لتحديد التفاصيل. وهذا التكنيك الأخير (الظل والضوء) الأكثر تطوراً ولم تعرفه البشرية إلا في بورتريهات الفيوم²⁹. والعجيب أنه نفس التكنيك المتقدم المستعمل في هذه الكهوف.

صورة 2. بقرة من نفس الكهف التاميرا



²⁸ Valladas, J. et al, 1992: Direct radiocarbon dates for prehistoric paintings at the Altamira.

²⁹ مجموعة من البورتريهات تقدر ب 90 بورتريهًا وجدت في مناطق متفرقة في مصر، ولكن الكثير منها كان في منطقة الفيوم. وهي تمتاز بمستوى غاية في التقدم لدرجة أنها تعتبر معجزة فنية. ولم يستطع تاريخ الفن الوصول مرة أخرى لهذا المستوى إلا في عصر النهضة المتأخر على يد فنانيين مثل: ليوناردو دافنشي، وميكل أنجلو، ورافائيل سانزيو، وتيتسيانو.

في هذه الصورة نرى أيضاً القدرة الفائقة على الرسم والفهم الكامل لتشريح جسم البقرة واستيعاب المنظور في عمل أقدام خلفية يختفي جزء منها وأخرى أمامية تظهر كلها. كما نلاحظ أيضاً توزيع ألوان البقرة من الأحمر والأسود. في الأماكن الخاصة بكل لون³⁰.

2- لاسكو

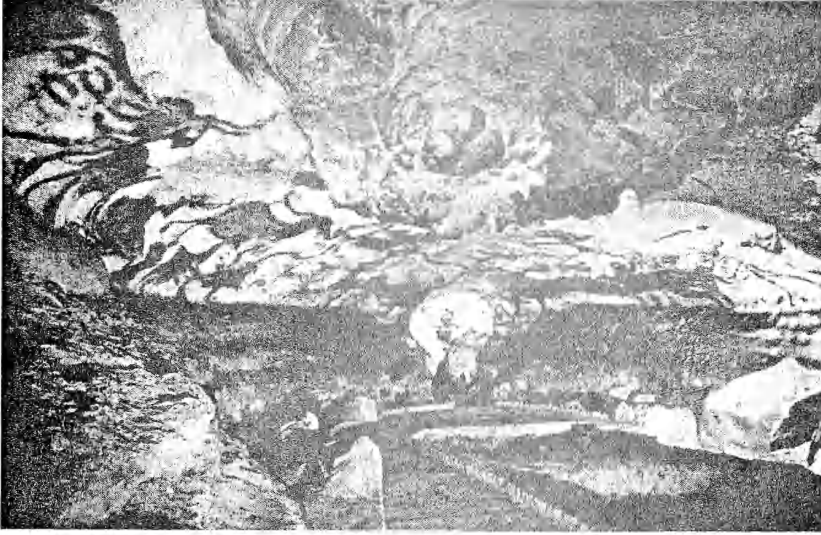
في يوم 19 سبتمبر سنة 1945 كان يعسكر 4 صبية من فريق الكشافة في منطقة أخرى في جنوب فرنسا تسمى لاسكو. وأثناء تجوالهم وبسبب فضولهم الشديد والرغبة في الكشف كفريق كشافة دخلوا شقاً كان يختفي وراء مجموعة من الأشجار الكثيفة. لقوا أنفسهم في مغارة. لاحظ الصبية أنهم في مغارة غير عادية. أبلغوا عن الكهف. وبالفعل اكتشف العلماء أنه كهف من كهوف العصر الحجري. أطلق عليه اسم كهف لاسكو. كهف لاسكو طوله حوالي 18 متراً وعرضه يصل إلى 7 أمتار وارتفاعه يصل إلى 6 أمتار³¹.

وكل كهوف هذه الفترة لم تكن هناك رسوم لحيوانات مفترسة، ولكن مثل: رسوم ألباميرا أبقار وخيول.

³⁰ Lewis-Williams, D.J. and Clottes, J., 1998. The mind in the cave - the cave in the mind.

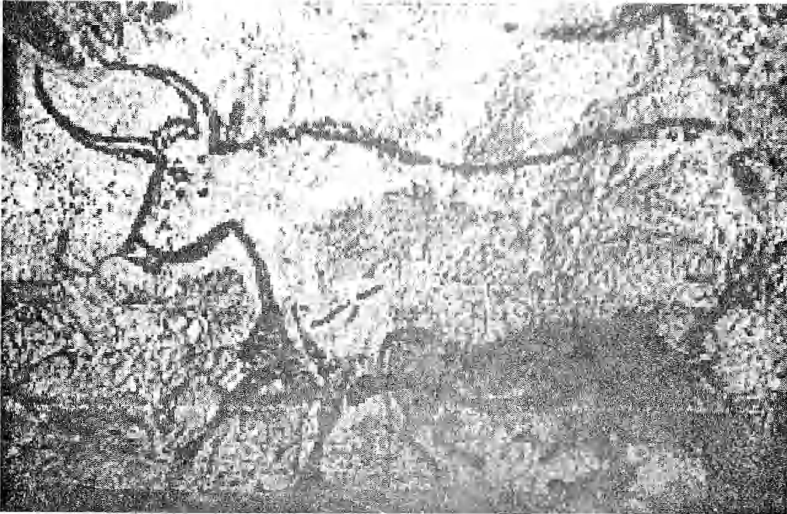
³¹ Waechter, J. , 1991: *Man Before History*.

صورة 1 منظر عام لكهف لاسكو.



مع الدراسة الدقيقة للأشكال نكتشف الآتي.

صورة 2. الثور الأول المتجه من اليمين إلى اليسار.



رسما في حركتين معكوستين، كما هما في الطبيعة. وليسا في حركتين متوازيتين. وهذا فهم متقدم جدًا لا يعرفه إلا المحترفون في القرون القريبة. ونلاحظ أيضًا أن الفنان استطاع بتكنيك مختلف في استعمال الخط عمل شعر في منطقة ظهر الرقبة والظهر قبيل الذيل. كما نلاحظ التظليل في منطقة البطن السفلي وهي منطقة الظلال التي لا يصل إليها الضوء. يلاحظ وجود بعض النقاط الغريبة حول العين. كما نلاحظ أيضًا وجود جسم على ظهر الرقبة خلف الرأس. ربما كان هذا الجسم أداة صيد صوبت إلى ظهر عنق الحيوان.

صورة 3. الثور الثاني



في صورة 3. الثور الثاني وهو يجري أيضًا في نفس الاتجاه. نلاحظ تكرار نفس الملاحظات. القدرة الكاملة على الرسم

والتشريح، رسم القرنين معكوسي الحركة. الفرق بين تكنيك خطوط الجلد والشعر على الرأس. المنظور في الأقدام الأمامية والخلفية. ثم نفس النقاط الغربية تحت العين وفي أعلى الظهر هذه المرة. والجسم الغريب أو أداة الصيد خلف الرأس.

في صورة الثور الثالث وهو لا يزال يجري في نفس الاتجاه نجد نفس الملامح السابقة:

صورة 4. الثور الثالث



في هذه الصورة 3 كما في سابقتها تتكرر نفس الخصائص من القدرة على الرسم والتشريح والمنظور كما نجد نفس أداة الصيد في

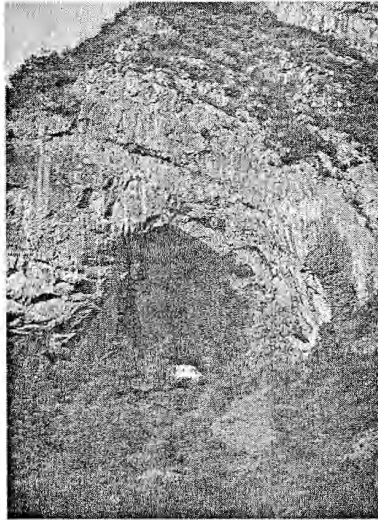
نفس المكان خلف الرأس، كما نجد أيضاً نفس النقاط خلف العين ونجدها أيضاً خارج جسم الثور فوقه وأمامه.

احترار بعض العلماء في تفسير هذه النقاط فالبعض حاول تفسيرها على أنها حساب للزمن بطريقة ما، ولكن الأمر لا يزال غامضاً.

3- كهف نيوكس (Niaux)

يوجد أيضاً في جنوب فرنسا. وهو من أشهر الكهوف على الإطلاق. كان هذا الكهف معروفاً منذ القرن الثامن عشر. فقط مع بداية القرن العشرين بدأ العلماء ينتبهون إليه³². مدخل هذا الكهف يمتاز بالضخامة، فإتساعه 50 متراً وارتفاعه 55 متراً ويمتد لمسافة 2 كيلو متر داخل الجبل. وهو يرتفع عن البحر بمسافة 670 متراً.

صورة مدخل كهف نياكس



³² Lewis-Williams, J.D., 2004. Consciousness, Intelligence and Art.

وبهذا الكهف مجموعة هائلة ورائعة من فنون الكهوف. يرجع تاريخ هذا الكهف إلى 12 ألف سنة قبل الميلاد، أي أنه يتبع عصر الباليوليتك الأعلى. وكان هذا الكهف مزاراً للسياح وهوارة الفن منذ عدة قرون³³

صورة تذكارية للكونت بجوين في زيارة له للكهف عام 1922



الصور في هذا الكهف - مثلها مثل صور كهوف الجزء الأخير من عص الباليولوتك الأعلى - تخلو تماماً من الحيوانات المتوحشة

³³ Lewis-Williams, J.D., 2001. The enigma of Palaeolithic cave art.

وتقتصر على الحيوانات المرغوبة من الإنسان في الصيد وهي الخيول والغزلان والثيران.

الصورة الأولى لثور مطعون بحربة



في الصورة الأولى وهي لثور مطعون بحربة نجد ملامح هذا العصر بوضوح. وهي القدرة الفائقة على الرسم وضبط النسب (نسبة الرأس للجسم للسيقان الأمامية والخلفية) وتوزيع العظام مع الفهم الكامل للتشريح. العناية برسم الشعر تحت الرقبة وفوقها وعلى عظمة الظهر. المنظور من سيقان أمامية وأخرى خلفية. حتى حوافر الثور رسمت بعناية.

الصورة الثانية لثور بحريتين



في الصورة الثانية نجد ثوراً يتجه من اليمين إلى اليسار تماماً كالثور الأول. وبه نفس الملامح السابقة من رسم وتشريح ونسب. ولكن كان الثور الأول مصاباً بحربة وفي الصورة الثانية فإن الثور مصاباً بحريتين. وظهور الحيوانات في معظم الحالات في حالة قنص وصيد يطرح التفسير بأن هذا كان أهم ما يهتم به هذا الإنسان في هذا الوقت. وهذا شيء يمكن فهمه ببساطة. وأن هذه الرسوم كانت لتأكيد القدرة على تحقيق هذا الفعل لأفراد القبيلة وإعطائهم الثقة. وكانت هذه الصور بمثابة الأفلام السينمائية الحماسية والحربية لذلك العصر. فالشخص العادي يشعر بارتفاع روحه المعنوية وثقته في النصر بشدة بعد مشاهدته لفيلم مثل (لا وقت للحب) لرشدي أباظة وفاتن حمامة أو فيلم (الطريق إلى إيلات)

لعزت العلايلي وثبيل الحلقاوي، وهو ما كان يحدث في ذلك العصر القديم لأفراد الجماعة لمشاهدتهم لهذه الصور الجدارية.

في الصورة الثالثة نجد حصانًا وغزالًا يتجهان من اليسار إلى اليمين.

صورة ثلاثة لحصان وغزال من اليسار إلى اليمين.



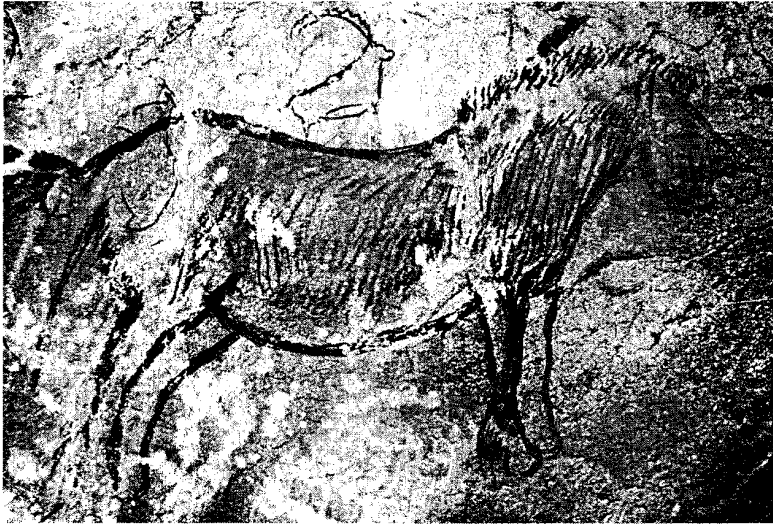
من اللافت للنظر في هذه الصورة أنه توجد في الحصان والغزال بعض الخطوط الزائدة مما يوحي بتصليح ما. أو أنه ربما بسبب هذه الأخطاء فإن الصور لم تكتمل. ولكن من خلال التحليل للخطوط الصحيحة والخاطئة نلاحظ الآتي:

الخط النازل من قرن الوعل مخترقًا الرقبة وموازيًا لها يصنع مع القرن منحنى واحدًا. ربما كان محاولة لربط القرن والرقبة في منحنى واحد ذي طبيعة هندسية.

وفي الحصان نجد خطأ يمتد من الرقبة مع البطن السفلية ليصنعا معاً منحني هندسياً واحداً. وهذا يجعلنا نلاحظ أن خط الرقبة العلوي وخط الظهر هما في الأساس خط واحد هندسي تم عمل بعض التفاصيل فيه. في الحقيقة أن هذا يجعلنا نرى أن كل الأشكال تبدأ في الأساس بخطوط هندسية رشيقة تخلق الأشكال مع إضافة التفاصيل. من الملاحظات المهمة هي أن أحد أقواس الحصان تمثل خطأ ساذجاً وهناك خط آخر خفيف يمثل الخط الصحيح. الفرق بين الخطين من درجة الصحة والخط كبير مما يوحي بأن هناك عملية تصحيح لشخص خبير لشخص مبتدئ. هل نحن هنا بصدد درس في الرسم؟

في الصورة الرابعة لحصان يتجه إلى اليمين نجد نفس الظاهرة وهي أن خط الرقبة السفلي يصنع من خط البطن منحني واحداً وخط الرقبة العلوي يصنع مع الظهر منحني واحداً. بل إن عضلة الرجل الخلفية العليا تنساب إلى أسفل الرجل صانعة منحني واحداً.

الصورة الرابعة لحصان يتجه من اليسار إلى اليمين



ونلاحظ أيضاً مع الرسم الصحيح والتشريح العناية بعمل الشعر والتظليل في الجسم عن طريق الخطوط الذي يوضح التكوين في البطن عن طريق اتجاهات خطوط التظليل.

في الصورة الخامسة نجد صورة لعدة ثيران وعدة خيول، وهي تبدو كاسكتش لفنان معاصر. خطوط التصحيح في هذه الصور واضحة تماماً. ففي الثور الأيمن هناك تصحيح طفيف في الخط العلوي والسفلي. وفي الثور الأوسط هناك تصحيح طفيف في خط البطن وهناك تصحيح لخطاً جسيم في خط الرقبة السفلي.

الصورة الخامسة لثيران وخيول.



وفي أسفل الصورة بين أرجل الثور الأوسط يوجد تخطيط صغير لحصان صغير وترى داخل بطن الحصان خطاً سانجاً يمثل رسماً

خاطنًا للطن تم تصحيحه. الأخطاء الجسيمة المصححة توحى بوجود أستاذ وتلميذ في هذه العملية.

في الصورة السادسة لابن عرس نجد ظاهرة الخط المنحني المستمر واضحة تمامًا.

الصورة السادسة لابن عرس

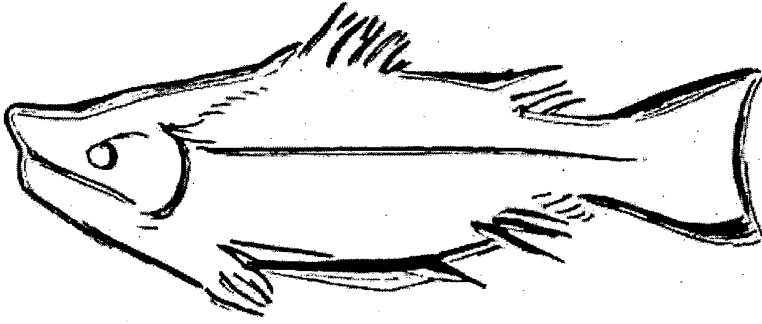


فهنالك منحنى رائع واحد مستمر يبدأ من الرأس فالرقبة فالظهر فالذيل. وهناك منحنى آخر أيضًا جميل يبدأ من الرجل الخلفية فالطن فالرجل الأمامية. والمنحنى الأخير هو المنحنى من الرجل الأمامية إلى الخط السفلي للرقبة فالرأس. هذا الرسم غير المكتمل يكشف بوضوح رؤية الفنان للحيوانات وطريقة رسمه لها والرشاقة الهائلة لخطوطه. هذا الرسم رغم جماله فهو غير مكتمل. أو لنقل أن

الفنان اكتفى بهذا القدر من المنحنيات الثلاثة لعمل جسم حيوان. ربما كان هذا هو الغرض من الرسم، وهو توضيح كيفية تحقيق جسم من خلال منحنيات بسيطة. هل كان هذا الرسم أيضًا درسًا في الرسم³⁴؟

في هذا الكهف أيضًا صورة لسمكة. وهي تمتاز بكل رسوم هذه الكهف وكل رسوم كهوف هذا العصر بالدقة الشديدة والرسم الصحيح، والفهم العالي للتشريح.

الصورة السابعة لسمكة.



هناك خط ما في منتصف السمكة. هل هذا الخط يمثل محور الجسم أم أنه قطع يحدث نتيجة الصيد؟ في الغالب هو محور للجسم لتسهيل الرسم.

³⁴ بداية ظهور التخطيطات الهندسية في هذا الوقت المبكر يدعو إلى التساؤل عن أصل الهندسة. فالمفترض أن الهندسة (علاقات الأشكال المنتظمة مثل: الدائرة والمربع والمستطيل) مع بداية المنطق والرياضيات. وأن تحويل الأشكال الطبيعية إلى أشكال هندسية ظهر متأخرًا وبعد ظهور الهندسة. ولكن هذه الرسوم ورسوم أخرى تالية لها تطرح فكرة أن الإنسان اكتشف الهندسة قبل المنطق، وأنه اكتشفها كقانون يمثل جوهر الأشكال ومن خلال الأشكال الطبيعية ذاتها.

صور هذا الكهف كثيرة ومن دراستها وتحليلها ننتهي إلى
التصورات التالية:

معظم هذه الرسوم رسمت بالفحم فقط. وهو توجه إلى التبسيط
والاستغناء عن الواقعية الشديدة.

تتحول الأشكال باقتدار شديد إلى خطوط منحنية ذات طابع هندسي
في بعض الأحوال، ولكنها لا تفقد الشكل واقعيته ونسبه.

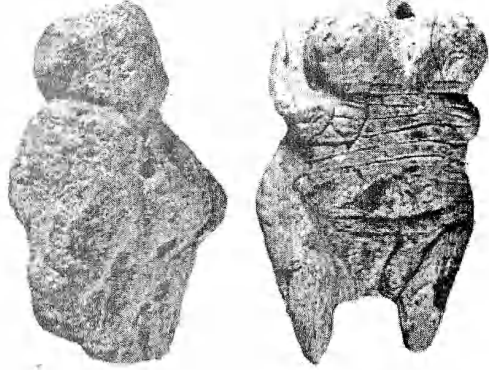
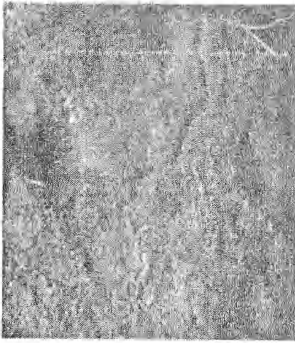
هناك تصحيح واضح يرجح وجود دروس وتدريب على الرسم في
هذا المكان.

يبدو أنه كانت هناك قواعد تعتمد على التحليل الهندسي. وهي
تقترب بشدة من القواعد الحديثة في تعليم الرسم.

المرأة في العصر الحجري

تظهر كل الشواهد أنه كان للمرأة وضع خاص في العصر الحجري. فرغم أن الفن ظهر في الباليولتك الأوسط وازدهر في فترة الباليولتك الأعلى وكان مقصوراً على رسوم الجداريات على الحيوانات إلا أنه بالنسبة للمرأة فكان الوضع مختلفاً. فقد ظهرت مجموعات من التماثيل التي تمثل المرأة في كل العصور السابقة بل ومنذ أوائل العصر الحجري. ففي سوريا مثلاً وجد العلماء أقدم عمل نحتي على الإطلاق صورة 1. وهو تمثال صغير لآلهة أنثوية يعود زمنه إلى حوالي 200 ألف سنة إلى الوراء، أي إلى العصر الحجري الأدنى وبداية ظهور الإنسان السايانيس.

صورة 1 نسخ من تماثيل لآلهة أنثوية من سوريا (إيزيس السورية) 200 ألف سنة قبل الميلاد.

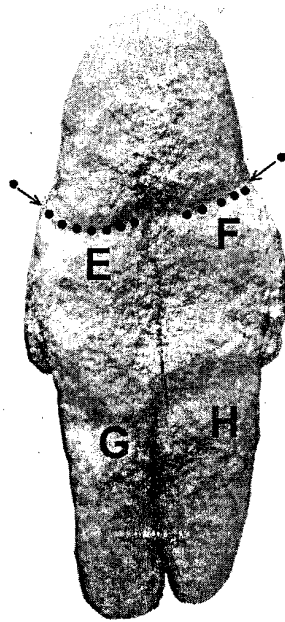


وفي هذه النسخة السورية القديمة رغم البدائية الشديدة فإن هناك اهتماماً عالياً بالتدوين والبطن بالمقارنة لحجم الرأس والبطن. وهما منطقتا الحمل والرضاعة. ولم يصل إلينا أي تمثال أو صورة لرجل

إلا في عصور متأخرة جدًا وبالتحديد في عصر النيوليتك، أي فقط قبل 6 آلاف سنة قبل الميلاد. هذا يعني أنه كان للمرأة منذ بداية الإنسان مكانة خاصة تعلو مكانة الرجل منذ أقدم فترات العصر الحجري وخلال أكثر من عنصر بشري. ومع بداية عنصر السابيانس أي الإنسان العاقل الحالي تتكرر هذه الظاهرة فنجد نسخًا من تماثيل أنثوية ولا نجد أي إشارة للرجل.

وفي جنوب إفريقيا ومنذ 80 ألف سنة، أي في البوليوليتك الأوسط. في كهوف هذا العصر، وتقريبًا في بداية عهد الإنسان السابيانس ظهرت أول نسخة للآلهة المرأة (إيزيس الإنسان الجنوب إفريقي).
صورة 2

صورة 2 إيزيس جنوب إفريقيا



نلاحظ في هذه التماثيل الأنتوية الضخامة الشديدة لتصوير الثديين والأجزاء الأنتوية على حساب الرأس وبقية الجسد. وهذا يظهر كيف كانت الثقافة في هذه الفترة تعظم الأمومة والأنتوية.

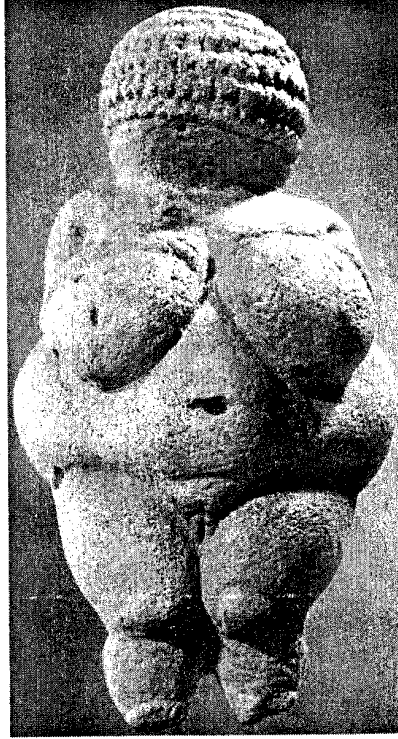
صورة 3. إيزيس الروسية 30 ألف سنة قبل الميلاد



في صورة 3 تمثال لآلهة امرأة عمر التمثال 30 ألف سنة وقد وجد في غرب روسيا. وهنا نجد أيضاً نفس الظاهرة وهي التضخم الشديد للمناطق الأنتوية على حساب بقية الجسم.

ظلت هذه الظاهرة تتكرر من وجود تماثيل أنتوية حتى نهاية العصر الحجري الأعلى.

صورة 4. إيزيس الكرواتية 15 ألف سنة قبل الميلاد.



في هذا التمثال في صورة 4 كما في البقية السابقة يلاحظ الاهتمام الشديد بالمناطق الأنثوية كالثديين والفرج. وهو يعبر عن أهمية دور المرأة كأم وكقوة لاستمرار الحياة.

هذه الظاهره تحتاج إلى وقفة. فالإنسان في هذا الوقت الغارق في القدم لم يكن يعرف الكثير. كان يشاهد ظاهرة الحمل والولادة بتعجب أكثر منه فهمًا. كانت المرأة بالنسبة إليه خالقة الجماعة. وهو في الغالب لم يكن يعي دور الذكر في عملية الحمل؛ أي أن العلاقة بين الجماع الجنسي والحمل لم يكن يعيها، فظلت الأنثى في

وعيه تحتكر الفضل في التناسل والتكاثر. كانت هناك أم معروفة للأولاد ولم يكن لهم أب. بل لم يتصور أحد أن للأبناء أبًا. فالكل أبناء أم فقط. فالجنس البشري لم يكن يعرف الأسرة ذات الأب الواحد بل كان إما مشاعًا أو ربما عرف التعدد من خلال تعدد الأزواج للأنثى الواحدة. كما كان دور الأنثى في الرضاعة والحضانة يؤكد هذا التصور. كانت هي الخالقة والموجدة للجماعة. هذا ما أكده أيضًا راي تاناهيل في كتابه الجنس عبر التاريخ. ومن هنا ظهر تعبير الأمة، وتعبير البطن بمعنى القبيلة. أما ظاهرة الانتماء إلى جد ما وحمل اسم الأب ونسب القبيلة إلى جد ذكري فقد ظهر هذا متأخرًا جدًا، وربما فقط في المرحلة الرعوية عندما لاحظ الإنسان أن القطيع الذي يتكون من إناث فقط لا يتكاثر، وأنه إذا وجد ذكر فإنه يحدث جماع وتناسل وتكاثر. وهنا بدأ الوعي بدور الذكر في عملية التكاثر³⁵؛ أي أن المجتمع بدأ أنثويًا لا يعرف للذكر فضلًا في وجود الجماعة، ولكن ظل الفضل في الوجود يعود للأنثى، وبالتالي من السهل تصور أن الأنثى تحولت إلى آلهة قبل الذكر. وأن القيادة في الجماعة ربما كانت أيضًا أنثوية قبل أن تكون ذكورية. بل من الممكن جدًا تصور مع المشاع الجنسي وجود أسرة تتكون من أنثى واحدة وعدة ذكور، كما كان موجودًا إلى وقت قريب في بعض القبائل الإفريقية بل والعربية في زمن الجاهلية. وهذا يفسر ظهور آلهة أنثوية مثل: عشتارت وإيزيس منذ بدايات ظهور الأديان (غير السماوية)، وقد كانت الآلهة الأنثوية قبل الآلهة الذكورية كما تظهر هذه التماثل الأنثوية الغارقة في القدم.

هناك ظواهر لغوية مهمة تؤكد هذه النظرية، وخاصة في اللغة العربية. فالمقرد الذكر (غير الإنسي) إذا تحول إلى جمع فإنه يأخذ صفة التانيث؛ فنقول مثلًا: "هذا أسد قوي يعيش في الغابة" فيكون

³⁵ راي تاناهيل، قصة الجنس عبر التاريخ، ترجمة: إيهاب عبد الحميد، دار ميريت للنشر.

هذا اسم إشارة مفرد مذكر، وقوي صفة مفرد مذكر، ويعيش أيضاً فعلا مصرفا مع مفرد مذكر. ولكن في حالة الجمع (أسود) تأخذ كلمة أسود صفة المفرد الأنثوي فنقول: "هذه أسود قوية تعيش في الغابة" فتكون هذه اسم إشارة مفرد مؤنث وقوية صفة مفردة مؤنثة والفعل تعيش أيضاً مفرداً مؤنثاً. فيتحول الجمع إلى مفرد مؤنث. كما أن اللغة العربية عودتنا أيضاً على أن الشيء الكبير الضخم يكون في الغالب مؤنث وأن المقابل الأصغر يكون ذكراً فنقول "هذه الشمس" "وهذا القمر". ومن الظواهر التي تؤكد تفوق الصفة الأنثوية على الصفة الذكورية في اللغة العربية أن العرب كانوا يضيفون تاء التأنيث لاسم العلم الذكر لإعطائه القوة والعظمة فيقولون: "عنتر بن شداد" بدلا من "عنتر بن شداد"، وهلم جرأ. ومن اللغات الأوروبية التي بها بقايا من ظاهرة تعظيم الأنثى هي اللغة الألمانية. فأداة التعريف للرجل هي (der) وأداة التعريف للمرأة هي (die) وأداة التعريف للجمع هي أداة التعريف الأنثوية (die). كما أن صيغة التعظيم في الحديث مع شخص غريب أو عالي المكانة هي (Sie) وهي نفسها صيغة الكلام الأنثوية. وهذا يمثل بقايا ظاهرة تعظيم الأنثى اللغوية. وهنا ينطرح سؤال مهم: هل كان الفنان الذي رسم الجداريات في الجماعة البشرية أيضاً امرأة؟ الإجابة مازالت غير معروفة ومتروقة للتصورات. أما بداية تحول المجتمع إلى مجتمع ذكوري فهذا ربما كان مع النشاط الرعوي.

العصر الحجري الحديث

العصر الحجري الحديث هو الفترة التي تفصل بين العصر الحجري القديم وبداية الحضارات القديمة. ونهاية العصر الحجري القديم تختلف اختلافات كبيرة من منطقة إلى أخرى. أول منطقة انتهى فيها العصر الحجري الحديث هي منطقة مصر وسوريا والعراق واليمن. فقد انتهى هذا العصر وبدأت الحضارات القديمة حوالي 6 آلاف سنة قبل الميلاد. بينما انتهت هذه الفترة في أوروبا وجنوب شرق آسيا حوالي ألفين سنة قبل الميلاد. بينما استمرت ثقافة العصر الحجري في بعض المناطق الإفريقية وبعد مناطق أمريكا وأستراليا إلى 1500 سنة بعد الميلاد، أي منذ حوالي 500 سنة فقط.

هجرات وأصول مشتركة

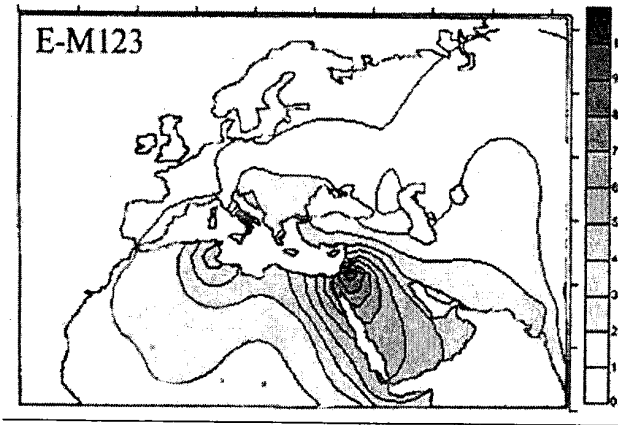
في وادي النيل وبالتحديد في مصر ومع بداية الألف الثانية عشرة قبل الميلاد ظهرت ثقافة يطلق عليها العلماء اسم الموشافيان (Mushafian)³⁶. وتمثل هذه الثقافة البداية الحقيقية للمجتمع الرعوي وبداية الزراعة³⁷. وقد هاجرت جماعات من مصر إلى

³⁶ Simmons, Alan H. (2007), *The Neolithic Revolution in the Near East*.

³⁷ <http://www.columbia.edu/itc/anthropology/v1007/barvo.pdf>.

شمال إفريقيا في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. وانتقلت جماعات أخرى إلى منطقة الشام والعراق لتخلق هناك ثقافة جديدة تسمى بالناطوفيان (Natufian)³⁸. حيث يعتبر مجتمع الناطوفيان السوري العراقي - الذي هاجر بعد ذلك شمالاً إلى جنوب أوروبا - ابناً مباشراً لمجتمع الموشابيان المصري³⁹. وقد تم تحديد ذلك من خلال دراسات تحليلية للحامض النووي. حيث اكتشف الكروموسوم المشترك haplogroup Y-chromosome أو Y هابلوجروب E1b1b⁴⁰. وهذا الكروموسوم ذكري، وهو ينتقل من الأب للأب وللأحفاد ويمكن من خلاله تتبع الأصول العرقية للأشخاص. صورة 1. ويلاحظ من خريطة توزيع هذا الكروموسوم أنها تتطابق مع ما يعرف في علم اللغات والعلوم الإثنية بالعالم السامي، أو أسرة الشعوب الأفروآسيوية، وهذا يتقارب جداً مع ما يعرف سياسياً بالعالم العربي.

صورة 1. خريطة توزيع كروموسوم الهابلوجروب. يلاحظ أنها تشمل المنطقة العربية وحوض البحر الأبيض



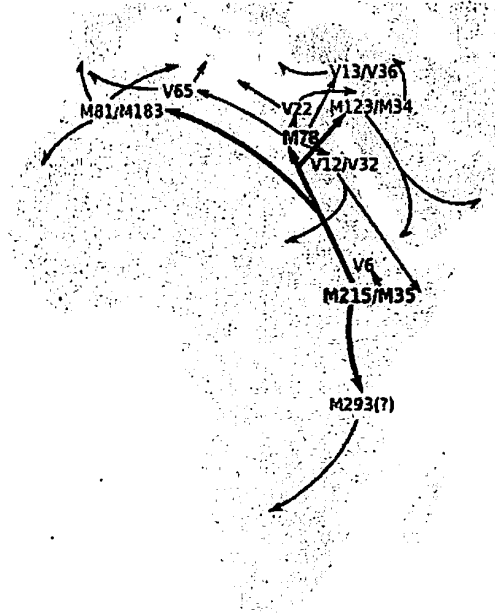
³⁸ Bar-Yosef, Ofer (1998), "The Natufian Culture in the Levant, Threshold to the Origins of Agriculture"

³⁹ Bar-Yosef, O. (1987). "Pleistocene connexions between Africa and Southwest Asia (1987).

⁴⁰ [http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%87%D8%A7%D8%A8%D9%84%D9%88%D8%BA%D8%B1%D9%88%D8%A8_E1b1b_\(Y-DNA\).](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%87%D8%A7%D8%A8%D9%84%D9%88%D8%BA%D8%B1%D9%88%D8%A8_E1b1b_(Y-DNA).)

وقد أدى الاتحاد الجيني والأصول المشتركة إلى ظهور أنماط حضارية في مصر والجزيرة العربية وشمال إفريقيا متشابهة بل ومتطابقة إلى حد بعيد. انتقلت الهجرات من شمال إفريقيا ومن الشام إلى جنوب أوروبا في زمن قريب أيضا. فظهر ما يعرف بجنس البحر الأبيض المتوسط⁴¹. ومصطلح جنس البحر الأبيض المتوسط يعني المنطقة العربية وجنوب أوروبا.

صورة 2. خريطة هجرات كروموزوم الهابلو جروب



⁴¹ [http://en.wikipedia.org/wiki/Haplogroup_E1b1b_\(Y-DNA\)](http://en.wikipedia.org/wiki/Haplogroup_E1b1b_(Y-DNA)).

هنا تلتقي كل الأبحاث الأتنية والجينية والثقافية واللغوية⁴² على أن ما يعرف الآن بالمنطقة العربية هو تعبير عن مجموعة شعوب من أصول واحدة. وأن الأصل الغالب لهذه الشعوب هو على الأغلب مصر.

يمتاز اقتصاد هذه الفترة (العصر الحجري الحديث) بانتشار اقتصاد تدجين الحيوان (الرعي) وبداية اكتشاف الزراعة. وكان تدجين الحيوانات بالنسبة للإنسان وسيلة مهمة لمعرفة جوانب مهمة من الحياة. فمع الملاحظة المستمرة للحيوانات اكتشف الإنسان علاقة الجماع بالحمل والولادة كما أسلفنا الذكر، وهذه الظاهرة كان من الصعب اكتشافها داخل الجماعة الإنسانية؛ لأنه من المستحيل تكوين جماعة إنسانية من الإناث فقط، ولكن يبدو أن الإنسان اكتشف أثناء تربية الحيوان أن الإناث لا تلد إلا إذا لقحها ذكر. وبدأ يتضح للرجل أهمية دوره في الإنجاب والتكاثر. وبدأ يظهر الجنوح لاحتكار الأنثى لتأكيد انتماء الأبناء إلى الأب الواحد. فظهرت الأسرة وبدأ تجريم أن تعرف الأنثى أكثر من ذكر. بل فهم ظاهرة الجماع والإنجاب على أساس أن تعدد الذكور لأنثى واحدة عند الحيوان لا يزيد من تعدد المواليد، ولكن تعدد الإناث لذكر واحد يزيد عدد المواليد، كان اكتشاف هذه الظاهرة انقلاباً في الثقافة العامة. فأصبح ذكر واحد لعدة إناث هي المعادلة الأكثر إنتاجية. وهنا ظهرت الأسرة التي تعرف التعدد لصالح الذكر. فبينما كانت الأسرة السابقة العهد تعرف التعدد المعكوس أي أنثى واحدة لعدة ذكور. فأوجد المجتمع الرعوي الأسرة التي يتسدها الرجل وربما تتعدد فيها الإناث. وبدأ المجتمع ينحو نحواً ذكورياً من سلطة ودين ونسب. ولدراسة هذه الثقافات سنعود إلى رسوماتها في الكهوف

42. انظر تحليل اللغة المصرية القديمة في الجزء الثاني من السلسلة.

ونقوشها على الجدران. وسوف نختصر هذه الدراسة على حضارات الموشافيان المصرية والثقافات التي تفرعت منها.

النيوليتيك في الجزائر

1- هضبة تاسيلي

في هذه المنطقة في الجزائر توجد مجموعة نقوش صخرية هامة وذات دلالات وهي تعود إلى فترة تقع بين 10 آلاف سنة قبل الميلاد حتى القرون الأولى الميلادية. وتم حصر حوالي 15000 نقش على الصخر ، ولكننا هنا سنقتصر بحثنا على النقوش التي تعود إلى فترة من 10 آلاف حتى بعد الميلاد بقليل الميلاد⁴³.

صورة 1

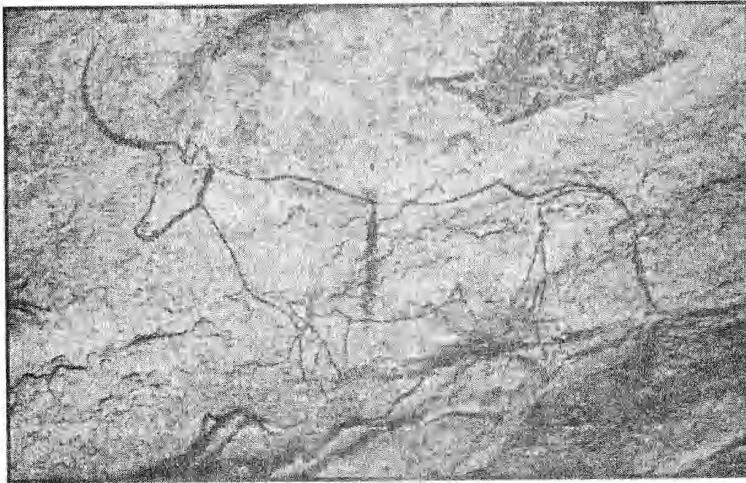


⁴³ Paul G. (1998) *The Cambridge Illustrated History of Prehistoric Art.*

في هذه الصورة التي تعود إلى 10000 سنة قبل الميلاد نجد مجموعة من الأشخاص والحيوانات. الأشخاص كلها في حالة حركة: إما جري أو صيد أو ربما رقص. الحيوانات في هذه الصورة كلها أبقار. يلاحظ أيضا الدقة والفهم الشديد للتشريح في رسوم الحيوانات أكثر منها في رسوم البشر، رغم أن الإنسان في هذه الجماعة يشاهد من البشر أكثر مما يشاهد من الحيوانات بحكم المعيشة. ولكن يبدو أن التعاليم المتوارثة في الرسم كانت أكثر خبرة ودقة في فهم جسم الحيوان عنها في الإنسان بحكم التجربة الطويلة في الماضي في الاقتصار في الرسم على الحيوانات فقط. يلاحظ أيضا الدقة ليس فقط في تشريح الحيوان، بل أيضا في توزيع الألوان البني والأبيض على أجسام الأبقار.

في هذه الصورة الثانية، التي تعود إلى نفس الفترة، نجد رسماً لبقرة غاية في الدقة.

صورة 2 بقرة في شكل جانبي



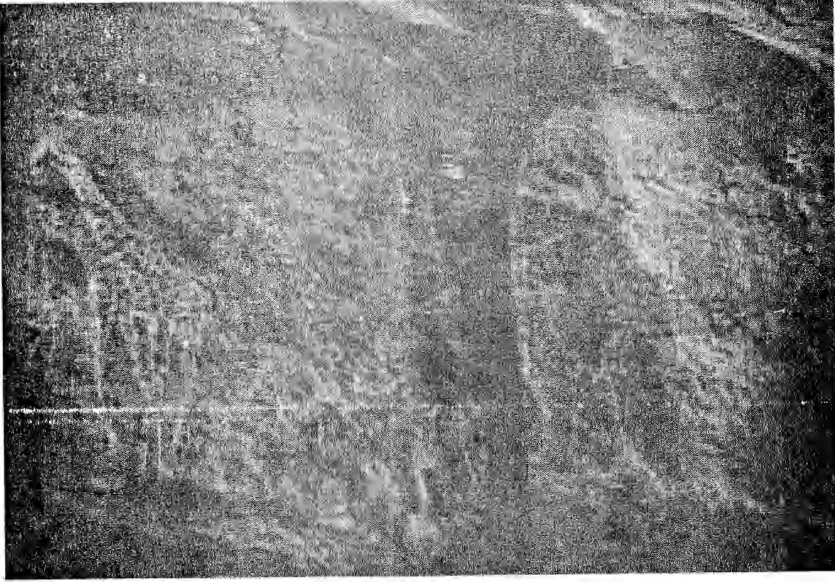
فالرأس والجسد والعظام والبطن والأرجل الأمامية والخلفية والمنظور، حتى البطن ومناطق الحلب. كل هذا رسم في غاية الدقة والصحة بلا أدنى خطأ. وإذا قارنا هذا بالرسم التالي رقم 3 للاحظنا الفارق الكبير بين الفهم الكامل لتشريح الحيوان والبدائية النسبية في فهم تشريح جسم الإنسان. ونحن لا نذهب لدرجة تصور أن الأهمية للحيوان تفوقت على أهمية الإنسان في هذا الوقت، ولكننا نعزو هذا إلى الخيرة المتوارثة في تشريح الحيوان بالمقارنة للإنسان الذي ظهرت رسوماته متأخرة نسبيًا في العصر الحجري.

صورة 3 امرأة



الصورة رقم 4 لامرأة تقوم بإرضاع طفل. يلاحظ البساطة الشديدة التي تصل إلى حد البدائية في تشريح الجسم، بالمقارنة لصور الحيوانات. هذه الصورة تعود لنفس الفترة السابقة.

صورة رقم 4



في الصورة رقم 4 نلاحظ مرة أخرى حفرًا جميلًا دقيقًا لزرافة، حيث تطول الأرجل خاصة الأمامية وتطول الرقبة بالنسب الصحيحة. كما نلاحظ تنقيط جسم الزرافة بالنقط الينية الغامقة كما هو فعلاً في الواقع. رغم أن الصورة تعود لنفس الفترة الزمنية فإن جسم الزرافة يظهر براعة وفهمًا عاليًا في التشريح بالمقارنة بجسم الإنسان.

في الرسم رقم 5 وهو لرجل في أغلب الأحوال نلاحظ مرة أخرى التشريح الذي يقل في الدقة عن الحيوان.

صورة رقم 5



وهذا الشخص يحتاج إلى وقفة. فهو يرفع كفيه بشكل ظاهر يدعو للتساؤل. الرأس يبدو مغطى بقرون ما. وفي منطقة الكوع يظهر

بروز غريب ويبدو مربوطاً بالذراع بحزام في كل ذراع. هذا الشكل في الغالب يظهر طقساً سحرياً بلباس خاص. هذا الرسم يعود تقريباً إلى 2000 سنة قبل الميلاد⁴⁴

صورة 6



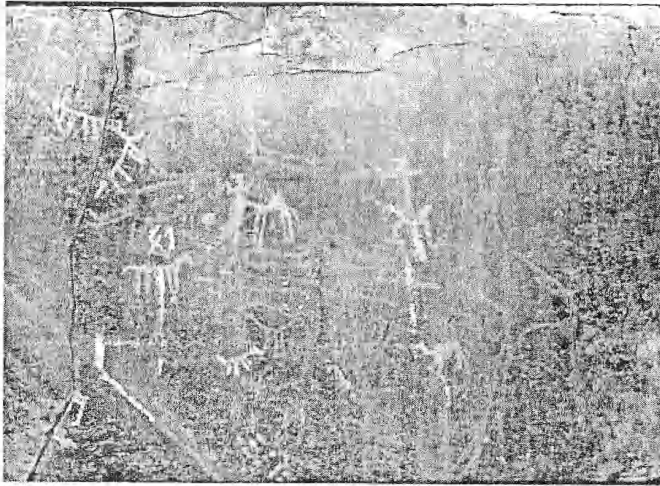
⁴⁴ Bruce-Lockhart, J and Wright, J (2000) *Difficult and Dangerous Roads*.

في الصورة رقم 6 للسيدات الأربع راكبات الدواب نجد أمامنا واحدة من أروع صور تاسيلي بل من أروع صور فن الصخر على الإطلاق. فالرسم فيها غاية في الأناقة. النسب صحيحة تمامًا للبشر أو للحيوان. نفذ الشعر في السيدات بشكل رائع يجعلهن يبدون كسيدات من القرن العشرين. ويبدو أن إحداهن كانت شقراء. كما يلاحظ جمال النقش على الملابس. ويلاحظ أيضًا روعة المنظور، حيث تختفي ثنتان منهن خلف الثالثة في ارتفاع صحيح جدًا يجعلهما في الخلفية. من الصعب تصديق أن هذه الصورة عمرها أكثر من 2000 سنة. وأن هؤلاء السيدات ينتمين إلى هذه الفترة.

1- جنوب وهران

هذه الهضبة أكثر حداثة من تاسيلي، إذ تعود إلى 5000 (خمسة آلاف سنة) قبل الميلاد. وهي تعتبر في هذه المنطقة ثقافة النيوليتك أي العصر الحجري الحديث، وهي في مجملها حفر غائر على الصخر.

صورة رقم 1



رغم أن هذه الرسوم أكثر حداثة من سابقتها فإنها أكثر بدائية أو لنقل أكثر رمزية، وهي الظاهرة التي تتكرر في العصر الحجري حيث بدأ الفن واقعياً ثم بدأ ينحو إلى الرمزية والبساطة، مما أكسبه شكلاً أكثر بساطة وبدائية. نرى في هذه الصورة حيوانات عبارة عن خطوط بسيطة تمثل رأساً وجسداً وذيلاً وأربع أرجل، بالإضافة إلى بعض البشر. يلاحظ أيضاً أن كل شكل رسم في ذاته ولا علاقة له بالأشكال الأخرى.

صورة رقم 2



في هذا الرسم نلاحظ أن هناك شخصاً فاتحاً زراعته وممسكاً في إحدى زراعته بالحزام السابق الذكر والذي يحوي نفس البروز في شكل هضبة تاسيلي صورة رقم 5. في الصورة السابقة كان الحزام ملتصقاً بالذراع، ولكنه الآن ممسوكاً في اليد. يظل هذا الشكل منحيراً في طبيعته ووظيفته. فقد يكون ذا طابع سحري، وربما كان سلاحاً من نوع ما.



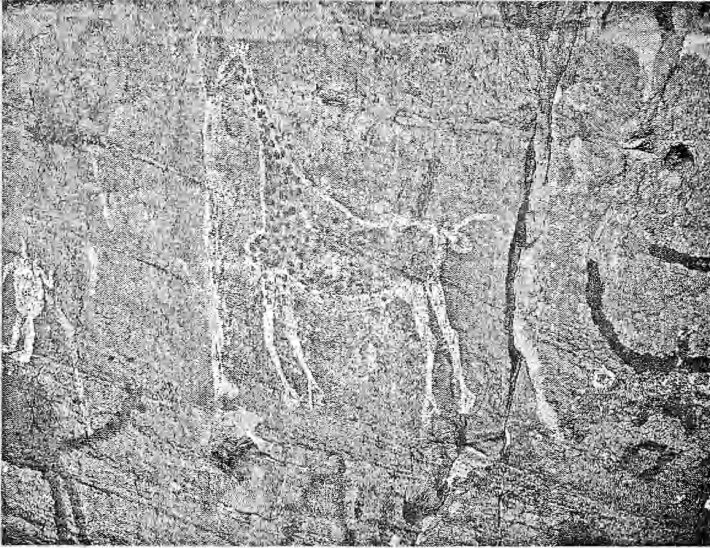
في هذه الصورة نجد حفراً يمثل شكلين ثور ورجل. وهو من الرسوم القليلة التي تحتوي شكلين ليسا بجانب بعضهما البعض ولكن أمام بعضهما البعض. نلاحظ أيضاً تطور رسم جسم الثور عن رسم جسم الرجل. يبدو الرجل كما لو كان يرتب على جسم الثور. ولكن يظل الوضع والعلاقة بين الشخص والثور محل تحليل. هل هذا ثور مقدس؟

كهوف تادرات أكاكوس في ليبيا

وهي مجموعة كهوف غاية في الأهمية. وهي في صحراء فزان بالقرب من مدينة الغاط. تعود هذه الكهوف إلى حقبة زمنية تتراوح بين 12 ألف سنة قبل الميلاد وحتى 150 سنة ميلادية.

ولكننا سنقتصر في هذه الدراسة بالحقبة الزمنية بين 12 ألفا و1500 قبل الميلاد وهي فترة العصر الحجري الحديث.

صورة رقم 1



في هذه الصورة نرى صورة واضحة لزرافة. والزرافة رسمت بكثرة في هذه المنطقة (شمال إفريقيا) في هذا الوقت. وهناك في أسفل الصورة وعلى اليمين حيوان آخر يعلوه رجل. بالمقارنة بين الزرافة والشخص نجد أن رسم الزرافة أكثر تطوراً بكثير من رسم الرجل وهو شيء ملحوظ تماماً في هذه الفترة.

صورة رقم 2



رسم آخر لزرافة يعود لنفس الفترة الزمنية (8000-12000) ويلاحظ الدقة الشديدة في فهم التشريح الذي يقترب من الكمال.

صورة رقم 3



صورة لشخص في الغالب رجل ويعود لنفس الفترة السابقة ويلاحظ البساطة الشديدة في تحليل الجسم مع بداية ظهور فهم لتشريح الجسم خاصة في الساقين الأكثر امتلاء في المناطق العلوية وأكثر امتلاء من الذراعين والصدر أوسع من البطن على شكل مثلث.

صورة 4.

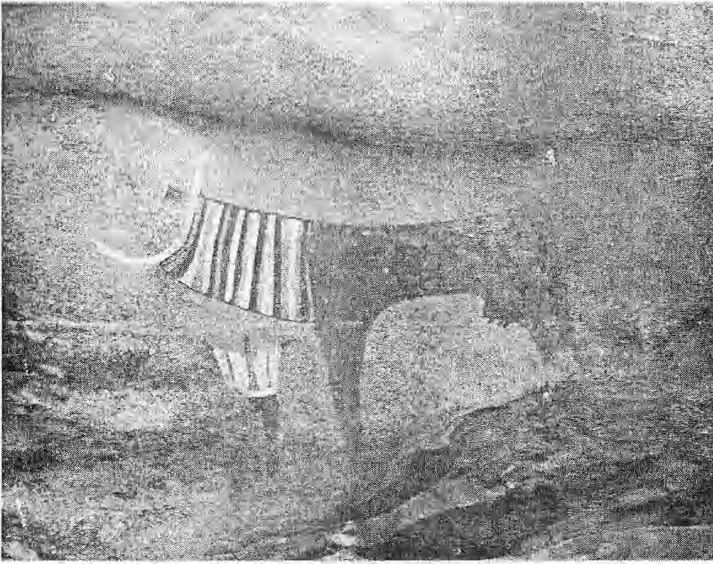


تمثل هذه الصورة رسمًا رائعًا لزرافة من منظور صعب لأنه أمامي ومن أسفل لأعلى وهي في حالة حركة. ويبدو أن الرسم الخاص بالحيوانات لم يكن شكلًا محددًا محفوظًا يتكرر، ولكنه شكل مأخوذ من لحظة محددة فيأخذ طبيعة اللحظة. وهو ما نلاحظه في هذه الزرافة.

كهف لاس جيل في الصومال

يعتبر هذا الكهف من أجمل الكهوف في إفريقيا. وهو يعود إلى الفترة بين 5000 و2000 سنة قبل الميلاد. وهي بالقياس لهذه المجتمعات تعتبر ثقافة نيوليثك أي العصر الحجري الحديث.

صورة 1



هذه الصورة تمثل إحدى الأيقار في عباءة ما. وتحت رأس البقرة يظهر رجل رافعاً ذراعيه. الحجم الضخم للبقرة والعباءة التي ترتديها وحركة ذراعي الرجل، كل ذلك يجعلنا نتصور أن للبقرة نوعاً من القداسة، وأن الرسم يصور طقساً ذا طبيعة دينية. ومن المهم أن نذكر أن البقرة تحورت إلى شكل هندسي. فالجسم تحول إلى مربع ذي قوس يصنع الأرجل. والرأس المغطى تحول إلى مستطيل. والقرنان يصنعان معاً قوساً منتظماً. كذلك الشخص

الصغير تحور أيضاً إلى أشكال هندسية. هذا التطور في الرسم والذي نلاحظه بقوة من الواقعية الشديدة في البدايات الأولى إلى الرمزية والهندسية يعني تطوراً في

صورة 2.



دوره. فإذا كان في البداية بحثاً ودراسة للعالم؛ أي أن الرسم كان مطلوباً في ذاته، ولكنه في نهاية العصر الحجري دوره إرسال رسالة ما. كما أن التطور العقلي ممكن تتبعه في زيادة التحليل الهندسي للأشكال (وإن كان هذا على حساب القدرات الفنية المبنية أساساً على القدرة على المحاكاة).

في هذه الصورة نرى مجموعة من الأبقار وقد غطيت رءوسها بنفس غطاء الرأس. وينتهي غطاء الرأس بجسم يبدو أسطوانياً صغيراً. الأبقار تحورت إلى مربعات ذات أقواس من أسفل لعمل الأرجل التي اختصرت لتكون رجلاً واحدة أمامية وأخرى خلفية. ويرى في الصورة أحد الأشخاص واقفاً خلف إحدى الأبقار. يلاحظ الاهتمام بمنطقة الحليب التي ترسم بدقة ربما للإحساس بأهميتها. وهنا يجب فهم تقديس الأبقار ليس لعبادتها كآلهة، وهو ما يتسرع إليه الكثير من الباحثين، ولكنه كنوع من تقديس الغذاء في المجتمعات البدائية. ففي مصر - مثلاً - يتعلم الطفل ألا يلقي بالخبز على الطرقات، بل إنه إذا وجد قطعة خبز على الأرض تعامل معها باحترام يصل إلى التقبيل أحياناً ووضعها في مكان لا تصل إليه أقدام المشاة. كما يحرم تمامًا إلقاء بقايا الأكل في المراحيض. بل إن الذبح الشرعي بالبسملة هو صورة من صور إبداء الاحترام للحيوان. بل إن الصلاة والدعاء قبل الأكل وبعده (في كل الثقافات) لهو نوع من إبداء الامتنان والشكر والاحترام للغذاء. ومن هنا نستطيع أن نفهم وضع الحيوان الذي يعيش عليه الإنسان ويذبحه ويأكله في إطار من الاحترام يصل أحياناً إلى التقديس وليس الاستهانة. ولكن هذا لا يعني عبادة بالمفهوم التقليدي.

صورة رقم 3



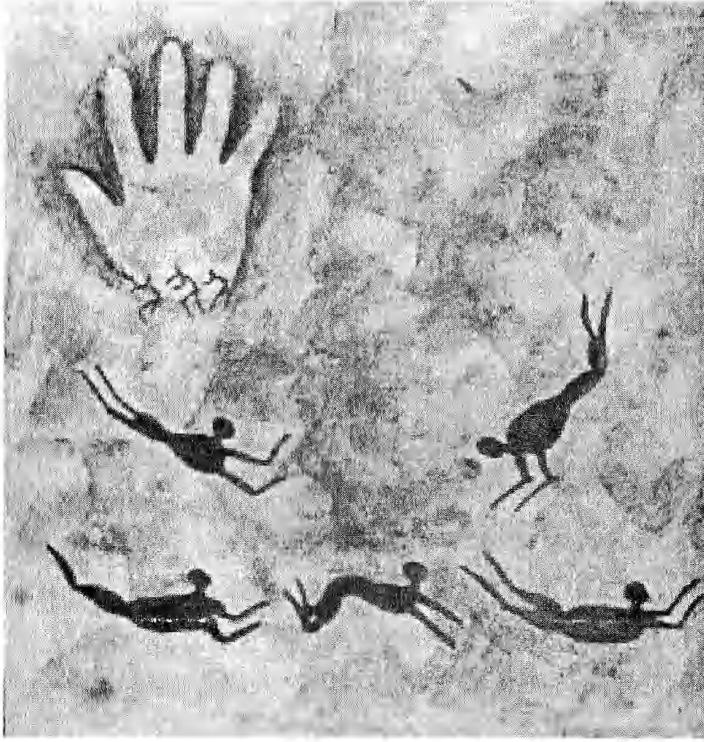
في هذه الصورة مجموعة من الأبقار محورة بنفس الطريقة السابقة. ويلاحظ في هذه الصورة نوعان من غطاء الرأس أحدهما مخطط والآخر ثو لون واحد أبيض. ربما كان لهذا دلالات معينة.

كهف العوينات في مصر

يقع هذا الكهف في جبل العوينات جنوب شرق مصر على حدود ليبيا.

يمتاز هذا الكهف على الكهوف المعاصرة له بوجود بوادر تصميم في رسوماته؛ أي أن الشكل الواحد له علاقة بما قبله وبما بعده ولا يقم فهمًا تامًا إلا من خلال المجموعة. كما يلاحظ تطور ملحوظ في رسوم الأشخاص التي أصبح لها تشريح ليس بعيدًا عن الواقع.

صورة رقم 1



في أعلى الصورة نجد كفاً يميني وأسفل الكف وتماماً في المنتصف نجد ثلاثة أشكال إنسانية تعرض تتابعاً لحركة ما. ومما يثير الانتباه أن العلاقة بين الشكلين الأساسيين الكف الكبرى من ناحية والأشخاص الثلاثة في أسفله دقيقة جداً. فالأشخاص الثلاثة في منتصف قاع الكف. كما أن الكف تقطع كل شخص منهم عند نهاية الساقين. وهي معطيات التصميم المتماسك الذي يحقق الترابط بين عناصره من ناحية ويحقق البعد من خلال ما هو خلفي (الكف) وما هو أمامي (الأشخاص)، وتأكيد الحركة من خلال ما هو ثابت

(الكف) وما هو متحرك (الأشخاص). ثم التنوع بين العناصر الكبيرة والصغيرة. هذه الرؤية أي الحس بالتصميم المتناسك هي دليل ذهن ناشئ في مجتمع ذي بنية متنوعة فهذا يقوم بعملية الصيد، وآخر لصنع الأدوات المستخدمة، وهناك الأب الروحي وهناك القائد الميداني في الصيد والحرب.

وهذه الظاهرة تتأكد أكثر في الرسم الأسفل للشخصيات الخمس السابحة. فهناك شخصيتان أعلى المجموعة يصنعان قوسًا دقيقًا يتجه من أعلى إلى أسفل. ويصوران شخصين في الغالب في حالة غوص. تحت هذين الشخصين نجد ثلاثة أشخاص في حركة مستقيمة من اليسار إلى اليمين؛ حيث الأول منهم مفرد الساقين منقبض الذراعين، والثاني عكسه فينفرد عنده الذراعين وينقبض الساقان والشخص الثالث ينفرد عنده الساقان والذراعان. والواضح أن الأشخاص الخمسة يمثلون حركة سباحة تحت الماء في الغالب. والأشكال توضح الحركة وتوضح الفهم التام لتصميم متوازن.

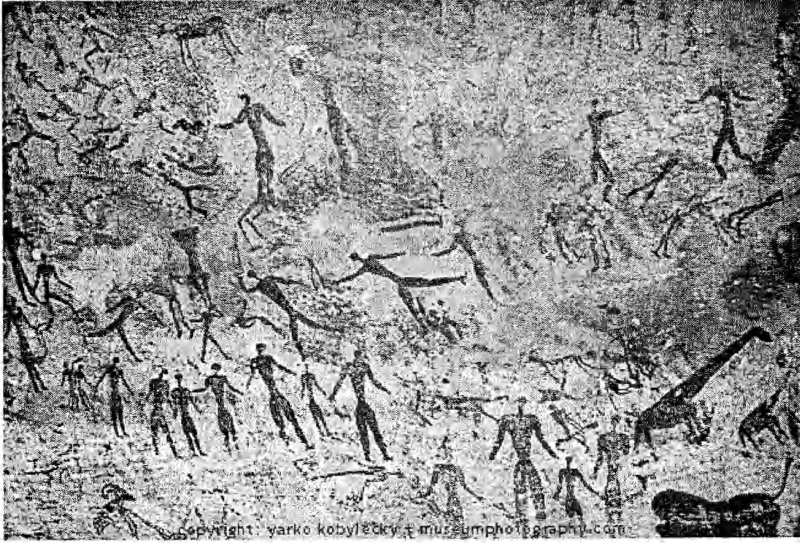
الرسم في هذا الكهف مميزة جدًا. ففي الصور التالية نجد الحالة الجماعية متحققة تمامًا.



في هذه الصورة نجد جماعات من البشر. والجماعات ليست مرسومة بشكل عشوائي غير مترابط، بل في صفوف منتظمة مترابطة. أي أن الرسوم ليست لأشخاص عديدين بل لمجموعة تمثل كياناً متحداً. وهذا أيضاً تأكيد لوجود شكل اجتماعي ما ينتمي إليه الفرد. أي أصبح الفرد يفهم نفسه كجزء من قبيلة ما. كما نقول مثلاً (قبيلة أولاد علي)؛ حيث يشعر كل فرد منهم بانتمائه إلى كيان أكبر منه وأهم. أو كما نقول اليوم (مصريين)؛ حيث المصرية هي ما يخلق الهوية والانتماء الجمعي إلى عديد من الأفراد ويشعر كل منهم بأن هذا الانتماء أهم من الفرد الواحد. في هذه الصورة نرى جماعة تسير كما لو كانت هجرة وجماعة أخرى في حالة حرب مع أقواس وسهام ورماح وقتلى على الأرض.

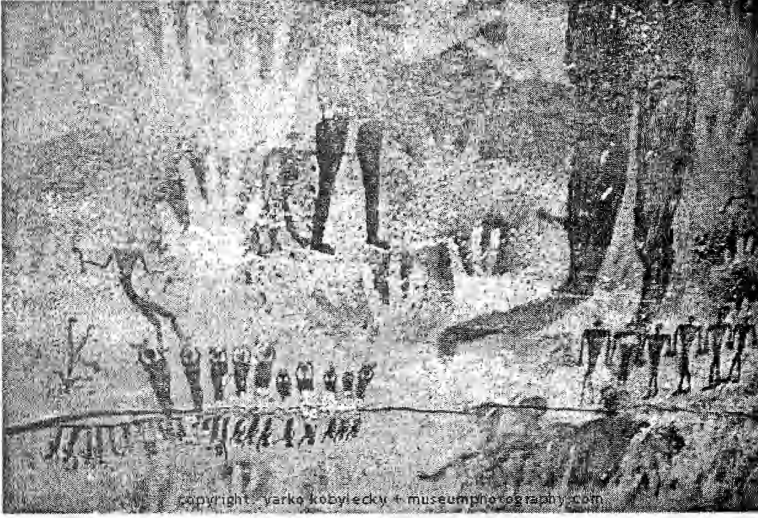
رغم الرمزية الشديدة للأشكال فإن التبسيط الهندسي لها حافظ على الشكل العام ولم يخل به.

صورة رقم 3



في هذه الصورة نجد بداية المدرسة المصرية في تحليل الشخص. نجد أيضاً أشخاصاً طوال القامة مع آخرين قصار القامة. ربما كان هذا يعني رجالاً وأولاداً. كما يلاحظ المهارة الشديدة في تبسيط جسم الزرافة بشكل حافظ على خصائصها.

في الصورة الرابعة نجد مرة أخرى قوة التصميم الجماعي.

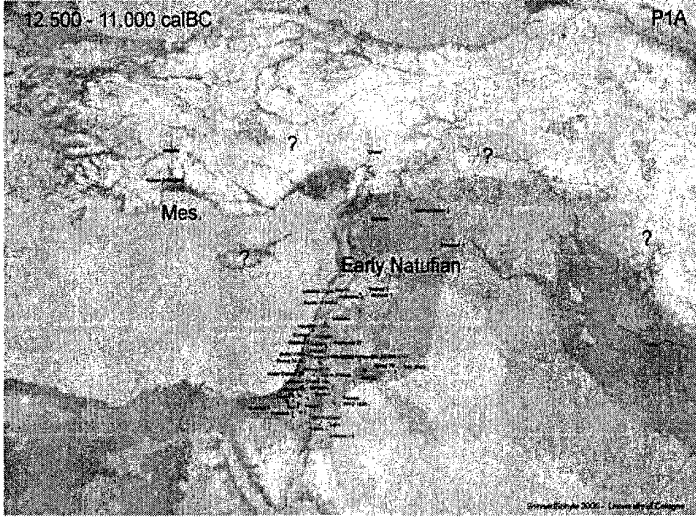


ففي هذه الصورة أسفل على اليسار نجد تجمعاً رائعاً يبدو في حالة رقص. ومن المدهش هذه العلاقة الجميلة بين هذا الجمع وبين انعكاس صورته في الماء. وهو تصميم جمالي بحت. فانعكاس الصورة لا يفيد في نقل الرسالة الورد نقلها، ولكنه إضافة جمالية تفيد بلاغة الجملة الفنية. يؤكد هذه البلاغة الفنية في التعبير تقسيم الفريق الراقص إلى جزء صغير القامة وآخر طويل القامة ليضيف بعداً فنياً محضاً للعمل وهو هنا بداية ظهور البلاغة في التعبير كقيمة بالإضافة إلى المحتوى أو المضمون أو المعنى للصورة. وفي أسفل الصورة على اليمين نجد مجموعة بشرية في خطوات غاية في الانتظام والتماثل في أدق التفاصيل حتى لتصبح أقرب لكتيبة جيش عصري في خطوة عسكرية. نلاحظ أيضاً في هذه المجموعة تبلور المدرسة المصرية في التشكيل وهي الصدر من منظور أمامي والأقدام من منظور جانبي.

عصر النيوليتيك في منطقة النوتيفيان (الشام والعراق)

كما أسلفنا سابقًا فإن حضارة النوتيفيان (في سوريا والعراق وربما أيضا اليمن) هي امتداد لحضارة النوشافيان في مصر صورة 1.1

صورة 1



رغم الآثار البسيطة التي وصلت إلينا فإننا نستطيع متابعة خصائص حضارة النوتافيان السورية.



هذه الصورة 2 تعود إلى حوالي 10 آلاف سنة قبل الميلاد في منطقة النوتيفيان. ويبدو في الرسم شخص يفرد أزرعه. وعلى هذه الذراع نرى حيوانين وشجرة. ويبدو أن لهذه الصورة مضامين دينية. فهذا الشخص يبدو قريب الشبه جداً برسوم كهوف تاسيلي في الجزائر. فهو يحمل نفس القرنين ويفرد زراعه بنفس الطريقة التي رفع بها الشخص في الجزائر ذراعيه الأثنتين. وما معنى الشجرة والحيوانات التي تقف على ذراعه؟. بعض المحللين يرون أن هذا الشكل يمثل ساحراً ما. ولكن ربما كان هذا يرمز إلى إله وإلى عملية خلق للعالم؟ إن أصاب هذا التحليل فسيكون هذا أول صورة للإله البعل على الإطلاق. على كل فإن الدين تطور من معتقدات سحرية.

صورة 3



هذه الصورة تمثل تمثالاً يمثل حالة الجماع. ويلاحظ التلاحم الشديد بين الشكلين المتجامعين حتى في القبلات. وهو يظهر حالة رومانسية عالية يندمش المرء لوجودها في هذا العصر الغارق في القدم.

عصر النيوليتك في أوروبا.

صورة رقم 1



رغم أن هذه النقش وجد في السويد في حقبة زمنية تعود إلى حوالي 2500 سنة قبل الميلاد فإنها تذكرنا بشكل لا يمكن تجاهله بشكل الساحر في صورة رقم 2 في رسوم الناتيبيان 10 آلاف سنة قبل الميلاد وصورة رقم 5 في فنون النيوليتك في شمال إفريقيا في الجزائر في هضبة تاسيلي حوالي نفس العصر. فهي لرجل يبدو كما لو كان له أذنا أرنب (وهذا في الغالب قرون ثور) وبرز

واضح خارج من العضلة الثلاثية. هذا الشخص يحمل شيئاً في يديه. وهذا في الغالب إحدى أدوات الساحر.

يلاحظ التشابه في تحليل الشخص المرسوم أو المنقوش من قرنين بارزين، وجود جسم بارز في العضلة الثلاثية. حركة الذراعين. مع الاختلاف الشديد في المكان والزمان.



الجزائر



سوريا



السويد

تال كامونيكيا

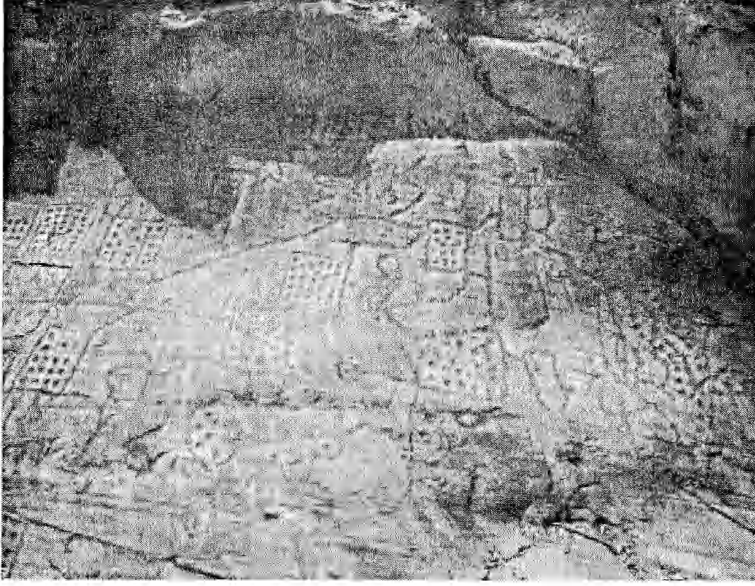
وهو واد في إيطاليا يحتوي على أكبر مجموعة من نقوش ما قبل التاريخ في عصر النيوليتك في العالم، إذ يحتوي هذا الوادي على 300 ألف نقش مسجل في اليونسكو. وعدد كبير من هذه النقوش يمثل زهرة الكامونة الإيطالية.

صورة 2 زهرة
الكامونة



يلاحظ بجانب الزهرة وبداخلها مجموعة من الثقوب. هذه الثقوب وجدت في كهوف تعود إلى 200 ألف سنة في الهند (أي قبل ظهور الإنسان السابيانس) وأيضاً كهوف تعود إلى 80 ألف سنة في جنوب إفريقيا. كما لاحظناها في كهوف لينوكس ولاسكو كنقاط سوداء متجاورة في أماكن مختلفة. وهي الآن في إيطاليا وعمرها 2500 سنة فقط قبل الميلاد.

صورة 3 الثقوب



في هذه الصورة نلاحظ تجميعاً مثيراً جداً لهذه الثقوب في مربعات ودوائر مغلقة. هل يمثل هذا الشكل محاولات لتأريخ حدث أو أحداث معينة؟ هل تمثل هذه الثقوب المجمعّة طقوساً سحرية ما؟

الفصل الثالث

الحضارة القديمة في مصر

ما قبل الأسرات

كما ذكرنا أنفاً فإن العصر الحجري انتهى في مصر وسوريا والعراق واليمن في وقت مبكر نسبياً. فتعتبر هذه المنطقة هي أول منطقة في العالم تنهي فترة العصر الحجري وتنتقل إلى عصر الحضارات القديمة.

يحدد الباحثون بداية الحضارات القديمة بعده بظاهرتين أساسيتين:

- 1- تطور الزراعة لتصبح العماد الرئيسي للاقتصاد.
- 2- ظهور تجمعات سكنية تصل إلى عدة آلاف.
- 3- كما أن بواكير الكتابة ظهرت أيضاً في هذه الفترة.

وقد عرفت المراكز العربية في مصر وسوريا والعراق واليمن هذه الظواهر في أوقات متشابهة ومتقاربة كثيراً. ربما كان هذا بسبب الارتباط العرقي الذي تكلمنا عنه سابقاً من اعتبار حضارة النوتيفيان في سوريا والعراق ابنة مباشرة لحضارة النوشيبان في مصر. وقد امتد التشابه بين هذه الحضارات في فترة ما قبل الأسرات كما سنرى تبعاً.

التواريخ التقريبية	العصر	النوية والسودان	الوادي	الدلتا	الفيوم
-5540	الحجري	الشهيناب	البداري	مرمده	الفيوم
4500	الحديث	الخرطوم	1	بني سلامة	1
-4500	ما قبل الأسرات	الشمريقي شندي (القدادة)	العمرة (نقادة 1)	الهجري (أ)	
4000			البداري (ب)	حلوان	
-4000	ما قبل الأسرات	المجموعة أ من الجنل	(الخاطر)		
3500	الوسيط	الأول إلى الثالث	جرزة أ نقادة 2	العمرى ب	
-3500	ما قبل الأسرات				
5300	الحديث		جرزة ب	المعادي	
-3300	العصر		نقادة 2		
3150	ما قبل الثيني				

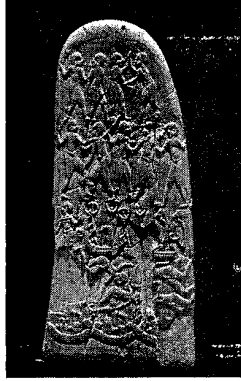
هذا الجدول يوضح مراحل التطور الثقافي قبل بداية التاريخ في
مصر⁴⁵.

المرحلة الأولى (البداري)

وهي تمتد 700 سنة من 4500 – 3800 قبل الميلاد. ولها آثار
مهمة في منطقة البداري في الوادي ومنطقة العمري في الدلتا.

وفي هذه الفترة توجد آثار ذات دلالات تستحق التوقف والتأمل:

شكل 2 نفس السكين من الخلف



شكل 1 مقبض سكين من الأمام



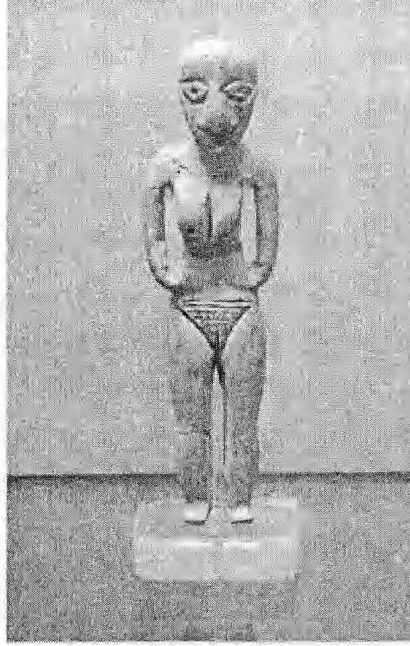
⁴⁵ بداية (التاريخ) ليست بداية التاريخ. فبداية (التاريخ) تعني بداية الكتابة ويرجع هذا إلى مرحلة نقادة قبل الأسرة الأولى، رغم أن بعض الأثريين مازالوا يحافظون على اعتبار أن الأسرة الأولى هي بداية الكتابة في مصر.

في الصورة الأولى لمقبض السكين نجد رسوماً تذكرنا بالرموز الآشورية العراقية والسورية للأسدين اللذين يرمزان لليل والنهار في الحضارة السابقة للذكر. وفي الوجه الآخر لنفس المقبض نجد صفوفًا من الأشخاص في حالة حرب في الجزء الأعلى من الصورة ومراكب حربية وأجسادًا للأعداء ترقد بين المراكب.

في هذا الوجه الآخر للسكين نجد بدايات الأسلوب المصري واضحًا. ووجود هذين الصورتين على مقبض واحد لسكين يدعو إلى التساؤل. فالبعض يفسر الظاهرة على أن السكين عراقي، وانتقل إلى مصر عن طريق التجارة. ولكن هذا التفسير يصطدم بأن الوجه الآخر للسكين ذو طابع مصري، أي أنه ليس عراقيًا صرفًا. والبعض الآخر يفسر الظاهرة بأن مصر كانت واقعة تحت احتلال عراقي آشوري. ولكن هذا يتصادم مع حقائق هذه الفترة التي لم تكن تمتلك لا الأدوات ولا الواعز ولا القوة الكافية لاحتلال دولة أخرى خصوصًا دولة مثل مصر. بقي الاحتمال الأخير، وأنه في باكورة ظهور الثقافات كان هناك تشابه شديد بينهم، ثم أخذت كل حضارة تتبلور مع الوقت مظهرة شخصية ثقافية وحضارية خاصة.

في الصورة الثالثة تمثال أنثوي.

صورة رقم 3 لامرأة

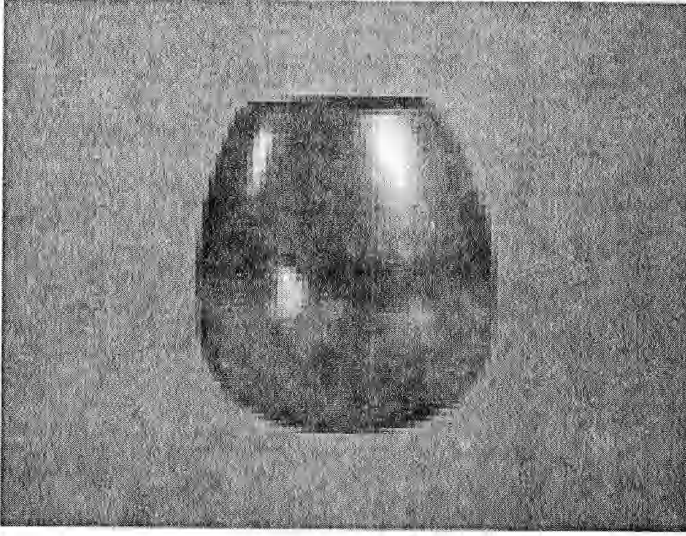


هذا تمثال لأنثى لكنه يستحق وقفة أيضًا.

- فالمرأة حلقة الرأس. ومسألة حلاقة الرأس سنراها لاحقًا كصفة مهمة من صفات الكهنة في مصر القديمة. مما يدعونا إلى التصور أن هذه المرأة ذات صفة دينية. ربما كانت كاهنة. وهذا يعني أن المجتمع الأنثوي ظل له امتداد في فترة بداية الحضارات القديمة ذات الثقافة الأبوية القوية.
- الملحوظة الثانية هي وجود فراغات بين الذراعين والجسم ووجود فراغات أيضًا بين الساقين. مما يعني أن ظاهرة إغلاق الفراغات التي ظهرت لاحقًا في التماثيل الأكبر حجمًا كانت ربما لأسباب تتعلق بأسباب تقنية وليست فنية أو دينية.

في هذه الفترة ظهرت أنواع متطورة من الفخار.

صورة رقم 4



يلاحظ الدقة والجمال والتكنيك الراقي واستعمال أنواع من الطين الملون والإبداع في تقريب الألوان ومزجها.

ومما يلفت النظر انتشار الصلايات. الصلاية هي إناء حجري به طبق في المنتصف يستعمل كمحلاة. وانتشار الصلايات والاهتمام بتجميلها وإخراجها في أجمل صورة يظهر مدى اهتمام المصريين القدماء بالجمال.

صورة 5 صلاة



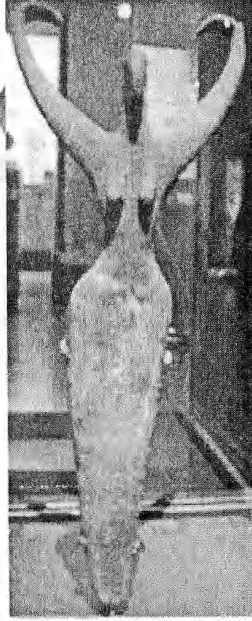
هذه الصلاة مزينة بأسود وحيوانات ذات رقاب طويلة تحيط بالصحن الداخلي الذي يمثل المكحلة.

المرحلة الثانية (نقادة الأولى)

وهي كما يبين الجدول تعود إلى نفس الفترة السابقة، ولكن في منطقة قنا بصعيد مصر. وكلمة نقادا اسم لمدينة تتبع محافظة قنا. وأصل هذا الاسم مأخوذ من كلمة مصرية قديمة هي (نجادا) بمعنى نجدة. ربما كان المصريون القدماء يحمون بها أغراضهم بها أثناء الفيضان. وتمتاز هذه الفترة بمجموعة تماثيل مهمة؛ حيث

يصل التطور الفني إلى مستوى راق جدًا بالقياس إلى الفترة الزمنية
الغارقة في القدم:

صورة 1 تمثال لامرأة



تمثال من الطين لامرأة. البعض يرى في هذا التمثال راقصة. ولهذا التفسير ما يؤيده، فصور الراقصات في الدولة القديمة يقترب إلى حد ما من هذا الشكل. الملفت للانتباه هو رشاقة الجسد الأنثوي الذي يتوافق مع مفهوم الجسد النموذجي للأنثى في العصر الحديث. كما نلاحظ أيضًا تغطية الجزء الأسفل من الجسد وترك العلوي. نلاحظ تخلص الفنان من التأثير الأنثوي المبالغ فيه الذي رأيناه في العصر الحجري. كما نلاحظ أيضًا حليقة الشعر مما يوحي أنها ربما كانت ذات مكانة دينية ما.

صورة 2 تمثال لامرأة



هذا التمثال في صورة 2 من الطين أيضًا ولامرأة محتفظة بشعرها ولكن مغطاة من أسفل كالسابقة. يلاحظ أن الذراعين كانا مفتوحتين وإلى أعلى، ربما في حركة قريبة للراقصة السابقة.

صورة 3



في صورة 3 نرى تمثلاً لامرأة أخرى. ورغم سقوط الوجه فإننا نستطيع استنتاج وجود شعر من خلال الضفائر. المرأة عارية، ولكن وضع اليد يعطي حركة مميزة. حركات الجسم وأجزاؤه كانت دائماً ذات دلالة. ولكن من الصعب الجزم بمعنى حركة الذراع المنتهي تحت الثديين. كما نلاحظ ميلاً إلى إلغاء الفراغات بين الأذرع والجذع والسيقان.

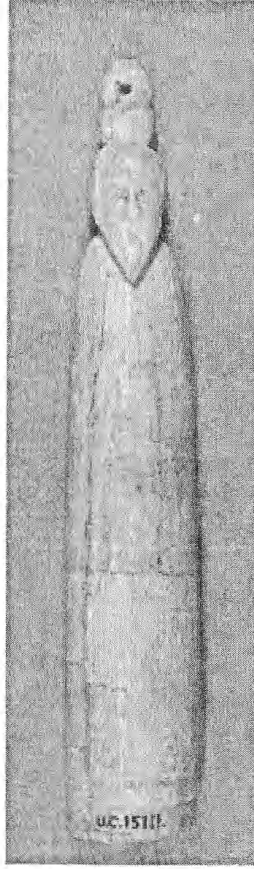
صورة 4 تمثال لامرأة



صورة 4 تمثال لامرأة تمثال. التمثال من العاج. المرأة حليقة الشعر
وليس في حالة رقص، وهي مغطاة في الجزء الأسفل. ربما كان
التمثال أيضًا لشخصية دينية ذات حيثية.

ننتقل إلى تماثيل الرجال.

صورة 5



صورة 5 تمثال لرجل. نلاحظ شكل الذقن المميز واللباس الطويل والشعر الطويل والذي يشبه إلى حد كبير هيئات الرجال في سوريا والعراق في هذه الفترة. وفي هذا تتنوع التفسيرات من احتمال وجود احتلال عراقي لمصر أو التبادل التجاري أو ببساطة أن في هذه الفترة كانت ملامح التشابه بين الحضارات في هذه المنطقة كبيرة قبل أن تتبلور لكل منطقة شخصيتها الخاصة.



رأس رجل من العاج. يلاحظ أن الرأس حليق على الطريقة المصرية، ولكن اللحية أقرب إلى الهيئات السورية والعراقية. والازدواجية هنا بين الهيئة المصرية والسورية يرجح فكرة التشابه الطبيعي في هذه الفترة بين الحضارتين.

ننتقل إلى الفخار.

صورة 7



صورة 7 صورة لإناء من الفخار. الإناء مزين بصورة لشخصين: رجل وامرأة. الشخصان في حالة حركة في الغالب رقص شعائري ديني. كما نلاحظ أن الذراعين والساقين تتحركان بحرية وغير ملتصقتين. كما نلاحظ وجود حلقات دائرية ذات طبيعة جزاجية مائية، وهو ما أصبح رمزاً للماء في الكتابة الهيروغليفية.

صورة 8



في صورة 8 نجد إناء من الفخار مزيّنًا بصور تمثل تماسيح ونباتًا صاعدًا بشكل رأسي ربما كان البردي. اللافت للنظر هو تحويل ظهر التماسح المليء بالدروع إلى خطوط هندسية متقاطعة غاية في الدقة. يلاحظ أيضًا أن جسم الإناء الخارجي من أعلاه مزين بمجموعات ثلاثية من الخطوط المائلة. وهذا الشكل ظهر في الكتابة الهيروغليفية كصيغة جمع.

صورة 9



صورة 9 صورة لإناء مزدوج. مزين في كلا الجانبين بصور نباتات. هذا الشكل يذكرنا بقوة بصورة (كا)⁴⁶ المصرية الفرعونية. ويبدو أن الفكرة الدينية (كا) ربما كانت معروفة في هذه الفترة القديمة.

هذا الإناء الفخاري يظهر شكلاً غاية في الرشاقة يوضح الدرجة العالية من التطور في صناعة الفخار. الإناء يظهر لونا داكناً في جزئه العلوي ولوناً بنيّاً فاتحاً في الجزء السفلي الأكثر ضيقاً. من شكل الإناء نستطيع نستنتج أن هناك قاعدة في الغالب معدنية ليقف عليها الإناء الذي من المستحيل أن يقف وحده على قاعدته الضيقة.

⁴⁶ كان قدماء المصريين يتصورون أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، وهي: الجسد وهو ما يتم تحنيطه بعد الموت، النفس وهي الصفات التي تميز الشخصية، والروح وهي لا تختلف عن التصور الحالي للروح.

صورة رقم 10



في هذه الصور 10 نجد نقشاً على صخر. نستطيع أن نلمح في هذا النقش بعض أحرف الخط الديني (الهيروغليفية) مثل: حرف (الفاء) وحرف (التاء). هذا الشكل يعتبر دليلاً قاطعاً على أن المصريين عرفوا الكتابة في هذه الفترة القديمة في الألف الخامسة قبل الميلاد، وليس كما يظن الجميع أن الكتابة ظهرت أولاً مع عصر نعرمر موحد القطرين.

صورة رقم 11

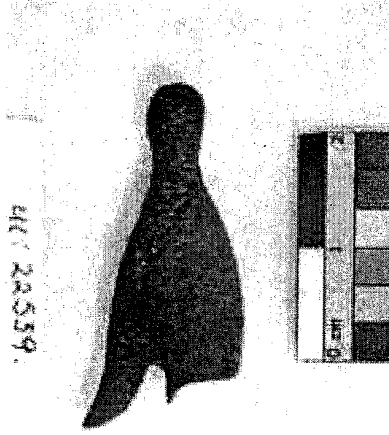


في هذه الصورة 11 إناءان من الفخار. في الإناء الأيمن راقص يتوسط راقصتان في وضع رفع الأذرع. وهو يذكرنا بالراقصة السابقة في صورة رقم 1. وهذه الحركة تمثل رقصة دينية ستستمر حتى الدولة القديمة. حركة رفع الذراعين لأعلى تذكرنا أيضًا بوضعية الدعاء والابتهال لله في المنطقة العربية التي استمرت حتى العصر الحديث. أما الإناء الأيسر فهو يظهر حيوانًا يتكرر أكثر من مرة. يبدو أحيانًا بقرنين وأحيانًا أخرى بما يشبه الأذنين. ولكن اللافت للنظر، والذي يدعو للتفكير التشابه الشديد بين رأس هذا الحيوان ورأس إله الشرست⁴⁷ الذي ظهر لاحقًا. يظل هذا الحيوان

⁴⁷ ست هو أخو الإله وزير (المعروف خطأ باسم أوزيريس)، وقد قتل ست أخاه في صراع على الإلهة عزة (والمعروفة خطأ باسم إيزيس) وأصبح بذلك إله الشر.

لغزًا لم يتم حله حتى الآن. هل هذا الحيوان هو السلعوة النادر والشرس والذي يخيف الجميع عند ظهوره؟

صورة رقم 12



في هذه الصورة نجد أقدم شكل لتاج الجنوب. يبدو من الصور السابقة أن ملامح الحضارة المصرية القديمة وعصر الأسرات كانت واضحة ومتبلورة إلى حد بعيد في هذه الفترة.

المرحلة الثالثة (نقادة الثانية)

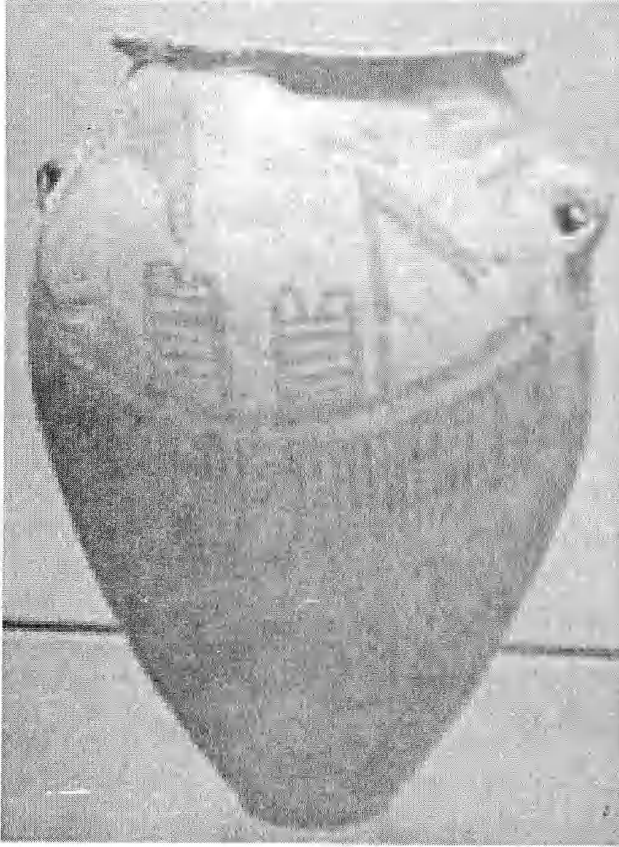
من 3600 – 3400 وهي تعرف بنقادة الثانية وآثارها موجودة في نفس المنطقة في الصعيد وفي الشمال في منطقة المعادي والعمرة.

صورة رقم 1



في هذه الصورة نرى مشطاً ذا مقبض كبير تسيباً عليه نقوش ذات دلالات كتابية. فنرى الصقر الذي يمثل حرف الألف. ونرى الثعبان الذي يمثل حرف الفاء في بدايات شكله المعروف، كما نرى جناحي الصولجان الذي يعني أيضاً صولجان (واس). كما نرى جناحي الإله رع، أو حورس. والعنخ. أدوات الزينة تلعب دوراً مهماً في القطع الأثرية مما قد يعني أن دورها في الحياة في مصر القديمة كان مهماً.

صورة رقم 2



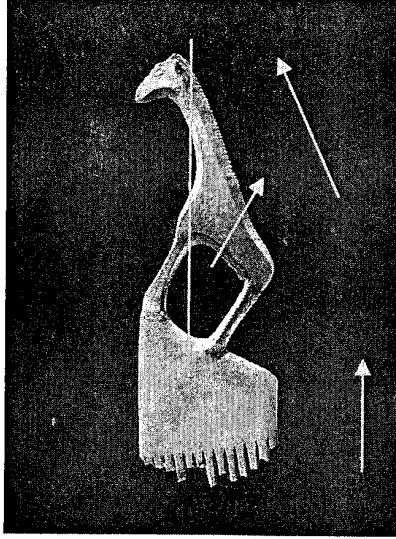
في الصورة رقم 2 نجد أنية فخارية ذات قاعدة دقيقة جدًا كمعظم الأواني في تلك الفترة مما يضيف عليها رشاقة وجمال. النقش المنتظم يظهر مركب شمس بمقصورتين. وعلم من أعلام الآلهة. في هذه الأنية نجد الدقة الشديدة في تحقيق الأشكال والخطوط. فالمنحنيات متحققة بكمال هندسي واضح والتوازيات لا خطأ فيها. وهي صفة مميزة للفن المصري.

صورة رقم 3



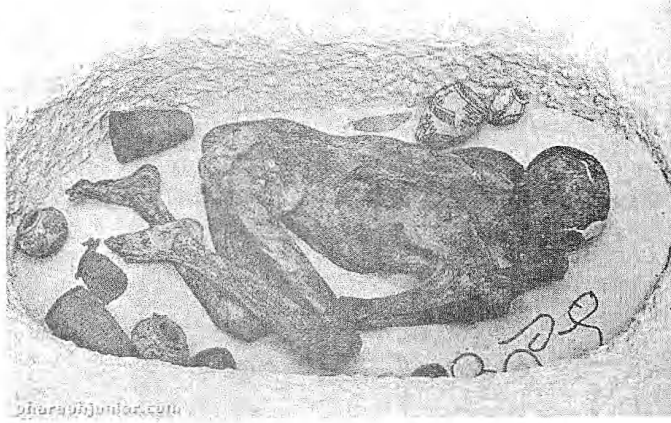
في هذه الصورة نجد أنية وقاعدتها على شكل أقدام. وهو عمل إبداعي جميل. والسؤال هل تمثل الأنية شكلاً دينياً أو فكرة دينية؟ أم أنها مجرد إبداع فني؟ من خلال معرفتنا بالمعتقدات الدينية المصرية لا نجد ما يبرر هذا الشكل دينياً. ومن المرجح أنه مجرد إبداع مبكر جداً من خيال فنان ما.

صورة رقم 4



تمثل هذه الصورة مرة أخرى مشطاً مع مقود جميل على شكل زرافة. المشط منحوت من العاج. يظهر الشكل ولعاً بالجمال وإحساساً مبكراً بالتصميم وهو ما يميز الفن المصري. يلاحظ في هذا الشكل ميل الزرافة البسيط للخلف؛ حيث ترتفع رقبته بدرجة ميل إلى الأمام بحيث يعود الرأس ليمس محور المشط الأيمن تقريباً كما هو مبين في الشكل. وهو إبداع في التصميم.

صورة رقم 5

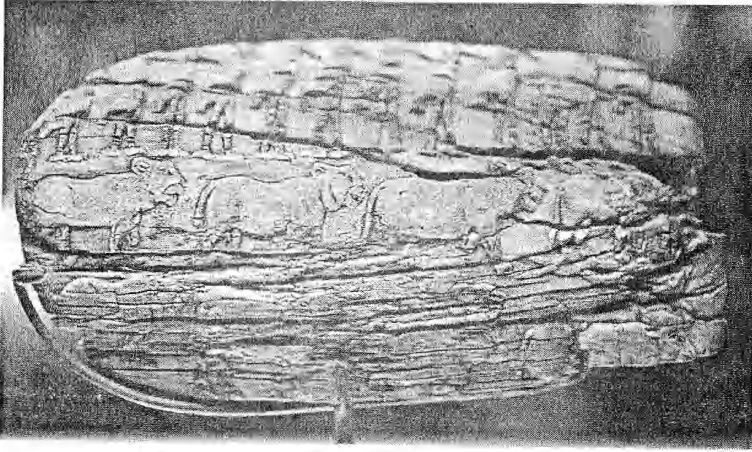


في صورة رقم 5 نستطيع أن نلقي ضوءًا على طقس الدفن. فقد كان الجسد يسجى على شكل القرفصاء. مع توجيه الوجه ناحية الغرب. مع وضع أوان فخارية ربما كانت تحتوي على بعض المواد الغذائية مما يؤكد وجود إيمان للحياة بعد الموت في هذه الفترة المبكرة. كما توجد بعض التماثيل التي تمثل بعض الأحجية ربما لمساعدة المتوفى في رحلته للعالم الآخر. وهو ما تطور في الديانة فيما بعد.

المرحلة الرابعة (نقادة 3)

من 3200-3500 قبل الميلاد. وبها آثار في الشمال والجنوب.
وهي تقترب كثيرًا من آثار مرحلة الأسرات.

صورة رقم 1



في هذه الصورة نجد حفرًا دقيقًا لصف من الأسود، ويعلوه صف آخر من الطيور ذات السيقان الطويلة. يطالعنا بقوة الدقة الشديدة في الرسم والحفر معًا. جسم الطائر أعلى القطعة الخشبية يشبه العقاب وإن كانت سيقانه تقترب من سيقان النعامة. كلاهما طائران ظهرا بكثرة في هذه الفترة والفترات التالية. والأسد في الصف الأسفل ربما كان لبؤة، وهو ما عرف فيما بعد بالآلهة سخمة. تحت الأسود وفي الجانب الأيمن نرى آثارًا لحفر جديدة (ضفيرة) وهو ما يدعونا إلى تصور حرف الحاء. وأسفل القطعة الخشبية نجد بقايا صف من الأبقار التي تتجه كلها مثل: الأسود والطيور من اليسار إلى اليمين.

صورة 2



صورة 2 تمثل صلاية بحفر مهم يمثل مجموعة من الأفارقة بوجوههم وشعورهم المتميزة، يهربون خوفاً وجزعاً في معركة حربية ما. نلاحظ هنا أن المهاجم أسد ومجموعة من الصقور. من السهل تصور أن الأسد يرمز للملك والصقور ترمز إلى قوة الجيش المصري الذي هزمهم. وهذا يمثل العادة المصرية التي ظهرت فيما بعد في تصوير الآلهة بصفات حيوانية، حيث لا يعني هذا بالضرورة أن هذا الإله حيواني، ولكن الجزء الحيواني فيه يعتبر رمزاً لصفة ما من صفاته المهمة، مثل: حدة البصر أو القوة، أو الطيران....

صورة 3



صورة 3 تمثل جزءاً من نفس الصلاة، ولكن من الجهة الأخرى. وهي تمثل نفس المعركة في الغالب، حيث يرى الأفارقة مربوطي الأيدي من الخلف من خلال صقر (حور) كرمز للملك الذي يكبل الأسرى. يرى في الجزء العلوي سيقان لأفارقة يجرون هرباً في المعركة.

صورة 4



هذه الصورة تمثل واحدة من أقدم النسخ للإلهة إزّة أو عزّة
(المعروفة خطأ باسم إيزيس) وابنها حور (المعروف خطأ باسم
حورس)^{48 49}.

⁴⁸ تنطق أسماء الآلهة المصرية القديمة بالطريقة اليونانية، مما يجعلها غريبة على أذان المصريين. ونحن ننصح بالتعود على النطق الأصلي ليكتشف المصريون اقترابها الشديد من الثقافة الحالية.

⁴⁹ سنعود للأسطورة المصرية فيما بعد.

صورة 5



هذه صورة لـحجر نحت عليه صفوف من الحيوانات والطيور. يتجه كل صف في عكس اتجاه الصف الذي يعلوه. الصف الأول من أسفل يمثل مجموعة من الحيوانات الشبيهة بالكلاب تتجه من اليمين إلى اليسار. نلاحظ في هذا الصف أن ذبول الكلاب كلها مرتفعة. الصف الذي يعلوه نجد مجموعة من الأبقار التي تتجه من اليمين إلى اليسار.

في الصف الثالث نجد نفس المجموعة من الحيوانات في الصف الأسفل متجهة في نفس الاتجاه، ولكن ذبولها هذه المرة ساقطة للأسفل. في الصف الرابع نجد طابوراً من طيور البجع التي رأيناها عدة مرات من قبل. الطيور تتجه من اليسار إلى اليمين. في الصف الأخير نجد مجموعة من الفيلة تمتطي الثعبان الذي يمثل حرف الفاء. وهو تجميع يدعو إلى الدهشة والتساؤل.

الفصل الرابع

التطور الاجتماعي

مقدمة

الحضارة المصرية هي الحضارة التي تركت أكبر قدر من الآثار في العالم. فتلت آثار البشر في مصر. والثلاثان الآخرا يتوزعان بين الصين والهند واليونان وإيطاليا وسوريا ولبنان والعراق والمكسيك وفنزويلا وشيلي وبقية دول الأمريكتين وإنجلترا وإسبانيا وفرنسا.... وبقية العالم. ولكن هذا لا يمنعنا أن نقول إن الحضارة المصرية كانت أكثرهم ملاحقة بالحظ السيئ. فهذه الحضارة التي كانت تهتم بتسجيل كل شيء كما لم تسجل أي حضارة أخرى، وكان كل ملك يصحب معه الكاتب الخاص به في كل مناسبة ليسجل ما يحدث، ورغم أن كهنة كل أسرة كانت تهتم بنقل كل ما كتبه الأسر السابقة مع إضافة عصرها هي، ورغم أن المصريين القدماء كانوا يسجلون كل ما يتعلق بحضارتهم من فكر وفلسفة ودين وطب وفلك ورياضيات وهندسة وموسيقى، رغم كل ذلك فإن كل ما سجل في كل التاريخ الطويل فقد وضاع في ظلمات التاريخ بسبب تتابع سريع جدًا لأحداث مهمة.

حرقَت مكتبة الإسكندرية مرتين: الأولى في سنة 48 ق.م. في عهد يوليوس قيصر.

يقول المؤرخون إنه حدث حريق هائل في ميناء الإسكندرية نتيجة للمعركة الحربية وامتد الحريق حتى أتى على المكتبة الكبرى. ولكن استطاع بعض الكهنة إنقاذ جزء من المخطوطات المهمة وأودعوها في مخزن قريب من المكان القديم في معبد السيرابيوم.

ولكن بعد ظهور المسيحية في مصر وانتشارها في القرون الثلاثة الأولى بدأ الخط الواصل بين المصريين وتاريخهم القديم في الانقطاع. فصدر منشور باعتبار اللغة القبطية اللغة الرسمية للبلاد عام 389 ميلادية وحرّم التعامل باللغة المصرية تمامًا باعتبارها لغة الأوثان. واللغة القبطية مزيج بين اليونانية والمصرية، ولكن البناء القواعدي لها يوناني تمامًا، وهي تكتب بحروف يونانية. فالمصري الذي يقرأ المصرية لا يستطيع قراءة القبطية، والذي يقرأ القبطية لا يستطيع أن يقرأ اللغة المصرية القديمة. وهكذا انقطع الخط. وبعد إصدار هذا المرسوم الذي يجعل القبطية اللغة الرسمية للبلاد بعامين فقط، انقض المتعصبون من المسيحيين على بقايا المكتبة وأحرقوا البقية الباقية من الكتب والمخطوطات والبرديات التي تحوي تاريخ وفكر المصريين في الحقبة السابقة، وذلك باعتبارها ثقافة وثنية. كان ذلك في إطار حملة في كل أنحاء البلاد لتهديم أثار الديانة المصرية القديمة. فهشموا العديد من المعابد وقتلوا وحرقوا البقية الباقية من الكهنة والفلاسفة القدامى منهم هيبتيا المشهورة والتي أصبحت بطلّة روايات وأفلام سينمائية.

كان آخر معبد لإيزيس في أقصى الجنوب بين مصر والنوبة عندما استطاعت طائفة البليميز الاستمرار في عبادة إيزيس بعد موافقة الإمبراطور ماركيان عام 451 ميلادية. وكان آخر أثر للكتابة المصرية الديموطيقية (الوثنية) نقوش جرافيتية كتبت على جدران

المعبد جنبًا إلى جنب مع نقوش الكهنة الهيروغليفية، والذين تعرفنا على بعض أسمائهم وهما إسمت الأصغر وإسمت الأكبر. ولكن بعد مائة عام حوالي 550 ميلادية نقض المسيحيون المتعصبون المعاهدة وانقضوا على معبد عزة (إيزيس) وألقي بالكهنة في غياهب السجون⁵⁰ وكان هؤلاء هم آخر من يستطيع قراءة النصوص المصرية وآخر من يعرف شيئًا عن الحضارة المصرية. انتهت تمامًا الديانة المصرية وانتهت معها كل الحقبة التاريخية الفرعونية وحدث الانقطاع التام بين مصر وتاريخها القديم الذي اختفى تمامًا في ظلمات النسيان.

كانت اليونان أكثر حظًا. فرغم أن التراث اليوناني كان على وشك الحرق والانتثار تمامًا كسابقه المصري ولنفس الأسباب، وهي تعصب الكنيسة ضد الفكر غير المسيحي، فإن حظ اليونان كان أفضل كثيرًا من حظ المصريين، فقد أنقذ العرب في العصر العباسي التراث اليوناني واشتروا آلاف الكتب اليونانية قبل حرقها وترجموا كنوز الفلاسفة اليونان إلى العربية وإلى اللاتينية وإلى الهندية، والعكس بالعكس. فتعرف العالم كله وخاصة الأوروبيين على التراث الفكري اليوناني من خلال الترجمات العربية. واكتشفوا فلاسفة اليونان من خلال العرب. وهكذا بدأ عصر النهضة في أوروبا، من خلال انتشار فكر الفلاسفة العرب وفكر الفلاسفة اليونانيين الذين عرفهم الأوروبيون أيضًا من خلال العرب.

مصر المسكينة لم تجد من ينقذ تراثها فذهب إلى الأبد. ولم يتبق لنا إلا حضارة حجرية صماء لا تتحدث عن نفسها. فظلت غريبة معزولة خرساء. وأصبحت اليونان هي بداية الفكر العقلي، والفلسفة، والحكمة، والمسرح، والموسيقى، والديمقراطية..... وكل شيء (كما يخرجها الأوروبيون).

⁵⁰ الديانة المصرية القديمة، يوروسلاف تشرني.

مصر المنسية تعبر عن نفسها

مع دراسة التراث اليوناني تطالعنا إشارات عديدة تمثل أجزاء للبولز⁵¹ المصري المفقود. فيتردد في التراث اليوناني مقولة كان يقولها المصريون لليونانيين الذين درسوا في مصر، وما أكثرهم، ويردها اليونانيون معترفين بصحتها وهي:

"إن اليونانيين مازالوا أطفالاً في مضمار الحضارة بالمقارنة بمصر". وهذه المقولة ذكرها أفلاطون في محاوره تيمايوس⁵². وكان أفلاطون نفسه يدعو إلى التقليد بالمصريين للتطور وكان معجباً بإسبرطة لأنها في نظره أقرب إلى مصر في هذا المجال. وديوكسوس عالم الفلك اليوناني وأكبر علماء الرياضيات في القرن الرابع ق.م. ذهب ليتعلم في مصر. ترى ما الذي تعلمه من هذا الذي نسب كله إليه فيما بعد؟ وفي محاوره فايدروس (Phaidros) يتحدث أفلاطون بالتفصيل نقلاً عن سقراط على أن تحوت المصري هو مخترع الأعداد والحساب والهندسة وكل أنواع الأدب والفلسفة⁵³. لم نعد نعرف عن هذه الفلسفة لا القليل ولا الكثير ولكننا نعرف عن تلامذتها مثل: سقراط وأفلاطون وأرسطو الكثير.

وفي محاوره فيليبوس (Philebos) وإبينوميس (Epinomis) يتحدث أفلاطون عن تحوت أيضاً بوصفه مبدع اللغة وكل العلوم. ونحن لا نعرف عن تحوت سوى أنه على شكل قرد مرة وطائر مرة أخرى، ونجهل كل فكره وفلسفته⁵⁴.

⁵¹ البولز: لعبة تتكون من قطع صغيرة لأشكال مبهمه يتم تجميعها لتكون صورة كاملة لشكل واضح.

⁵² Platon, Timaios, 22B, 23A.

⁵³ Phaidros, 274, D, (trans. H.N. Fowler, p.563).

⁵⁴ أثينا السوداء مرتين برنال، ت. أحمد عثمان.

ويؤكد إفلاطون أن الموسيقى أخذها الإغريق من مصر⁵⁵.

والآن يتحدث العالم عن السلم السباعي الموسيقي العظيم الذي اخترعه فيثاغورث اليوناني والذي كان يدرس في مصر. أما نحن المصريين فنلهت بحثًا عن أي أثر لنوتة أو رموز موسيقية في التراث المصري القديم ولكن عبثًا.

إن يودوكسوس أستاذ أرسطو قضى ستة عشر شهرًا حليق الشعر ينتقل في خشوع بيد معابدها مصاحبًا فلاسفتها يدرس على أيديهم، ويعود بعد ذلك لليونان ليكون أستاذًا لأرسطو الذي بهر الإنسانية بمعارفه. ترى ما الذي تعلمه يودوكسوس في مصر؟ ترى كيف كانت هذه الفلسفة التي أنجبت كل هؤلاء الفلاسفة اليونان، والتي كانوا أمامها أطفالًا كما ذكروا هم بأنفسهم؟ ونحن مازلنا حتى الآن نستسلم تمامًا للتقليد المشبوه الذي أفرزته المركزية الأوروبية بأن يلعب المفكرون اليونانيون فقط بالفلسفة، ولا يلعب أساتذتهم المصريون بهذا اللقب أبدًا، بل يلعبون بالسحرة!! حتى يظل التفكير العقلي حكرًا على اليونان حصريًا، أما أساتذتهم المصريون فيحرمون منه، ويظلون أقرب إلى الفلكلور منه إلى العقلانية لأن كل شيء حرق وفقد.

ولكن لماذا أصر هيرودوت على أن أصل كل الآلهة اليونانية هو مصر؟ ولماذا أصر العالم ديبوي في القرن 19 على أن مصر هي الأصل وقال: "يمكن إرجاع كل الميثولوجي والأديان إلى مصدر واحد هو مصر"؟

وقال أيضًا: "إن مصر تشبه شجرة قديمة قدم العالم. ولقد رفعت رأسها الشامخ من عناء الأبدية، وأثرت على كل أجزاء العالم

⁵⁵ اثينا السوداء، مارتن برنال، ت: أحمد عثمان.

بمنتجاتها، وضربت بجذورها في عمق أجيال البشر، متخذة صورًا مختلفة ومظاهر شتى، لكنه جوهر دائم يصعد مرتقياً إلينا متمثلاً في دينها وفضيلاتها وعلمها⁵⁶.

هذه هي المعضلة التي تقابلنا ونحن ندرس التاريخ المصري.

ولكننا سوف نحاول من خلال تحليل للأديان والتاريخ وبعض البرديات ومظاهر التركيب الاجتماعي أن نصل إلى ما أخفته الحرائق والزمن. وسنلجأ لبعض المقارنات لتلمس الدلالات النسبية للتطور، كما أننا سنتعرض لتحليل الفن المصري القديم لكشف اللثام عن بعض ما اختفى في ظلمات التاريخ. وأن نحول الحضارة القديمة من صور وتماثيل صماء إلى بشر ينطقون ويحكون. حتى نستطيع تغيير أوهام كثيرة لصقت بالحضارة المصرية، وخصائص أكثر لها حرمت منها سهواً وعمداً.

⁵⁶ ahmed Etman, Aïsis in the grecoßRoman. Worl.

أثينا السوداء، مارتن برنال، ت: أحمد عثمان، ص 49.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم

تحليل مقارن

هناك سؤال مهم نحاول الإجابة عنه

الدارس للتاريخ المصري يتم صب فكرة ألوهية الملوك وعبودية الشعب في رأسه. فيصبح التاريخ المصري رمزًا للاستعباد والقهر. فنقرأ من مثقفين أوروبيين ومصريين ونسمع في التلفزيون المصري وغير المصري أن المصريين عاشوا طول تاريخهم عبيدًا يقومون طواعية بتأليه ملوكهم ويستسلمون لطغيانهم. هكذا يتم تدريس التاريخ المصري في كل العالم. على أساس أن المصريين يميلون إلى العبودية وتأليه الملوك، وقد ظلوا كذلك طيلة التاريخ. وندرس عن التاريخ الأوروبي الذي يبدأ باليونان أنه يبدأ بالديمقراطية. أي أن الشعوب الأوروبية بدأت شعوبًا سيادية لا تعبد ملوكها، ولا تترك نفسها للاستعباد، بل تتمسك بحريتها وبكرامتها وتدافع عنها. بدأت هذه المنظومة التاريخية في القرن 18 مع النظريات العنصرية حين بدأ الأوروبيون في خلق وهم الرجل الأبيض. وكان لا بد من تليفيق نظرية تاريخية تبرره. فقد كان هناك إخراج آخر للتاريخ. أن يكون السبق في الإنسانيات لليونان كرمز لبداية أوروبا فتكون حضارة ديمقراطية ذات إنجازات فلسفية

إنسانية يحتذي بها البشر، وأن تكون الإنجازات الحضارية المصرية خالية من الإنسانيات فتظل حضارة صناعة أهرامات بالسخرة والسياط والذلل كمقابر للملوك مع قمع وإذلال للشعب. أصبح هذا الفهم للتاريخ المصري والتاريخ الأوروبي هو التصور الوحيد الموجود في كل العالم عن المصريين والأوروبيين حتى الآن.

وقنع المصريون واستسلموا تمامًا لهذا التصور المخادع والظالم والعنصري.

هل هذا التصور صح؟

أولاً: لم تذكر أي نظرية من نظريات الخلق التي سنوضحها في فصل اللغة وجود أي ملك في نظام الآلهة لا في تامون الأشمونيين، ولا في تاسوع منف، ولا في غيرها على الإطلاق. فلم يصف اسم خوفو ولا رمسيس ولا أي من الملوك مهما كانت عظمتهم ولا جبروتهم إلى الآلهة.

ثانياً: حدثنا مانيتون عن زمن سابق كانت تحكم فيه الآلهة البشر على الأرض. وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بالديانة الفرعونية، ثم أكمل مانيتون أنه جاء بعد ذلك الزمن الذي تركت فيه الآلهة الأرض للبشر لتحكم. أي أنه حسب تقسيم مانيتون أنه منذ الأسرة الأولى لا يحكم غير البشر. ولم يكن هناك آلهة البتة. ولكن كان هناك تقديس للملك.

وتقديس الأشخاص لا يعني التأليه. فحتى اليوم يتم تقديس شخصيات عالمية مثل: بابا الفاتيكان الكاثوليك وبابا الأرثوذكس. فيقال قداسة البابا، لأنه يمتلك بشكل شرعي قداسة دينية، بل إن كل القديسين شخصيات ذات قداسة. وهي شخصيات تستطيع أن تصلي وتدعو لها، بل أن تطلب منها مطالب حسب الديانات التي تنتمي إليها، وهذا بالتحديد كان شكل العلاقة بين المصري والشخصيات الملكية

أو الشخصيات الأخرى غير الملكية والتي كانت ترتفع إلى مرتبة التقديس نتيجة إنجازاتها مثل: منتحبت ونيثي شيري، وهي شخصيات سنأتي إليها فيما بعد في الجزء الخاص بالتاريخ.

كان الملك يسمي نفسه ابن الإله (صا رع). هل كان هذا يعني أنه أصبح إلهًا؟ وهل هذه التسمية تخص الملوك المصريين وحدهم باعتبارهم آلهة؟

الحقيقة أن الأفراد العاديين أنفسهم كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء الآلهة، وأن الإله في السماء كان أب الجميع.

وهو ما يذكره الكتاب المقدس في العهد الجديد على لسان المسيح عليه السلام إذ كان يقول للناس (أباكم الذي في السماء). بل يستعمل حتى الآن لفظ رب الأسرة كناية عن أب الأسرة، فيتم الربط بين الأب والإله دون أن يعني الشخص الوهية الأب.

وتلقب الملك بابن الإله كانت عادة كل ملوك العالم بما في ذلك اليونان والرومان و ليس مصر فقط. ولكن تخلصت مصر والشرق عامة من هذه الثقافة في فترة مبكرة جدًا. فقد كان الجنود المصريون في الجيش الروماني يرفضون تمامًا الركوع للإمبراطور الروماني باعتباره إلهًا لهم. وهو ما تسبب فيما بعد في اضطهاد المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية عام 284 م. في عهد الإمبراطور ديقليديانوس⁵⁷. في حين أن هذا التقليد استمر في أوروبا إلى اليوم رغم المسيحية ورغم التطور الديمقراطي. فيعتبر الأوروبيون ملوكهم طبقة فوق البشر ولهم دماء تختلف عن دماء البشر ويسمون هذا (Royal blood) أي الدم الملكي⁵⁸. هذا امتداد لثقافة أن الملوك

⁵⁷ المسيحية والإسلام على أرض مصر، ولهم سليمان قلادة. ص 84.

⁵⁸ ظهر في مصر في بعض الأوقات تعبير (ولاد ذوات)، ولكن هذا التعبير لم يكن يعني اختلافًا عرقيًا، بل يعني اختلافًا طبقيًا فقط، ولهذا فهو يختلف تمامًا عن التعبير الأوروبي =

في أوروبا ذوي دماء إلهية في عهد اليونان والرومان. ونرى ونسمع عن أحداث يتحكم فيها بقوة هذا التصور الغريب. فقد كان الملوك في أوروبا - وما زالوا - يتزوجون من غرباء أصحاب دماء ملكية ولا يتزوجون من شعوبهم لافتقارهم إلى الدم الملكي. وكان هذا هو القانون الذي يؤمن به الشعب. وما زال هذا التعبير لورد (Lord) أي (إله). موجودًا حتى الآن في الحياة العامة. فهناك (مجلس اللوردات) والذي يعني (مجلس الآلهة) حتى الآن في بريطانيا في القرن الواحد العشرين. وهم أعضاء معينون وليسوا منتخبين وينتمون إلى طبقة أصحاب الألقاب⁵⁹. وهو ما يستحيل حدوثه في مصر أو أي قطر عربي على الأقل.

الحقيقة أن ظاهرة تأليه الأشخاص وبالتالي استغلال ذلك في أبشع درجات إذلال الشعب التي من الممكن أن تصل إلى القتل ظلت مسيطرة تمامًا على التاريخ الأوروبي، وكانت هذه الظاهرة تلعب في أوروبا دورًا خطيرًا في النظام الاجتماعي.

فنحن نعرف أن أهم مظاهر الحضارة الرومانية هو مسارح الكواليسيوم الموجودة في أماكن عدة من الإمبراطورية. ولكن المؤلم أن هذا الإنجاز المعماري الجميل كان يؤدي أبشع الأعمال إجرامية، فكانت تقام فيه مباريات يتم فيها القتل الجماعي لبشر عاديين ليسوا مجرمين أو حتى مدانين من قبل السلطات، وذلك لمجرد تسلية الملك وأتباعه. فكان ذلك هو التسلية المفضلة للإباطرة الرومان في ذلك الوقت. وكان هذه الممارسات الشاذة الإجرامية تتم بدرجة عالية من الإتقان والتفنن والتلذذ. فصممت هذه المسارح

= الأرسطراط، الذي يعني اختلافًا نوعيًا في الدم والعرق. وكان يقابل التعبير المصري ويقاومه مقولة (كلنا أولاد تسعة 9 للتذكير بأن مهما اختلفنا في الطبقة فكلنا واحد في النهاية.⁵⁹ هم يمثلون المجلس الأعلى للبرلمان البريطاني، حيث يمثل المنتخبون من العامة المجلس السفلي. كيف تتعايش الديمقراطية مع النظام العنصري؟

على أن سلاّم سرية تحت الأرض لصعود ضواري متوحشة جانعة من نمور وأسود بشكل مفاجئ على المسرح تفاجئ الضحايا والجمهور وتفترس الضحايا البشر المساكين. وكانت هناك حبال تمر من خلال حلقات يمسك بها الحراس لإيقاف الضواري المتوحشة من الاقتراس السريع للبشر حتى يزداد التشويق، مما يزيد الأمر إثارة وسط تهليل الجمهور والحاشية الملكية لمناظر الاقتراس والقتل الهمجي الوحشي. وهو يذكرنا ببعض الأفلام الأمريكية الحالية التي جعلت من القتل تسلية وإمتاعاً للمشاهد. وهذا الشكل من الممارسات الوحشية الرومانية يعتبر في الحضارة المصرية بالتحديد مستحيل الحدوث أو حتى التصور في أي حقبة من الحقبات. لاعتبارات كثيرة أهمها الجانب الإنساني لهذه الحضارة الذي كان نسيباً متمثلاً في كل مراحلها حتى أكثرها ظلاماً وظلمًا، كما سنرى فيما بعد.

وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية على يد الغزاة الجرمان في عام 378؛ حيث قتل الإمبراطور الروماني وانتصرت القبائل الجرمانية الهمجية، قضى تماماً على نظام الدولة المركزية وتحولت أوروبا إلى أقطاعات بدأ بفرنسا وإنجلترا ثم باقي البلدان. وكانت العلاقة بين الإقطاعي والفلاح مبنية على أسس ينعدم فيها بالكامل أي إحساس بأدمية الفلاح كالآتي:

1- يعتبر الفلاح العامل في الأرض ملكية خاصة للإقطاعي فإذا باع الأرض فإنه يبيعها بفلاحها وزوجاتهم وأبنائهم. ولا يكون لهم حق الاعتراض أو المغادرة. وهذا وضع لم يتكرر في كل تاريخ مصر حتى في العصر الحجري.

2- إذا غادر الفلاح الأرض فإنه يقتل، أو يحكم عليه بالإعدام، بحكم القانون الشرعي والذي كانت تؤيده الكنيسة. فالفلاح

الأوروبي لم يكن له أي حق في تغيير موقعه مهما كانت أساليب الظلم والطغيان والأسى، إلا إذا أذن له الإقطاعي. طبعًا هذا الوضع أيضًا مستحيل تصور إمكانية وجوده في كل التاريخ المصري، الذي كان الفلاح فيه، حتى في أشد الظروف قسوة أفضل بمراحل من هذه الحالة. فالقانون المصري الذي ينظم العلاقة بين الفلاحين والسلطات المختلفة حتى في أسوأ العصور والظروف كان أكثر إنسانية بمراحل من هذه الأوضاع الأوروبية..

3- حق الليلة الأولى، حيث كان للإقطاعي حق الدخول جنسيًا بالفتاة التي تتزوج بدلًا من زوجها في الليلة الأولى على الأقل. كان ذلك يتم بحكم القانون والشرعية ومباركة الكنيسة. طبعًا يعتبر تصور تطبيق مثل هذا القانون في مصر في أي مرحلة من تاريخها الطويل ضربًا من الجنون. فالزوجة كانت ومازالت تعتبر أكثر المقدسات للرجل في كل العصور في كل بلاد العالم. وأن التعرض لشرفها هو مسألة تبيح القتل في قوانين وأعراف وتقاليد الشرق والغرب إلى وقت قريب، أو حتى إلى الآن في أماكن عدة في الشرق والغرب أيضًا. فالزوج يتحمل الموت ولا يتحمل أن يتعرض شرف زوجته لأي مساس. وقد شرعت جميع الأديان القتل لغسل العار. والفلاح المصري في أشد عصور الظلم لم يشهد قانونًا أو عرفًا يمثل هذا الشذوذ، ولو كان حاول أحدهم تطبيقه لقامت الدنيا ولم تقعد. ولكنه كان يمارس في أوروبا بكل بساطة وشرعية وإيمان. فقد كانت كرامة الفلاح في أوروبا وأدميته تمتهن إلى أقصى درجات الامتهان.

4- وبلغ حد الاستغلال اللإنساني للفلاحين الأوروبيين أن الكنيسة نفسها استغلت جهلهم ويأسهم التام من الحياة بأن كانت تباع لهم بالبقية القليلة من نقودهم قطعاً من المعدن عليها خاتم الكنيسة ليعلقوها في رقابهم لتدفن معهم، بحجة أن هذه القطع ستدخلهم الجنة في الآخرة. وكان المساكين يقفون صفوفًا أمام أبواب الكنائس يدفعون كل ما لديهم لشراء هذه القطع التي أطلقت عليها الكنيسة اسم صكوك الغفران. وكانت هذه الصكوك أحد أهم موارد الكنيسة وأسباب غناها الفاحش. فكان الإقطاعي والكنيسة يتناوبان على استنزاف دماء الفلاحين حتى آخر قطرة. والحقيقة أن هذا الغش الديني لم يظهر في أي ديانة مصرية على طول التاريخ ولا حتى على يد ست إله الشر.

5- السخرة. كانت عمليات بناء قصور الإقطاع والكنائس الخاصة به في إقطاعيته يقوم بها الفلاحون بالسخرة. الحقيقة أنهم كانوا يقومون بكل الأعمال طول بالسخرة، أي بدون أجر إلا ما يتركه لهم الإقطاعي لكي يقتاتوا به ليكونوا قادرين على الاستمرار في البقاء والعمل هم وأولادهم، فهم - بحكم القانون - ممنوعون من مغادرة الأرض مهما كان الظلم. والعمل بالسخرة عرفته مصر في بعض أوقات التاريخ. ولكنها كانت أوقات قصيرة استثنائية انتهت بالتصدي لها والثورة عليها. ولم تكن أبدًا شكلاً اجتماعيًا للإنتاج، ولا حتى في مصر الفرعونية. وأهم وأشهر فترات السخرة هي بدايات العمل في شق قناة السويس. حيث حاول ديليسيس الفرنسي تطبيق مبدأ السخرة الأوروبي على حافري القناة. ولكن هذه الفعلة

ووجهت بتصدد عارم فاضطر الخديو لإلغاء السخرة استجابة
لرفض الشعبي العارم والذي كاد يهدد كل شيء.

القناعة المنتشرة في مصر والعالم أن التاريخ المصري تاريخ ملوك
طغاة مؤلهين وشعوب مسكينة مقهورة، وأن التاريخ الأوروبي
تاريخ شعوب ديمقراطية، يقرب الحقائق تمامًا، فالعكس تمامًا هو
الصحيح. فتقافة الاستسلام لتأليه البشر، والتي انقضت من الشرق
ومن مصر مبكرًا جدًا (بالتحديد قبل عصر الأسرات) مازال لها
وجود قوي في الثقافة الأوروبية. بل من الممكن القول أن تأليه
البشر هو ظاهرة أوروبية أكثر منها عربية. وهذا واضح تمامًا في
الألفاظ التي كانت تطلق على الأرستقراطية الأوروبية، فكما ذكرنا
فقد كان ولا يزال يطلق على الأرستقراطي لفظ (لورد) وهو يعني
(إله). وكلمة اللورد كرومر تعني الإله كرومر، ولكنهم لم يترجموا
هذه الكلمة إلى العربية، فلو كانوا قد ترجموها لما استطاعوا البقاء
في مصر يومًا واحدًا، لأن من المستحيل على المصريين أو العرب
قبول إله آخر غير الله (مسلمين ومسيحيين)، وهذا بخلاف الشعب
الإنجليزي والشعوب الأوروبية التي قبلت هذا آلاف السنين
وما زالت إلى حد ما تقبله إلى الآن. ولكن الأثريين الأوروبيين
يحاولون بكل الطرق قلب الآية تمامًا بهدف تصوير أن روح
التحرر ليست شرقية بل غربية، وعن طريق اختلاق مصطلحات
مثل (Orientalische Dispute) وهو يعني (الغرائزية الشرقية)
ويتخذونه كسمة تجمع ملوك الشرق تعطي الوهم بأنهم بشكل خاص
يميلون للبطش والعنف والغرائزية.

ولتبيان حقيقة العلاقة بين الشعب المصري والسلطة سنتعرض
للنقاط الآتية

القصص القديمة ودلالاتها. القانون المصري ودلالاته. بعض
نصوص القوانين. نموذج لمحاكمة بعض مظاهر الصدام بين
السلطة والشعب وكيف انتهت.

قصص ذات دلالة

الفلاح الفصيح⁶⁰

وقصة الفلاح الفصيح حدثت في الأسرة العاشرة. وكان بطلها فلاحًا اسمه "خو إن أنوب" في وادي النطرون وأراد التجارة ببعض محاصيله في إهناسيا وكانت زوجته قد أعدت له زاده وحمل كل ذلك على حميره. وعندما اقترب من العاصمة إهناسيا رآه "تحوتي نخت" عمدة المكان والذي كان صديقًا لشخصية كبيرة ذات حيثية من رجال البلاط اسمه "رنسي بن مرو" وكان هذا الشخص أيضًا قاضي المنطقة. ويبدو أن "تحوتي نخت" تصور أنه من خلال علاقته بهذه الشخصيات يستطيع تجاوز حدوده مع الآخرين فسولت له نفسه الاستيلاء على حمولة الفلاح الفقير. جلس "تحوتي نخت" في الطريق يأكل فارشًا على الطريق قطعة من القماش تمتد من نهر على أحد الجوانب إلى حقوله الخاصة التي كانت على الجانب الآخر. فلما طلب منه الفلاح أن يفسح له الطريق رفض متعللاً

⁶⁰ النص الكامل لهذه القصة منشور في :

F. Vogelsang and A.H. Gardiner, die Klagen des Bauern.

وهناك ترجمات عربية لها في مصر الفرعونية لأحمد فخري، تاريخ الحضارة الفرعونية، الجزء الأول، مكتبة النهضة.

بحريته الخاصة في الجلوس والأكل. فاضطر الفلاح إلى النزول إلى حقول "تحتوي نخت" وأكلت الحمير من بعض الشعير المزروع. فانتهز العمدة الخبيث الموقف وأمر بالاستيلاء على أملاك الفلاح بحجة اعتداء حميره على حقول العمدة. قرر الفلاح "خو إن أنوب" أن يشكو إلى القاضي "رنسي" في العاصمة. وانهقد مجلس قضاء ولكن المجلس لم ينصف الفلاح، بل يبدو أن رنسي مال إلى تصديق ادعاءات صديقه تحتوي نخت على ادعاءات الفلاح فلم ينصفه. لم يسكت الفلاح "خو إن أنوب" وكتب خطابات تظلم إلى القاضي "رنسي" الذي اضطر أن يرفعها للملك "نبا وورع، أو أختوي الخامس" آخر ملوك الأسرة العاشرة. أعجب الملك بالخطابات وأمر بالعناية بأسرة الفلاح وأولاده ولكنه أمر أيضا بعدم إعطاء الفلاح حقوقه حتى يستمر في الكتابة وذلك اعترافا من الملك بالأهمية السياسية لهذه الخطابات. وكانت الخطابات تتحدث عن مسئولية الحاكم في الدفاع عن المظلومين وتحقيق العدالة، وجاء في أحد الخطابات أن لا طاعة لملك لا يتحقق العدل في عهده. وفي الخطاب الأخير كتب "خو إن أنوب" إنه يفضل الموت على أن يعيش مقهورًا مظلومًا وأنه سوف يشكو للإله وزير (أوزيريس) الظلم الذي وقع عليه في عهد هذا الملك. وعندها استدعاه القاضي "رنسي" أن يقيم ويأكل معه ريثما يقابل الملك ليأخذ حقه، فرفض "خو إن أنوب" بلباء أن يأكل أو يقيم مع القاضي الظالم. ولكن القاضي أطلعه على كل رسائله، وأعلن إعجابه بها وأخذه إلى الملك ليرد له حقوقه، ولكن الفلاح "خو إن أنوب" رفض قائلا إن العدالة التي تأتي متأخرة ليست عدالة. فشرح له الملك أن التأخير كان بسبب رغبة الملك في زيادة خطابات الشكوى لنشرها وأنه كان يقوم طول الوقت برعاية أسرة الفلاح المظلوم. فرضى الفلاح وتقبل حقوقه التي أعيدت إليه مع تعويض سخى عن الظلم الذي وقع عليه.

كانت هذه القصة تستخدم كقطعة إملاء في مدارس تعليم القراءة والكتابة للتوعية بحقوق المواطن أمام الملك والسلطة.

نستطيع أن نستخلص من هذه القصة ما يلي:

- 1- يبدو أن السلطات في الدولة الوسطى التي ظهرت نتيجة للثورة كانت حريضة إلى حد كبير على إحقاق العدالة.
- 2- نلاحظ أيضًا أن درجة الوعي ورفض الظلم وروح الثورة كانت منتشرة عند المواطنين في الدولة الوسطى بشكل ربما يفتقد في بعض المجتمعات.
- 3- أن مفهوم السلطة قد تحدد ليس في السلطة المطلقة التي تفعل ما تريد، بل بالسلطة المشروطة بتحقيق العدالة وخدمة المحكومين والسهر عليهم. وهي درجة غاية في التطور.
- 4- أن الملوك المصريين بعد الثورة كانوا حريصين على نشر الوعي السياسي لدى الجماهير وليس نشر الخنوع وذلك عن طريق تدريس هذه القصة للنشء في مدارس تعليم القراءة والكتابة.
- 5- كما نستخلص من القصة ظاهرة انتشار القراءة والكتابة حتى على مستوى الفلاحين البسطاء.

الكاهن ددي والملك خوفو

من القصص ذات الدلالات هي القصص التي كانت تحكى عن الملك خوفو. ورغم أن هذه القصة فيها بعض المبالغات فإنها ذات دلالات مهمة جداً.

فيقال إنه كان يعيش في عهد الملك خوفو ساحر عجوز اسمه "ددي" وصل من العمر 120 سنة. ويقال إن هذا الساحر "ددي" كان يأكل يومياً خمسمائة رغيف من الخبز وفخذ ثور من اللحم ويشرب مائة إناء من الجعة. وكان يقال إن "ددي" كان يستطيع أن يعيد رأساً مقطوعاً لكائن حي إلى مكانه ليعيش مرة أخرى. ويعرف كيف يجعل الأسد يسير خلفه يتبعه بدون مقود. كما كان يعرف سر مغاليق هيكل الإله تحوت⁶¹. فأرسل له خوفو ابنه "حور ددف" لكي يحضره فقد كان خوفو شغوفاً بمعرفة أسرار المغاليق الخاصة بمعبد تحوت. وعندما وصلا إلى القصر العظيم لخوفو استقبله خوفو بحفاوة وسأله لماذا لم يحضر من قبل فقال الساحر إنه يحضر فقط عندما يتم استدعاؤه. فسأله خوفو عن قدراته في إعادة الرأس المقطوع إلى مكانه وعن معرفته لسر مغاليق معبد تحوت، فقال الساحر إنه لا يعرف سر مغاليق معبد تحوت ولكنه يستطيع إعادة الرؤوس المقطوعة. فأمر خوفو بإحضار عبد أسير لتقام عليه التجربة، ولكن الساحر اهتزت مشاعره لهذا العمل المؤسف ونهر خوفو محاولاً منعه عن هذه الفكرة وقال له:

"لا تقتل كائنًا بشريًا. فمن المحرم تجربة مثل هذه الأمور على قطيع الله".

⁶¹ يبدو أنه كانت هناك أسطورة أخرى عن هذه المغاليق التي كانت أعجوبة في ذلك الوقت في هيكل الإله تحوت.

وطلب الساحر أن يقوم بالتجربة على حيوان. فأحضروا له إوزة وقطعوا رأسها ووضعوا الجسم في الناحية الغربية والرأس في الناحية الشرقية. فتحرك جسد الأوزة ورأسها حتى تلاقيا معاً. وكرروا نفس التجربة في بطة ثم ثور فنجح الساحر "ددي" في كل هذا. أما بالنسبة لمغاليق معبد تحوت فقال له الساحر إنها موجودة في إحدى قاعات معبد "أون". وأن الوحيد الذي يستطيع أن يحضرها هو أكبر ثلاثة أبناء حملتهم أمهم من الإله رع وهي زوجة لكاهن اسمه "سخبو". وقال "ددي" لخوفو إن الإله رع بشر المرأة بأن أولادها سيحكمون مصر. فحزن خوفو وخاف على عرشه، ولكن "ددي" أخبره مطمئناً بأن هذا سيحدث بعد أن يحكم ابنه وحفيده.⁶²

من هذه القصة نستخلص ما يلي:

- 1- أن التضحية بالبشر كانت محرمة في ذلك الوقت.
- 2- أن القتل بدون سبب كان ممنوعاً حتى على الملوك.
- 3- أن مشيئة الملك ورغباته لم تكن مطلقة بل مشروطة بشرعيتها.
- 4- أنه من الممكن جداً نهر الملوك والاعتراض على قراراتهم ورغباتهم إذا كانت غير مشروعة.
- 5- رغم أن خوفو كان يعتبر أكثر الملوك المصريين قوة وجبروتاً، كما كان أكثرهم احتراماً من الملوك الذين تلوه ومن المعدودين الذين كان الملوك الآخريين يتشبهون به فإن شخصاً قروياً كسر أوامره وصحح آراءه.

⁶² هذه القصة واحدة من مجموعة قصصية وجدت في بردية تسمى بردية ويتكار وهي منشورة في Armanm, Die Merschen des Papyrus Wesrter-Mittheilung a.d. Oriental. Simmel. D. Kongl. Museen, Bd V. VI, Berlin. كما نوه عن هذه القصة أيضاً الكاتب نيقولا جريمال في كتابه المترجم للغربية تاريخ مصر القديمة، ص. 87.

- 6- ولأن هذه القصة كانت تلقى في المدارس كإملاء فهذا يدل على أن الدولة كانت مهتمة ليس في نشر تعاليم الطاعة العمياء والولاء الكامل بل تعاليم احترام الإنسان حتى ولو كان على حساب سلطان الملك.
- 7- لو قارنا هذه القصة بما كان يقوم به الأباطرة الرومان بعد هذا الزمن بألفي عام من إلقاء المحاربين في قتال ومذابح حتى الموت لمجرد التسلية، لوجدنا الفارق الضخم والتراجع الخطير الذي أصاب البشرية والإنسان في الفترة الرومانية عنها في الفترة المصرية.

صاحب الجلال وصاحبة الدلال

ليس هذا هو الاسم الحقيقي للبردية بل اسما أعطيته لها. فالأثريون يسمونها (سنفرو وفتيات القصر)، ولكن لما لهذه البردية من جمال شاعري رأيت أن أسميها بما يتناسب معها.

يحكي هذه القصة الملك خوفو لابنه الأمير باون رع عن أبي خوفو الملك سنفرو.

استيقظ جلالة الملك سنفرو يوما بمزاج عكر دون أن يعرف لذلك سببًا. استدعى رجال القصر وطلب منهم أن يبحثوا عن شيء يشرح صدره، فحاولوا جهدهم ولكن ظل الملك مكتئبًا. أخيرًا أمر بأن يستدعوا له كبير الكهنة (زازا- أم-عنخ). فلما جاء حكا له الملك عن ضيقة صدره واكتتابه. فكر الكاهن (زازا- أم-عنخ) واقترح أن ينزل الملك إلى بحيرة القصر في قاربه الخاص، وأن يتم اختيار البحارة من الفتيات الحسنوات اللاتي لا يليسن إلا شباكا على أجسادهن الجميلة. وقد كان. فنزل الملك في هذا القارب المليء بعشرين فتاة من الحسنوات يجدفن بأجسادهن الجميلة التي تتحرك تحت الشباك ويغنين أغاني جميلة والقارب يسير ويتميل مع أصواتهن على الأمواج بين الخضرة وأعشاش الطيور والمياه النقية ونسائم الهواء الرطبة الجميلة. طبعي أن بدأ الانسراح يتسلل إلى قلبه.

ولكن حدث بعد ذلك أن توقفت إحدى الفتيات على أحد جانبي القارب عن التجديف والغناء. فتوقف معها كل الصف الذي يجدف معها. وذلك لأن مشبك على شكل سمكة من الفيروز كانت معلقة في جدائل شعرها الجميل سقطت إلى الماء. فحزنت توقفت عن الغناء والتجديف. ولما اقترب منها جلالة الملك وسألها عن سبب

توقفها أخبرته بسقوط المشبك في البحيرة. فطلب منها أن تستمر وأنه سيعطيها هدية أعظم منها. ولكن الفتاة رفضت عرض الملك وذكرت أنها لا تريد إلا حليتها ولا تقبل أي بديل عنها. فأمر الملك أن يحضروا له الكاهن (زازا-ام-عنخ). فلما وصل الكاهن ذكر له جلالة الملك ما حدث، وأمره أن يفعل كل ما في مقدراته ليجد حلية الفتاة. ألقى الكاهن شيئاً من السحر في المياه جعل نصف ماء البحيرة يعلو فوق النصف الآخر فأصبح ارتفاع ماء البحيرة في هذا القسم أربعة وعشرين ذراعاً والنصف الآخر فارغاً. ورأوا الحلية في القاع وقد استقرت على قطعة مكسورة من الفخار، فأشار إليها الكاهن فارتفعت إليه وسلمها إلى الفتاة. وكافأ الملك الكاهن (زازا) مكافأة سخية. وعادت الفتاة للغناء والتجديف.

هذه القصة الجميلة تدعو إلى وقفة للتحليل.

أولا الاختيار الرومانسي للكاهن لكي يفرج عن صدر الملك. فالكاهن لم يذهب إلى الصلاة، ولم يدع الملك للصلاة لينشرح صدره كما يفعل رجال الدين في كل العصور، ولم يأمر بذبح القرابين للآلهة لتفرج عن الملك، ولم يأمر بإحضار القزم المسلي. بل اختار موقفاً يقطر رومانسية وجمالاً، وهو الفتيات يلبسن الشباك ويجدفن ويغنين في قارب يتمايل ويتهادى بين الطيور والنباتات والزهور. الحقيقة أن هذا الكاهن يفكر كشاعر أو فنان حقيقي. وفكرة أن يلبس الكاهن الفتيات مجرد شباك على أجسادهن ليست اللجوء إلى فعل داعر لإرضاء شهوات الملك؛ وذلك لأن الفتيات كن يلبسن عادة في هذا العصر ثياباً شفافة تكشف الجسم. ولهذا فكان اقتراح الكاهن يخلو من الإباحية بالقياس لعادات العصر، بل هو مجرد استبدال الملابس الشفافة بالشباك الأكثر جمالاً ورومانسية.

ثم المدهش هو الفتاة التي تكف عن الغناء والتجديف وكيف معها صف كامل رغم أنها تعلم أنها تقوم بواجب ملكي وهو التفريج عن الملك الفرعون. والمدهش أيضاً أن الملك الفرعون لم يأمر بحبسها أو جلدها بل تقدم منها وسألها. الفتاة لم ترتعد أوصالها وينتابها الرعب وتطلب المغفرة والعفو وتبدأ بسرعة في استكمال التجديف، بل قالت له بكل بساطة إنها توقفت؛ لأن حليتها سقطت منها في المياه. أتصور أنها حكّت له والدموع الرقيقة تنساب من عينيها. والملك الفرعون سنفرو لم يهتج ويصرخ ويأمر بعقوبة الفتاة التي تجرأت وتوقفت عن الغناء للملك لهذا السبب، بل رق قلبه لها ووعدها بهدية ملكية أعظم مما فقدته. كان المتوقع أن تركع الفتاة وتقبل قدمي الملك شكراً على الهدية الملكية وأن تستمر في التجديف، ولكن الجميل والممتع أن الفتاة رفضت الهدية الملكية التي هي بالتأكيد تساوي أضعاف حليتها قيمة بالإضافة إلى أنها هدية من الملك الفرعون نفسه، وأخبرته ببساطة أنها ترفض؛ لأنها تحب حليتها وتفضلها على هدية الفرعون ولا تقبل لها بديلاً من أحد، واستمرت في الامتناع عن التجديف والغناء. كان سيكون من الطبيعي جداً أن يصرخ الملك في هذه الفتاة التي ترفض التفريج على الملك وترفض هديته وترفض التجديف والغناء حزناً على حلية من الفيروز، ولكن الذي حدث أن الفرعون سنفرو لم يستطع إلا أن يرق قلبه ويلبي طلبها ويرسل لإحضار كبير الكهنة وطلب منه أن يفعل أقصى ما يستطيع لتلبية رغبة الفتاة. و أنه سيكافئه كثيراً إذا استطاع تحقيق أمنية الفتاة. ففعل الساحر فعله وأقام البحيرة رأساً على عقب، وأخرج الحلية للفتاة، التي سعدت واستمرت بعد ذلك في التجديف والغناء. ما أجمل الدلال حتى أمام الفرعون الذي خر قلبه صريعاً ليلبي رغبة فتاة، ليمسح دموعها ويرى الابتسامة على وجهها.

ترى ماذا سيكون مصير فتاة اليوم ترفض القيام بعمل يطلبه
منها الملك أو حتى رئيس ما، بل وترفض هديته لمجرد فقدان
حلية من الفيروز؟

عندما يقرأ المرء هذه البرديات يكتشف أنه أمام شخصيات
تقطر عذوبة ورومانسية من الملك حتى أقل الشخصيات. وأهم
ما في الأمر أن هذه البردية تظهر أن هذه القصة يحكيها الملك
خوفو لابنه عن الجد سنفرو، كأنه يعلمه كيف يكون رقيقاً عذباً
مع الناس. وخوفو هو أكثر ملوك مصر قوة وجبروتاً كما سرد
عنه هيرودوت اليوناني.

ظروف العمل

بناء الأهرام

وقع اختيارنا على الهرم الأكبر كموضع للتحليل لأنه أكبر وأضخم بناء في التاريخ القديم في العالم.

بني الهرم الأكبر عام 2580 ق. م. وقد بني الهرم من حوالي 2,3 مليون حجر يزن كل منها 2,5 طن. وقاعدته مربعة الشكل طول كل ضلع فيها حوالي 230 مترًا، وارتفاعه 147 مترًا. واستغرق بناؤه كما ذكر هيرودوت حوالي 10 سنوات. ضخامة الهرم وعظمته جعلت البعض ينظر إليه على أنه رمز للطغيان والاستبداد. وأن من قاموا ببنائه فعلوا ذلك قسرًا وظلمًا بالسياسة والسخرى والاستعباد. وهذا التصور منتشر على مستوى العالم كله. بعيدًا عن الإبداع الهندسي والمعماري للمهندس (حم إيونو) سنحاول أن نحال حال عمال البناء لنرى هل كانوا عبيدًا؟ هل كانوا سخرة؟ وكيف كان حالهم؟

أولاً- ليس هناك أي دليل على وجود عبيد مصريين في هذا الزمن. كان هناك أسرى أجانب عوملوا معاملة العبيد. كما كان في مصر القديمة خدم أجانب من الممكن اعتبارهم عبيدًا ولكن كانت لهم حقوق يحميها القانون⁶³.

ثانيًا - ويعرف الجميع أن نظام الزراعة في مصر القديمة وحتى بناء السد العالي كان يمارس مرة واحدة في العام مع الفيضان. ويقعد الفلاح بعد ذلك طول العام بدون عمل. فجاء العمل في الهرم في هذا الوقت من السنة ليزيد من دخل الفلاح.

⁶³ انظر قوانين حور محب في هذا الفصل.

ثالثًا - وجد الأثريون آثارًا لوحداث صحية متخصصة لعلاج العمال المصابين في العمل أو الذين يمرضون. كما وجدت آثار تدل على مخازن قديمة للخدمة على العمال. مما يدل على أن الدولة كانت تهتم بتوفير الغذاء للعمال. من بعض الهياكل العظمية وجدت آثار كسور ملتئمة في الأذرع والسيقان. وطبيعة الالتئام يفسره المتخصصون أنه التئام نتيجة معالجة طبيعية صحيحة ومتطورة، وليس التئامًا مما قد يحدث بشكل عشوائي. ومن هنا استخلص الأثريون أنه كانت هناك متابعة طبية ذات مستوى عالٍ للعمال كدليل على الاهتمام بهم وبأحوالهم.

رابعًا - ومن أهم ما وجد هو كشوف مقسمة إلى خانات متعددة، فيها خانة للاسم، وخانة لعدد أيام الغياب، وخانة إن كان سبب الغياب مقبولاً أو غير مقبول. مما يعني أن الغائبين كانوا يسجلون ويسجل عدد أيام غيابهم، وأن بعض أسباب الغياب كانت تقبل أي يدفع لها أجر وأسباب كانت ترفض أي لا يدفع لها أجر. ومن أجمل الأسباب، التي ذكرت لغياب أحد العمال كان الاحتفال بعيد ميلاد ابنه. وللأسف لم تكشف القائمة التي وجدت إن كان هذا العذر قبل أم لا؟ ونحن لنا هنا وقفة.

طبعًا الاحتفال بعيد الميلاد الابن لا يكون في تقاليد العبيد، بل هي من تقاليد طبقة على درجة من بحبوحة العيش والفكر. حتى أنه من غير المعتاد أن يحتفل فلاحو مصر الحاليون بأعياد ميلاد الأبناء. يظل هذا العيد حاليًا مقصورًا على فئات من المدينة تتمتع بقدر مرتفع ماديًا وثقافيًا. واللافت للنظر أن العامل أعطى هذا العذر وأن هذا العذر سجل في القائمة. ولنا أن نتصور أن عاملاً ما أو حتى موظفًا تأخر عن العمل وأعطى المشرف هذه الحجة لكان ذلك مثاراً للسخرية، والتندر

إن لم تكن فضيحة. ولكن أن يذكر العامل في الهرم هذا العذر
وأن يأخذ بشكل جدي ويسجل فهذا يعني أن هذا التقليد كان
متبعًا ومعروفًا ومعتبرًا وليس مجال سخرية.

ليس من المنطق إطلاقًا أن نتصور أن الهرم في ظل هذه
المعطيات بني بالسخره أو من عبيد، بل كان عملاً مجزيًا
لأحرار يعاملون معاملة لا نستطيع انتقادها إنسانيًا أبدًا.

الثورة الشعبية الكبرى

أول ثورة في العالم

رغم ذلك التطور النسبي في الدولة القديمة فإنه في الأسرة السادسة أي في العام 2280 ق.م. قامت ثورة عظيمة غيرت الكثير في شكل الدولة ومفهوم الملك والحاكم والمحكوم. والعجيب في الأمر أن هذه الفترة تسمى بعصر الانتقال الأول وتسمى أيضاً في الأدبيات الأوروبية بفترة الفوضى حتى لا تثير إلا الاشمئزاز بدلاً من الاحترام. وحتى يتم سحب أي بعد إنساني تطوري منها. ومما يدعو للحزن أن هذه الفترة تدرس في مصر بنفس الشكل على أنها فوضى ضارة وليست ثورة مهمة في التاريخ الإنساني⁶⁴. وقد تم في هذه الثورة إسقاط كل هيبة عن الملوك واعتبارهم بشراً عاديين. وهي كانت شعارات يتناقلها الثوار. وقد حدث أنه صعدت طبقات جديدة وسقطت الطبقات القديمة وتغير شكل الحكم تماماً.

وسوف نعرض هنا بعض المقطعات - وهي للأسف بسيطة جداً- التي تصف هذه الثورة العظيمة:

يقول شخص يسمى "ايبور ور" وهو شخص غير معروف⁶⁵:

"وقعت أحداث لم نسمع عنها منذ ظلمات الماضي السحيق. إذ قامت الغوغاء بخلع الملك. والذي دفن باسم الصقر انتزعوه من تابوته. لقد نهبت حجرة الدفن وسلب ما بها. ووصل الأمر إلى الحد الذي قامت زمرة من الأفراد تجهل كل شيء عن أمور الحكم- بتقويض

⁶⁴ الحق أن د. أحمد فخري تعامل مع هذا الموضوع بقدر عالم من الاحترام، وذكر الكثير عن الثورة المصرية.

⁶⁵ هناك تلخيص لا بأس به في كتاب أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص 160.

النظام الملكي في البلاد. دخلوا القصر وأخذوا الملك. لقد انتهكوا المقدسات ودمروا أجساد الملوك الموتى. لقد قوضوا بنية الهرم الكوني فتصدع وتهاوى وأصبحت مصر عالمًا مقلوبًا رأسًا على عقب. انقلبت البلاد إلى عصابات، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم. وأضرب الناس عن دفع الضرائب. وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوا وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها، بل إن الملوك المدفونين قد اعتدي عليهم أيضًا وبعثرت أشلائهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها. وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وأحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون. بينما كان الشعب يفرح ويحتفل. وأصبح الذين كانوا يملكون الخدم يسرون في أسمال بالية. وأولئك الذين لم يملكوا شيئًا يرفلون في ملابس من خير أنواع الكتان. والأصلع الذي لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأواني الملية بخير أنواع العطور. وأن الذي لم يمتلك صندوقًا صغيرًا في حياته أصبح مالكا لصندوق كبير، والفتاة التي كانت تذهب إلى الماء لتري وجهها فيه أصبحت مالكة لمرأة، وأن الحمقى كانوا يرددون لو أعرف أين يقيم الإله لقدمت له القرابين⁶⁶.

نلاحظ أن كاتب هذه العبارة وإن كان شخصًا غير معروف فإنه بالتأكيد كاهن ينتمي فكريًا إلى عهد ما قبل الثورة، رغم أنه عاش بعدها. أو أصبح يسمى في القاموس الثوري المصري بالفلول⁶⁷.

ورغم المعلومات البسيطة التي وصلتنا عن هذه الثورة فإننا نلاحظ تغييرات اجتماعية عميقة كالاتي.

⁶⁶ النص الكامل للبردية في نهاية هذا الفصل.

⁶⁷ هذه البردية موجودة في متحف ليدن بهولندا. وقد ناقشها بريستيد في كتابه:

J. H. Breasted (The Dawn of Covscience, new York 1933.

ويبدو من البردية السابقة أن الثورة أحدثت تغييرًا شديدًا في الطبقات. وأن الطبقات القديمة الحاكمة قد حدث فيها تغيير عظيم. وأن فئات أخرى جديدة ظهرت. ربما لا يستطيع أحد أن يؤكد أنه كان هناك تنظيم محدد يخطط للتغيير وللاستيلاء على السلطة لتحسين الأوضاع الاجتماعية، ولكن من الواضح أنها كانت انتفاضة شعبية جامحة تبلورت بمرور الوقت عن نظام حكم مختلف عن السابق. ومن الممكن تحديد بعض مظاهر التغيير في الآتي:

1- بدأت طبقة من الأعيان تشترك مع الملك في الحكم وهذا يعتبر أول مجلس شورى في التاريخ، وهو يمثل بذرة التحول الديمقراطي الحقيقي وكان قريب الشبه بمجلس الشورى الذي شكل في عهد محمد علي سنة 1829.

2- كانت أول دعوة للمساواة الكاملة بين البشر، حيث أصبح لكل مصري الحق في التحنيط والالتحام بالإله أوزير كالملك تمامًا، بعد إن كان هذا الحق مكفولاً للملك والأسرة الحاكمة ولا حق للشعب فيه.

3- ظهور الإقطاع وحق الفرد في ملكية الأرض بعد إن كانت ملكية الأرض هي حق مقصور على الملك نفسه. وهو النظام الذي كان معروفًا في أوروبا حتى الثورة الفرنسية.

إضرابات ومظاهرات

متابعة التاريخ المصري بعد الثورة الكبرى تؤكد حدوث طفرة كبرى في الوعي. ومن أهم ظواهر هذه الطفرة هو اندلاع موجة من الإضرابات في الأسرة 20 في عهد رمسيس الثالث بعد أن تأخر الملك في دفع رواتب العمال والموظفين. سنة 1195 ق. م. فتوقف العمال عن العمل حتى أتاهم الوزير وطلب منهم الوزير الاستمرار في العمل فأجابوه:

"إذهب أنت والملك أكمل العمل".

بل إن الدكتور أحمد فخري ذكر أنه كانت هناك إضرابات متعددة. ووصلت الأمور إلى حد الهجوم على مخازن الملك نفسه للحصول على الحقوق عنوة⁶⁸. بل إن نفس الكاتب يتحدث عن مظاهرات أمام معبد مرنبتاح أمام عمدة المدينة تطالب بالحقوق المسلوبة مما اضطر العمدة لفتح المخازن بشكل مفاجئ وبدون تصريح من السلطات العليا لإعطاء العمال غلالاً وقمحاً ريثما يحصلون على حقوقهم من الملك مما أثار حفيظة الكهنة الذين أرسلوا يشكونه إلى الفرعون. بل إن أحد وزراء رمسيس الثالث حاول القيام بثورة ضده تعاطفاً مع العمال ولكن الثورة فشلت. واستمرت الإضرابات حتى حصل العمال على مستحقاتهم. وتم دفع رواتب للعمال حتى على شهور الإضراب.

على ماذا تدل هذه الواقعة؟

⁶⁸ أحمد فخري، مصر الف. عونية، ص 376 .

- 1- أن الادعاء القائل بأن العمل كان يتم في مصر القديمة بالسخرة هو تزييف أو جهل بالواقع.
- 2- أن ظاهرة الإضراب معروفة وطبيعية لأن رد فعل الملك كان إرسال وزير للتفاوض وليس الجيش أو الشرطة للقمع وهو ما كان يحدث في كل العالم حتى بداية القرن العشرين. بل وما زال يحدث حتى الآن في بعض الدول.
- 3- أن الإضراب كان معترفاً به كحق طبيعي للإنسان وذلك لأن العمال حصلوا على أجر لشهري الإضراب.
- 4- أن مصر قد عرفت المظاهرات منذ أقدم العهود. والتظاهر هو أحد مظاهر الإيمان والوعي بالذات وبحقوقها المشروعة.
- 5- أن حركة التطور الاجتماعي كانت قد أفرزت قيماً ومبادئ لحقوق الفرد والعمال كانت قد وصلت إلى درجة عالية جداً تجاوزت حدود سلطة الملك وأصبحت أقوى منها، وذلك لأن العمال قد انتصروا في هذا الصراع مع الملك.
- 6- أنه لا بد من تأمل هذه الظاهرة المبكرة جداً والتي لم تصل إليها البشرية إلا في العصر الحديث، مما يجعلنا ننظر إلى فلسفة التاريخ بشكل مختلف. فعادةً ينظر إلى التاريخ الاجتماعي على أنه تطور في خط مستقيم متصاعد دائماً، أي تقارب مستمر في الطبقات على الطريقة الماركسية، أو تطور مستمر في الديمقراطية. ولكن التعامل مع التاريخ المصري يجعلنا نضطر إلى طرح فكرة مختلفة وهي أن التطور الاجتماعي قد يصل إلى ذروته من خلال التطور الطبقي والتطور الديمقراطي ثم يتراجع فجأة مرة أخرى. ولكن لهذا حديث آخر.

الثقافة والفكر غير المطروق

بسبب حرق مكتبة الإسكندرية فقدنا كل كتب الفلسفة والفكر المصري القديم؛ ولذلك لم يعد أمامنا سوى بعض من مانيتون الذي لم يكتب إلا تاريخ الأسرات، وبعض الشقائق الفخارية كدروس إملاء وبعض البرديات المعودة وما كتب في المقابر والمعابد. وطبعًا ما كتب في المقابر والمعابد ليس إلا كتابات جنازية لشخص في طريقه لمقابلة الآلهة. وما كتب في معابد الآلهة ليس غالبًا سوى ما يرضي الآلهة. والذي يحكم على الثقافة المصرية من خلال المقابر والمعابد هو كمن يبحث عن مصر الحالية من خلال ما يتردد في الجنازات وخطب الجمعة. فلن نجد لا نجيب محفوظ ولا أم كلثوم، ولا يوسف شاهين، ولا أحمد زويل. ولكنه بالتأكيد سيجد الشيخ الشعراوي والشيخ مصطفى إسماعيل وطبعًا رئيس الجمهورية. وهذا ربما ما تبقى لنا من تراثنا المصري القديم. ولهذا فإن ما نجده من برديات قليلة مثل: (بردية ددي)، أو (الفلاح الفصيح) أو (صاحب الجلال وصاحبة الدلال) يعتبر إشارات لشيء عظيم مختلف ومغاير تمامًا لثقافة المعابد والمقابر. ولهذا فهذه الإشارات البسيطة ذات أهمية كبيرة لكشف الجانب الذي اختفى وحرق من الثقافة المصرية.

ونحن سنقف قليلاً أمام نصين قصيرين للأسف الشديد ولكن في غاية الدلالة.

الأول ما ذكره (إيبور ور) كاتب البردية المشهورة عن الثورة، عن فلسفة وفكر من قاموا بالثورة الكبرى. فقد اهتم الرجل اهتمامًا بالغًا بالأحداث الجسام ورصدها وسجلها ببراعة، ولكنه لم يكتب عن فكر الثوار سوى عبارة واحدة غاية في الأهمية فقال:

" وأن الحمقى كانوا يرددون لو أعرف أين يقيم الإله لقدمت له
القرابين".

هذا يعني أن الثوار لم يعترفوا بالآلهة. والعبارة لم تظهر حقًا أو حربًا أو سبًا للآلهة، بل تتحدث عن فكرة موضوعية وهي أنه لو ثبت الأمر لآمنا به. وهي يبدو أنها ليست مأخوذة من جمل حماسية عاطفية ثورية، فالعبارة تفتقر لهذه الروح. لكن يبدو أنها مأخوذة من حوار ذي بعد منطقي لأنها منطقية. مما يشير إلى وجود فكر ما مختلف بل ومتناقض تمامًا مع الرسائل التي تصل إلينا من القبور والمعابد. ومما يؤكد هذا الرأي ويدعمه بقوة أن الثوار هاجموا المقابر دون عمل أي حساب للآلهة أو عقاب أو انتقام من السماء. والعبارة تعني ببساطة أنه كان هناك توجه فكري مع الثورة يشكك في وجود الآلهة لأسباب عديدة، ربما أن أهمها أنها الحامية للنظام القديم الذي كان لا بد من تغييره. وربما أن السبب الآخر أنه كان توجه لطرح فكرة تفسر الكون والحياة عن طريق آخر غير طرق الآلهة.

هناك قصيدة غاية في الأهمية ظهرت في مقبرة الملك إنيوتف الأول في الأسرة الحادية عشرة، والتي استتب الأمر في النهاية على يديها. (حوالي 2134 قبل الميلاد) وهي رسم غائر لعازف قيثارة أعمى وقصيدة منقوشة جانبه، وكان من ضمنها أبيات بتقول: " عليك أن تتبع قلبك وهواك ورغباتك ... حتى أن تأتي لحظة الرحيل .. على أرض الصمت النهائي"

وفي هذه القصيدة تنكر كامل لفكر الديانة أصلاً. فهي تدعو أن يعيش الشخص لنفسه يتبع هواه غير عابئ لا بمحاكمة ولا بأخرة. وتصف الموت بأرض الصمت النهائي وليس بالعالم الآخر المليء بالحركة والأحداث ومحاكمة وزير (أوزوريس).... إلخ، بل تصفه كما يصفه غير المؤمنين بالأديان بالصمت. وهذا يعني أنه بالإضافة للفكر الديني الذي تزفه لنا المقابر والمعابد كان هناك فكر آخر غير ديني، بل دنيوي مادي تمامًا اختفى في ظلمات الماضي السحيق.

نظرة على القانون المصري

من المهم جداً لدراسة الوضع الاجتماعي في مصر القديمة التعرف على القانون المصري القديم . فرغم عدم اكتشاف الكتب العشرة التي تمثل التشريعات المصرية فإننا نستطيع الحكم على القانون المصري القديم من خلال بعض المحاكمات المدونة كشرية حور محب، أو نصوص الأخلاق أو كتاب الموتى وما كتبه هيرودوت وتيودور الصقلي في هذا المضمار. فقد كتب رودلف دارست "لقد نظمت الحياة المدنية في مصر القديمة. فأعلن الملك بكوريس أو (باك إن نتف) الأسرة الرابعة والعشرون 715-730 ق.م. مبدأ حرية التعاقد. وقامت عقود الزواج على أساس حرية الطرفين. بل كان من حق المرأة الاشرطاط في عقد الزواج. بل كان الزوج ملزماً بتقديم ما يحدده في عقد الزواج إلى زوجته كعاش شهري أو سنوي أو يومي كما يحدد العقد. ونتيجة منطقية لهذه الحرية المدنية عرف الطلاق والتعدد"⁶⁹.

بناءً على ما سبق نجد أن المرأة كانت تمتلك كافة الحقوق التي تستمتع بها اليوم وهي:

حق اختيار الزوج، حق الاشرطاط في عقد الزواج، الزمة المالية المنفصلة، حق الطلاق. وهي حقوق أعطاها الإسلام للمرأة المسلمة فيما بعد وحقوق لم تحصل عليها المرأة الأوروبية إلا في القرن العشرين.

⁶⁹ Rodolphe Dareste, Etudes d histoire du droit ; Paris, 1889, 8 F 31625 B.F.D., P. 2.

ومن اللافت للنظر أن قسم القضاة في مصر القديمة الذي كان ينص على ألا يطيع القاضي الملك إذا كان ظالماً أو كانت أوامره تتضمن هتكاً أو خرقاً للتشريعات. وهو كان قسماً يتلى أمام الفرعون نفسه. وكان الفرعون يصر عليه.

وهذا القسم يدعو أيضاً إلى التأمل والدراسة:

- 1- من المستحيل تصور ألوهية مزعومة للفرعون أمام هذا القسم. فلو كان الملك إلهاً لكان فوق القانون وليس القانون فوقه. ولكانت طاعته تسبق وتعلو على طاعة القانون وهو ما يتناقض مع القسم.
- 2- أن التعاليم والمبادئ المصرية كانت تحصن القاضي وتحذره وتحميه من الملوك الظالمين.
- 3- أن المبادئ والتعاليم المصرية كانت تنص على أن الطاعة للقانون والعدالة وليس للملك.
- 4- أن القانون والتشريعات كانت مكتوبة رغم أن ما وصلنا منه للأسف ليس الكثير.

وهناك نص آخر مهم يقول:

”إن الملك الفرعون إذا كان قد أخضع البلاد كلها لتشريعات الآلهة، فإنه هو أيضاً ملتزم بها⁷⁰“.

⁷⁰ Pierre Recueil, d inscriptions inedites du Musee Egyptien du Louvre, t. 1, p. 93.

وهذا النص أيضًا يدل على أن القوانين والتشريعات وإن كان يشرعها بعض الملوك أو الفلاسفة مثل أمنتحتب الفيلسوف والقاضي الكبير في الأسرة الخامسة إلا أنها كانت ذات صبغة إلهية (كما ينظر اليوم إلى قوانين الشريعة الإسلامية)، ولكن هذه القوانين كانت تطبق على الجميع بمن فيهم الملك نفسه. وهو ما يعزز مبدأ المساواة الذي أسسه المجتمع المصري القديم بالفعل.

فقد ذكر المؤرخ الصقلي الشهير تيودور:

*"إن الناس في مصر كانوا يعاقبون على أساس أفعالهم وليس على أساس ثروتهم"*⁷¹.

ويبدو من هذه الملاحظة لتيودور أنه قد تعود على مشاهدة عقوبات تطبق على الفقراء فقط أو قوانين تفرق بين الأغنياء والفقراء كما كان الحال في كل دول العالم القديم بما فيها اليونان وروما إلا مصر الفرعونية. وقد لفتت هذه الظاهرة نظر هذا المؤرخ الشهير. وكان تيودور قادمًا من اليونان إلى مصر.

ومما يدعو أيضًا إلى التأمل هو أن مصر عرفت إقرارات الذمة المالية، أي حساب ثروة الشخص قبل تعيينه في منصب هام كوزير مثلًا أو أي منصب آخر، ثم حساب ثروته بعد خروجه من المنصب. وهي درجة في غاية التطور. وقد أخذ اليونانيون هذا عن مصر⁷².

ومن أعظم الإنجازات المصرية في هذا المضمار هو مبدأ استقلال القضاء. وقد استدلت الباحثون على ذلك من خلال الآتي:

⁷¹ Josef Achnar, L instruction preparatoire et la Cour d Assises la legislation egyptienne indigine-avec une introduction sur le droit egyptien dans L antiquite, these, Montpellier, 1909, p. 15.

⁷² Mallet, Les premiers etablissement des grecs en Egypt, t. XII, fass T. p. 370.

- 1- أن القضاة كانوا يعينون أنفسهم بأنفسهم.
- 2- أن الفرعون لم يكن له حق التدخل في الأحكام وإن تدخل فمن الممكن رفض أوامره كما سبق وذكرنا في القسم القضائي.

- 3- أن أحكام القضاء تسري على الجميع بمن فيهم الملك.
- 4- كان دور الفرعون يقتصر على استقبال الالتماسات لتخفيف العقوبة، وكان غالبًا ما يدفع بالالتماسات إلى قضاة آخرين للبت فيها. وهو دور الرؤساء والملوك في الدول الحديثة.

وهذا أيضًا ما أعلنه عالم المصريات الفرنسي الشهير رولان بقول:
"لقد عرفت مصر مبدأ الفصل بين السلطات. أي أن مصر شنت
عن كل الأمم القديمة التي كانت تركز كل السلطات في يد الملك"
وقد أيدته في ذلك مونتسيكه ودي بو⁷³ وغيرهما.

الحقيقة أن دراسة القانون المصري القديم ووضع القضاء في الدولة يضعنا أمام حقيقة قوية الواضوح وهي أن التطور الاجتماعي في مصر القديمة كان قد وصل إلى درجة تدعو فعلاً إلى التعجب. فقد كان متجاوزاً لعدد من المجتمعات حتى في القرن الواحد والعشرين، وكان طبعاً متجاوزاً كل الحضارات المعاصرة له بل والتالية عليه خاصة الحضارة اليونانية والرومانية رغم ما يثيره علماء الغرب من ديمقراطية مفترضة فيهما.

⁷³ De Pauw, Recherches philosophiques sur les égyptiens, sect, IX.

نموذج لمحاكمة

سنعرض هنا نموذجًا لمحاكمة لتتعرف على الجرائم وعقوباتها،
وصلاحيات القضاة، الجدية والحرص على العدالة.

تم اختيار هذه المحاكمة لأنها ببساطة أكثر ما وصل إلينا من
محاكمات من ناحية الدقة. وهي محاكمة قتلة الملك رمسيس الثالث
في الأسرة العشرين.

رغم أن هذا الملك من عظماء ملوك مصر فإنه في أواخر حياته
كثرت الإضرابات والمظاهرات⁷⁴. وانتهزت زوجته الملكة (تي)
الفرصة. اتفقت من اثنين من كبار الموظفين وعشرة من رجال
البلاط والنساء على قتل الملك وتعيين ابنها (بنتاؤور) ملكًا
على مصر. ونفذت الخطة بإحكام وقتل الملك بالفعل.

اللافت للنظر أن المؤامرة انكشفت وتم القبض على المتهمين بعد
قتل الملك. وقدموا لمحكمة مدنية. حسب ما ذكرت بردية تورين
القضائية. وأثناء بحث القضية في المحكمة التي كانت تتكون من
14 قاضيًا، دعي 3 قضاة سرًا لقضاء ليلة مشبوهة في بيت أحد
المتهمين حيث كانت هناك نساء المتهمين يهتمن بهم. وانكشف هذا
الأمر فجأة. فتحول القضاة الثلاثة إلى متهمين آخرين، وانتقلوا من
المنصة إلى قفص الاتهام. وحكم على اثنين منهم بجذع الأنف
وعلى الثالث بالبراءة. ولكن أحد القضاة انتحر بعد سماعه الحكم.
وأثناء متابعة التفاصيل اكتشف القضاة أن هناك جانبًا لاهوتيًا في
القضية حيث ثبت أن المتهمين استعملوا السحر. ولما كان هذا

⁷⁴ راجع فصل التاريخ في هذا الجزء.

ممنوعًا، حكمت المحكمة بعدم الاختصاص وتحولت القضية إلى المحكمة اللاهوتية.

استلمت المحكمة اللاهوتية الأمر وانكشفت كل تفاصيل المؤامرة كالآتي.

اتفقت الملكة تي مع حريم الملك ومع كبير الخدم وكبير السقاة واتصلت بإحدى سيدات المجتمع وهي أخت لقائد الجيوش في كوش. كما اتصلوا بقائد الجيوش المصرية عامة للاشتراك في المؤامرة. فكان مجموع الضالعين ثمانية وعشرين متآمرًا. وكانت خطة المؤامرة هي قيامهم باضطرابات سياسية. ثم اغتيال الملك أثناء الاحتفال بعيد الوادي في معبد هابو. وقد تم كل ذلك بنجاح.

ونحن لا نعرف كيف اكتشفت المؤامرة، خاصة أنها نجحت وقتل رمسيس الثالث بالفعل. وكانت الأحكام هي الإعدام لِبنتاؤور الأمير وثلاثة آخرين (في الغالب فإن قائد الجيوش وقائد جيش كوش كانا من بينهما). جدع الأنف لضابطين. أما بقية المتهمين، ومصير الملكة (تي) فلا نعرف الأحكام التي طبقت عليهم⁷⁵.

مع تحليل هذه المحاكمة نجد الآتي:

- تنوع أنظمة القضاء من مدني إلى لاهوتي، وهو ربما يوازي ما نعرفه اليوم من قضاء مدني وعسكري.
- أنه لم يكن هناك شخص فوق القانون، وأن القانون فوق كل الشخصيات حتى لو كانت شخصيات مقدسة مثل الملكة أو ولي العهد.

⁷⁵ من أهم المصادر لهذه المحاكمة بردية متحف تورين وبردية هاريس. والمرجع الذي أخذنا عنه هو Nicolas Grimal, Histoire de L Egypte ancienne, p. 364 والمصدر الثاني هو أحمد فخري، مصر الفرعونية ص 376.

- أن العقوبات لم يكن فيها إفراط في القسوة، بل كانت نسبيًا رحيمة فلم يعدم غير ثلاثة فقط. ولو قارنا عقوبات هذه المؤامرة بعقوبات مناظرة لها في الوقت الحالي لاندھشنا من كمية الرأفة في العقوبة المصرية القديمة.
- كان الإعدام بتركهم ينتحرون، وهو طريقة المقصود بها احترام المحكوم عليه في آخر لحظات حياته، وتخليص شكل الإعدام من أي شبهة انتقامية.
- أن نظام القضاء كان يعرف الاختصاصات المختلفة الدقيقة وأهمية تحويل القضايا إلى المحاكم المختصة.
- أن القضاة لم يكونوا يعيدون عن المساءلة والمحكمة إذ ثبت تورط أحدهم في عمل غير نظيف.
- قضية استعمال السحر هي في التصور المنتشر لم يجرمها غير الأديان السماوية، أما أن تكون جريمة في القانون الفرعوني فهذا شيء مفاجئ يدعو إلى التأمل ويستحق البحث.

نماذج من القوانين المصرية

تشريعات حور محب

يعتبر حور محب حلقة الوصل بين الأسرتين الثمانية عشرة والتاسعة عشرة، وإن كان يحسب كأحد فراغنة الأسرة الثمانية عشرة. وهو أول مشرع تصل لنا قوانينه في مصر الفرعونية. وقد حالفنا الحظ في اكتشاف جزء من تشريعاته والتي وجدت على مجموعة أبحار مبعثرة. وقد تناولها عدد كبير من الباحثين. وهي تعطي ضوءًا على طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

حقوق الدولة على الأفراد⁷⁶.

- الجزء الأول خاص بالعقوبات التي توقع على كل من يعوق السفن التي تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة، وكان عقاب ذلك جدد الأنف والنفي إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة (لاحظ لم يكن القتل هو العقوبة).
- والجزء الثاني يختص بالإجراءات التي تتخذ في حالة سرقة سفن تكون محملة بالضرائب ومحملة إلى الملك. وكانت العقوبات مشابهة.
- الجزء الثالث هو من يتعرض لسفن محملة بأشياء تخص المعابد أو زوجات الملك.

⁷⁶ د. أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص 334.

حقوق الأفراد على الدولة

- والجزء الأول خاص بمعاقة الموظفين الملحقيين بمكتب قرايين الملك الذين يذهبون إلى قرية لأخذ نبات (كث)⁷⁷ أو يأخذون عمالاً قصرًا لفترة من الزمن بدون رضاهم⁷⁸
- والجزء الثاني خاص بالاستيلاء على جلود الحيوانات كجزء من الضريبة، ومعاقة الجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للاستيلاء على هذه الجلود بدون وجه حق.
- الجزء الثالث خاص بالإجراءات ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين وما يحدث من تلاعب من موظفي الدولة.
- الجزء الرابع وهو عقوبات توقع على من يأخذ من الفلاحين النباتات المسمى (سم)، والذي كان ضروريًا لعمل العجة بحجة أنه يؤخذ لأجل ضرائب الملك.
- الجزء الخامس عقوبات توقع على من يظلم الفلاحين بأخذ الحبوب أو الخضراوات دون وجه حق باسم الملك .
- الجزء السادس وهي عقوبات توقع على جريمة غير واضحة في النص الأصلي، ولكن يذكر في هذا الموقع اسم البلاد الأجنبية وإعطاء ذهب الملك إلى بعض الناس. ربما كان المقصود المتاجرة مع البلاد الأجنبية بدون تصريح.
- الجزء السابع عقوبات توقع لمنع القسوة أو كثرة العمل على الأرقاء⁷⁹.

⁷⁷ غير معروف ولكنه كان - بالتأكيد - نباتًا مهمًا للقرويين.

⁷⁸ يعتبر هذا أقدم تحرير للسخرة معروف حتى الآن.

⁷⁹ كان الأرقاء هم فقط أسرى الحرب من غير المصريين.

- وهناك جزء مهم يتحدث عن أن الملك قام برحلات في سائر أنحاء البلاد وزار المحاكم، وكان القضاة من بعض الموظفين والكهنة وأنه أصدر مرسومًا بأن اعتداء أحد أعضاء المحاكم على العدل وظلمه للناس بسبب رشوة أو غيرها مما يعتبرها جريمة كبرى ويكون جزاؤها القتل⁸⁰.

بقليل من التحليل نجد أن السخرة منعت تمامًا في هذا التشريع.

وأن حقوق الأفراد على الدولة أخذت حيزًا كبيرًا أكبر من حقوق الدولة على الأفراد. أن جرائم الأفراد على مال الفرعون أو الدولة لم تكن جريمة تستحق القتل، ولكن ظلم الأفراد من قبل القضاة كان جريمة كبرى تستحق القتل. كما نلاحظ أن نظام أخذ الضرائب لم يكن يصل إلى حرمان الفلاح من احتياجاته الأساسية. بل إن حرمان الشخص من المحاصيل والخضراوات جريمة لا يغفرها أن هذا يتم باسم جمع ضرائب الفرعون. كما نجد أن الموظفين المختصين بجمع الضرائب كان عليهم رقابة تمنعهم من استغلال ذلك في الظلم.

أما المفاجأة الكبرى فهي الجزء السابع من حقوق الأفراد والخاصة بمعاقبة من يمارس القسوة والعمل الزائد على الأرقاء الذين هم أسرى الحرب من الأجانب. فهذا أول نص في تاريخ البشرية يدافع عن حقوق الأسرى، وليس له نظير إلا في اتفاقية جنيف لمعاملة الأسرى في عام 1949. وهي مسألة لا بد أن ينحني أمامها الإنسان احترامًا وتبجيلًا.

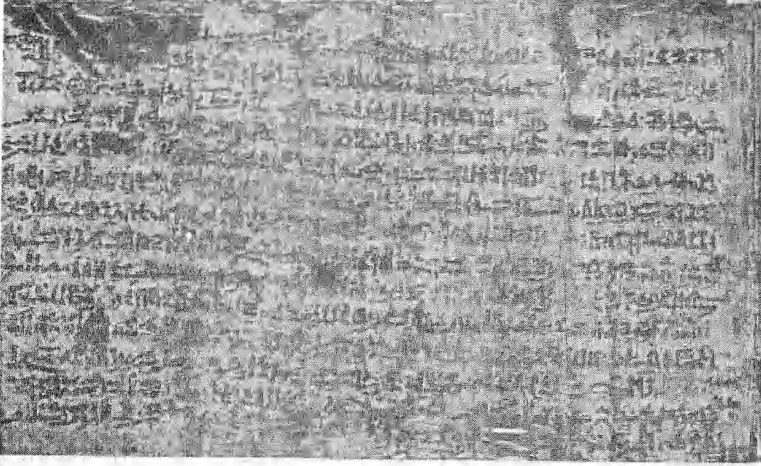
⁸⁰ كتب كورت فليجر رسالة عن حور محب رُجمت شتات هذه الأحجار التي بعثرت بين متاحف لين و ليننجراد والوهر والقاهرة التي بعثرت بين متاحف متعددة في العالم ونشر ذلك في كتابه:

K: Peluger, Haremhebs Laufabahn bis zur Thronbesteigung, 1936.

وآخرون كتبوا في نفس الموضوع مثل: جارندر. وأحمد فخري.

النص الكامل لبردية ايپورو ور

صرخة نبي



بردية ايپورو بالمتحف الوطني بهولندا

الصفحة الأولى:

- (...) (حراس البوابة) يقولون: " دعونا نذهب وننهب "
- صانعو الحلوى (...)
- الغسالون رفضوا حمل غسلهم (...)
- (صيادو) الطيور انتظموا في صف المعركة ، و (ساكنو) الدلتا حملوا الدروع.
- صانعو البيرة (...) في حالة حزن
- الإنسان ينظر إلى ولده كأنه عدو
- ارتباك (...) آخر

- فلنحضر ونغزو ، القاضي (...) ، ما ارتسم لك من زمن حورس، في زمن التاسوع (...) ، والإنسان الفاضل يذهب في حالة نواح بسبب ما حدث في الأرض (...) يذهب (...) بدو الصحراء أصبحوا مصريين في كل مكان.
- حقًا ، الوجه شاحب ، (...) ما تنبئ به الأجداد حدث (...) الأرض مليئة بالأحلاف ، ورجل يذهب للحرث ومعه درعه.
- حقًا ، الوديع يقول : " ذلك الذي....) وجه مثل شخص حسن النشأة.
- حقًا ، (الوجه) شاحب ، ورجل القوس جاهز ، والخطأ في كل مكان ، وليس هناك رجل الأمس.
- حقًا ، اللص (...) في كل مكان ، ويأخذ الخادم كل ما يجده.
- حقًا ، النيل يفيض ، ولا حرث للأرض . كل إنسان يقول: " لا نعرف ما حدث في هذه الأرض"
- حقًا ، النساء أصبحن عاقرات ، ولا أحد يحمل . خنوم لم يعد يخلق البشر بسبب حالة الأرض.

الصفحة الثانية:

- حقًا ، الفقراء أصبحوا مالكي ثروات ، والذي لم يكن يصنع صندل لنفسه يملك الآن ثروة.
- حقًا ، خدم الرجل ، قلوبهم في حالة حزن ، والقضاة لم يعد يغضبون مع أهلهم عندما يصرخون.
- حقًا ، (قلوبهم) غاضبة ، والوباء في الأرض ، والموت موجود، وقماش المومياء يتكلم حتى قيل أن يقترب الإنسان منه.
- حقًا ، العديد من الموتى يدفنون في النهر ، وتيار النهر أصبح قبرًا ، ومكان التحنيط أصبح تيار النهر.
- حقًا ، النبلاء أصبحوا في محنة ، بينما الفقراء سعداء ، وكل مدينة تقول : " هلم نطرد الأقوياء من بيننا".
- حقًا ، الرجال أصبحوا كطيور الالبيس . البؤس في الأرض ،

- وليس هناك رجال ملبسهم ببيضاء في هذه الأزمان.
- حقًا ، الأرض تدور مثل عجلة الفخراي ، واللص أصبح مالك ثروة ، و (الغني أصبح) لصًا.
 - حقًا ، الخدم الموثوق بهم صاروا (...) ، الفقير (يشكو) : "ماذا افعل ؟ "
 - حقًا ، النهر صار دم ، والإنسان صار لا يشرب منه . والبشر يهربون من إنسانيتهم ، والعطش موجود برغم الماء.
 - حقًا ، البوابات والأعمدة والحوائط تحترق ، بينما قاعة القصر تبقى ثابتة ومحمية.
 - حقًا ، مركب (الجنوبيون) تكسرت ، والمدن دمرت ، والصعيد صار نفاية فارغة.
 - حقًا ، التماسيح صارت متخمة بالأسماك التي أكلتها ؛ لأن البشر ذهبوا إليها من تلقاء أنفسهم ، إنه خراب الأرض ، والناس يقولون " لا تمش هنا لأن هنا مصيدة " ، والناس (...) مثل: الأسماك ، والشخص المرعوب لا يستطيع تمييزه بسبب الإرهاب.
 - حقًا ، البشر صاروا قلة ، والذي يطرح أخاه أرضًا موجود في كل مكان ، وعندما يتحدث العاقل فالهرب دون تأخير.
 - حقًا ، الشخص حسن النشأة (...) من خلال عدم الإدراك ، وطفل سيدته صار ابن خادمته.

الصفحة الثالثة:

- حقًا ، التصحر صار في الأرض ، والمقاطعات مملوءة بالنفايات ، والبرابرة من الخارج جاءوا لمصر .
- حقًا ، الذهب واللازورد والفضة والفيروز والعقيق و الجمشت وحجر - ابهت و... صارت معلقة في رقاب الخدم ، أشياء حلوة صارت في الأرض !! ، ربات البيوت يقولون : " أواه ، ياليت لدينا شيء نأكله ، (...) النبيلات . أجسادهن في محنة حزينة بسبب

الخرق ، وقلوبهم حزانى عندما تحيي إحداهن (الأخري) .
 • حقًا ، صناديق العاج مكسورة ، وخشب - سسندم انفطرت في
 الأسرة (...).

• حقًا ، بناءو الأهرامات صاروا مزارعين ، وأولئك الذين كانوا
 في القارب المقدس صاروا تحت النير ، ما عاد أحد يبحر إلي جبيل
 اليوم فماذا نفع من أجل أخشاب الأرز لمومياواتنا وبالمنتجات التي
 كان يدفن بها الكهنة ، و بزيت الأرز الذي كان يحنط به الرؤساء
 ويجلب لأبعد من كفتيو ؟ لم تعد تأتي الآن والذهب نادر (...) ومواد
 الحرف انتهت ، (...) القصر سلب ، كيف يفعل في الغالب أهل
 الواحات الذين كانوا يأتون توابل الاحتفالات والحصر والجلود
 ونباتات ردمت الطازجة وشحم الطيور ...؟

• حقًا ، اليفانتين و ثني (...) بالصعيد ، (ولكن) بدون دفع ضرائب
 بسبب الحرب الأهلية ، وندرت الحبوب والفحم وثمار - ايرتيو و
 خشب - معو وخشب - نوت والأجمة . عمل الحرفيين و ... هي
 أرباح القصر ، فلأي هدف الخزانة بدون حصيلة ؟ ، حقا الملك
 سيكون سعيدًا لو جاءتة الحقيقة !، وكل بلد أجنبي تأتي ! ، ذلك
 قدرنا وهذه سعادتنا! فماذا نفع حيال ذلك؟ الكل في خراب!
 • حقًا ، اختفى الضحك ولم يعد موجودًا ، والأرض تنن مختلطة
 بالشكاوي

الصفحة الرابعة:

• كل متوفى صار كما لو كان إنسانًا حسن النشأة ، وأولئك الذين
 كانوا مصريين (صاروا) أجنب و تم تحيتهم جانبًا
 • حقًا ، شعر كل إنسان تساقط ، ورجل السلطة لم يعد يمكن تمييزه
 من الشخص النكرة.
 • حقًا ، (...) بسبب الضوضاء ، والضوضاء لم تكن (...) في
 سنوات الجلبة ، ولا نهاية لهذه الضوضاء.

- حقًا، والعظيم والتافه يقولون : " أتمني لو أموت " ، والأطفال الصغار يقولون : " ما كان يجب أن أعيش."
- حقًا ، أطفال الأمراء يلقون باتجاه الجدران ، وأطفال الرقبة يوضعون علي أرض عالية.
- حقًا، أولئك الذين كانوا في مكان التحنيط صاروا يوضعون علي أرض عالية ، وأسرار المحنطين أقيت بسبب ذلك.
- حقًا ، من كان يرى بالأمس لقي حتفه اليوم ، والأرض جزئت بسبب ضعفها مثل قطع نبات التيل.
- حقًا ، الدلتا كلها لن تختبئ ، مصر السفلي تضع ثقها في الطرق المعبدة : ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل؟ لا (...) يوجد في أي مكان، والرجال يقولون : " الجحيم حدث " ، انتبه! ، ما كان في أيدي الذين لا يعرفونه مثل الذين يعرفونه . بدو الصحراء أصبحوا مهرة في حرف الدلتا.
- حقًا ، الشعب أصبح هدفًا لسارقي القمح ، وأولئك الذين اعتادوا صناعة الكتان الممتاز ضربوا ب... ، أولئك الذين اعتادوا ألا يروا اليوم خرجوا دون عوائق ، أولئك الذين كانوا في أسرة أزواجهن تركوهن ينامون علي القوارب ، أنا أقول : " هذا كثير علي " بخصوص القوارب المحملة بنبات المر ، حملوهم بالأوعية المملوءة ب (...) ، (دعهم) يعرفون بخصوص الخادم أصبح محطماً. ليس هناك علاج له ، النبيلات يعانون مثل الخادmates ، المنشدون صاروا في المغزل داخل عرف النسيج ، وما ينشدونه إلي الآلهة المنشدة هو مجرد نواح . الثرثرة (...) لصوص القمح.
- حقًا ، كل الخادmates أحرار بالسنتهن ، وعندما تتحدث سيدتهن ، فإنه إزعاج للخادmates.
- حقًا ، الأشجار مقطوعة والأغصان مجردة.

الصفحة الخامسة:

- أنا فصلت بينه وبين خدم البيت والرجال سيقولون عندما يسمعون ذلك : " الكعك نادر لأغلب أطفالنا ، وليس هناك طعام (...) ، ما مذاقه اليوم؟"
- حقًا ، العظماء جائعون وهالكون ، والاتباع أصبحوا يتبعون (...) بسبب الشكاوي.
- حقًا ، الرجل العصبي يقول : " لو أعرف أين الرب لكنت أخدمه؟"
- حقًا ، (الحق) يسود الأرض بالاسم ، ولكن ما يفعله الإنسان في الوثوق فيه هو الخطأ.
- حقًا ، العداءون يتقاتلون بسبب فساد السرقة ، وكل ممتلكاته نهبت.
- حقًا ، الحيوانات ، قلوبها تنتحب ، والماشية تنن بسبب حالة الأرض.
- حقًا ، أطفال الأمراء ألقيت تجاه الجدران ، وأطفال الرقبة وضعت علي أرض مرتفعة. خنوم يتأوه بسبب حالته الغريبة.
- حقًا ، الإرهاب يقتل ، والرجل الخائف يعارض ما يتم ضد أعدائك ، وعلاوة علي ذلك القلة فرحون ، بينما البقية ... هل ذلك باتباع التمساح وتتحيته جانبًا؟ هل ذلك بذبح الثور المشوي علي النار؟ (هل ذلك) بالرش إلي بتاح واخذ (...)? لماذا أعطيته؟ لا مجال للوصول إليه . إنه بؤس ذلك الذي أعطيته.
- حقًا ، خدم...في كل الأرض ، والرجل القوي يرسل إلي كل واحد ، والرجل يضرب أخيه الشقيق ، ما هذا الذي حدث ؟ قلت ذلك إلي رجل محطم.
- حقًا ، الطرق هي (...) ، الطرق مراقبة ، والرجال يقيمون بين الأدغال حتى يأتي المسافر الجاهل حتى يسرقوا متاعه ويؤخذ كل ما يحمله، وينتهي بضربات عصي ويقتل.
- حقًا ، لقي حتفه من كان يري بالأمس ، والأرض تركت لنهايتها مثل قطع نبات التيل ، والعوام يجبنون ويروحون بحرية (...).

الصفحة السادسة:

- هل يكون ذلك نهاية البشرية ، دون فكرة ، ودون حمل ، وهل ستكون الأرض هادئة من الجلبة ، ولن يكون هناك جلبة بعد ذلك .
- حقًا ، الناس يأكلون الكلاً ويغسلونه بالماء ، لا ثمرة ولا كلاً موجود ، لا طيور ، (...) يؤخذ من قم الخنزير ، لا وجه مشرق الذي تمتلكه (...) لي بسبب الجوع .
- حقًا ، اختفي الشعير من كل مكان ، وجرّد الرجال من ملابسهم ، والتوابل ، والزيت ، كل واحد يقول : " ليس هناك شيء " ، المخزن فارغ وحارسه ممدد علي الأرض ، حياة سعيدة ! .
- لو كنت رفعت صوتي في تلك اللحظة ، لكنت أنقذت نفسي من هذا الألم الذي أعانيه .
- حقًا ، غرفة المجلس ، سجلاتها أخذت والأسرار التي فيها انكشفت .
- حقًا ، التعاويذ السحرية انكشفت ، وتعاويذ سمو و شنو انكسرت بسبب الناس .
- حقًا ، المكاتب العامة مفتوحة ، وسجلاتها أخذت ، والعبيد أصبحوا ملاك عبيد .
- حقًا ، الكتب قتلوا ، وسجلاتها سرقت . ويل لي بسبب بؤس هذا الزمن .
- حقًا ، سجلات الكتب عن الزيوت تحطمت ، وقمح مصر أصبح ملكية مشاعة .
- حقًا ، قوانين قاعة المجلس أقيت ، والرجال يسيرون عليها في الأماكن العامة ، والفقراء يمزقونها في الشوارع .
- حقًا ، توصل الفقراء إلي حالة الآلهة التسعة ، وكشفوا الإجراءات في بيت الثلاثين .
- حقًا ، صارت قاعة المجلس العظمي منتجعا شعبيًا ، ويأتي الفقراء ويذهبون إلي القصور العظيمة
- حقًا ، يتم إخراج أولاد النبلاء إلي الشوارع ويوافق العاقل ويقول

الأحمق " مستحيل " ولكن من داخله فرح لأنه لا يعرف عن ذلك شيء.

• حقًا ، أولئك الذين في مكان التحنيط يوضعون علي أرض مرتفعة تلقى و أسرار المحنطين بسبب ذلك.

الصفحة السابعة:

• انتبه ، النيران ارتفعت وامتد لهيبتها إلي أعداء الأرض.
• انتبه ، نفذت أشياء لم تحدث منذ زمن بعيد ، والملك خلعه الرعاع
• انتبه ، ذلك الذي دفن مثل الصقر خلا من النعوش ، والهرم الذي كان يخفي كنوزًا صار خاليًا.

• انتبه ، قلة من الرجال الخارجين على القانون جردوا الأرض من الملكية.

• انتبه ، سقط الرجال ثارين ضد حية الكوبرا ، (...) رع ، وحتى تلك التي جعلت الأرضيين في سرور.

• انتبه ، سر الأرض المجهولة حدودها قد انكشفت ، ودمرت العاصمة في لحظة.

• انتبه ، مصر سقطت في تدفق المياه، والذي يسكب المياه علي الأرض ، ونفذها الرجل القوي في شقاء.

• انتبه ، الثعبان أخذ من جحره ، والرجال لا يعارضون إثارة النعرات.
• انتبه ، الأرض ربطت بالأحلاف ، والجناء يأخذون ممتلكات الرجل الشجاع.

• انتبه ، الثعبان (...) الميت ، والذي لا يستطيع عمل تابوت لنفسه صار الآن مالك مقبرة.

• انتبه ، ملاك المقابر طردوا علي الأرض المرتفعة ، والذي لم يقدر على عمل تابوت لنفسه صار الآن مالك خزانة.

• انتبه ، هذا حدث للرجال ، وذلك الذي لم يكن يستطيع بناء غرفة لنفسه صار مالك جدران الآن.

- انتبه ، طرد قضاة الأرض من كل الأرض ، (...) طردوا من القصور.
- انتبه ، صارت السيدات النبيلات علي القوارب الآن ، والنبلاء في أعمال البناء ، وذلك الذي لم يستطع النوم حتى علي الجدران صار الآن مالك سرير.
- انتبه ، مالك الثروة صار الآن ظمان ، وذلك الذي يتسول ثمالمته لنفسه صار الآن مالك الأوعية التي تفيض.
- انتبه ، أصبح الآن ملاك الجلايب في خرق ، والذي لم يستطع أن ينسج رداء لنفسه صار الآن مالك كتان ممتاز.
- انتبه ، ذلك الذي لم يستطع تشييد مركب لنفسه صار الآن مالك أسطول ، وصاحبها السابق ينظر إليها ولكنها ليست ملكه.
- انتبه ، ذلك الذي لم يكن يملك ظلا ، وأصحاب الظل السابقون أصبحوا في مرمي انفجار عاصفة.
- انتبه ، ذلك الذي يجهل القيثارة صار الآن مالك قيثارة ، والذي لم يكن يغني حتى لنفسه صار يفخر الآن بانه مطرب الالهة.
- انتبه ، أولئك الذين يمتلكون حوامل أواني النحاس (...) لا إناء منهما مزين.

الصفحة الثامنة:

- انتبه ، الذي كان ينام بلا زوجة يريد (يجد) الثروة ، بينما الذي لم يري الحوامل يقدم صدقة.
- انتبه ، ذلك الذي لم يمتلك شيئا أصبح الآن مالك ثروة والنبل ينافقه.
- انتبه ، فقراء الأرض أصبحوا أغنياء ، والأصحاب السابقون للثروة صاروا لا يمتلكون شيئا.
- انتبه ، الخدم أصبحوا رؤساء خدم ، والذي كان في ما رسولا صار يرسل شخصا ما.

- انتبه ، ذلك الذي لم يملك رغيفا صار الآن مالك حظيرة ، ومخزنه مملوء ببضائع أخرى.
- انتبه ، ذلك الذي يتساقط شعره والذي لم يكن لديه زيت صار الآن مالك أوعية المر الحلو.
- انتبه ، تلك التي لم تملك صندوقا صارت الآن مالكة تابوت ، وتلك التي تري وجهها في الماء صارت الآن تملك مرآة.
- انتبه (...).
- انتبه ، الرجل سعيد بأكل طعامه ، ويستهلك بضاعته في سعادة ، وبلا عوائق ، لأنه من الآن فصاعدا لا يأكل طعامه ، والإله يأمر له بذلك ، لأنه يفضله (...).
- انتبه ، الذي لا يعرف إلهه ، الآن يقدم له مع بخور الذي لا يعرف له.
- انتبه ، سيدات عظيمات ، كانت مالكة ثروات ، تعطي إلي أولادهن أسرة الآن.
- انتبه ، الرجل الذي يعطي له سيدة نبيلة كزوجة ، فأبيها يحميه ، وذلك الذي لا (...) يقتله.
- انتبه ، أطفال القضاة هم (...) عجول الماشية تعطي للصوف.
- انتبه ، الكهنة تعتدي علي قطع الماشية (...).
- انتبه ، ذلك الذي لم يذبح لنفسه صار الآن يذبح ثيران ، وذلك الذي لا يعرف كيف ينحت يري الآن (...).
- انتبه ، الكهنة تعتدي علي الإوز ، والتي أعطيت إلي الألهة بدلا من الثيران.
- انتبه ، الخادماة (...) يقدمن البط ، النبيلات (...).
- انتبه ، النبيلات يهربن ، مشرفي (...) وأولادهم تم إلقاؤهم بسبب خوف الموت.
- انتبه ، رؤساء الأرض يهربون ، ولا هدف لهم بسبب العوز .
- رب (...)

الصفحة التاسعة:

- انتبه ، أولئك الذين كانوا يمتلكون أسرة صاروا الآن علي الأرض، وذلك الذي كان ينام في ظروف مزرية صار الآن يلتحف بالحصيرة الجلدية.
- انتبه ، النبيلات في حالة جوع ، بينما الكهنة جلسوا متخمين بما قدم لهم.
- انتبه ، لا موظفين في أماكنهم الصحيحة وصاروا مثل قطع يجري في عشوائية دون راع.
- انتبه ، الماشية شاردة ، ولا أحد يجمعهما ، وكل واحد يجلب لنفسه تلك المدموغة بالاسم
- انتبه ، الرجل يذبح بجوار أخيه ، وهو يهرب ويتخلي عنه لينفذ نفسه.
- انتبه ، ذلك الذي لا يملك نير - طوق- ثيران صار الآن يملك قطع ، والذي لم يكن يملك لنفسه محراثا صار الآن مالك ماشية.
- انتبه ، الذي لم يكن لديه حبوب صار الآن مالك صوامع غلال ، والذي لم يجلب لنفسه نرة بالقرض صار الآن من يبيعها.
- انتبه ، ذلك الذي لم يكن لديه معالون صار الآن مالك عبيد ، والذي كان نبيلاً صار الآن ينفذ مهامه بنفسه.
- انتبه ، أقوياء الأرض ، وحالة الناس لم تبلغ لهم الكل في خراب
- انتبه ، لا يوجد عمال حرفيون يعملون ؛ لأن أعداء الأرض يعادون الحرفيين.
- انتبه ، الذي كان يسجل الحصاد في يوم ما صار الآن لا يعرف عنها شيئاً ، بينما الذي لا يحرث صار الآن مالك قمح، والجني يحدث ولا أحد يبلغ، الكهنة يجلسون في مكتبه، ولكن أيديهم معطلة.
- الدمار هو (...) في ذلك الوقت ، والرجل ينظر إلى صديقه علي أنه عدوه ، والرجل العاجز يجلب البرد علي السخونة...خوفاً...، والفقراء (...الأرض) ليسوا مشرقي الوجه بسبب ذلك.

الصفحة العاشرة:

- الدمار هو (...) طعامهم يسلب منهم بسبب الخوف من إرهابه.
- العوام يتوسلون (...) الرسول ، ولكن لا (...) زمن. قبض عليه محملا بالبضائع وكل ممتلكاته سلبت (...) الرجال يمرون ببابه (...)
- خارج الجدار مظلة وغرف تحتوي علي صقور. إنه الرجل الوضيع والذي يبقي متيقظًا ، الفجر بزغ عليه دون خوف منه.
- الرجال يجرون (...ل) معبد الرأس ، ملطخ بسبب قماش منسوج داخل البيت. ما عملوه هو خيام. فقط مثل بدو الصحراء.
- الدمار هو عمل ذلك الذي من أجله يرسل الخدم الرجال من أجل خدمة أسيادهم . ليس لديهم استعداد. انتبه إنهم خمسة رجال وهم يقولون : " استمروا علي الطريق الذي تعرفونه لأننا وصلنا".
- مصر السفلي تبكي ، ومخزن الملك أصبح ملكا مشاعًا لكل شخص، والقصر كله أصبح بدون دخله ، ففيه كان يوجد الحنطة والشعير والطيور والأسماك ، وفيه يوجد القماش الأبيض والكتان الممتاز .
- والنحاس والزيت ، وفيه يوجد السجاجيد والحصر (...) والزهور وحزم القمح ، وكل العائدات الطيبة ... لو ...في القصر كانت تأخرت ، الناس أصبحوا فارغي (...)
- دمار أعداء العاصمة الرائعة بنبلانها (...) فيها مثل (...) حقًا ، حاكم المدينة يسير بلا حرس.
- دمار أعداء العاصمة (...)
- دمار أعداء العاصمة السابقة ، متعددة القوانين
- دمار أعداء العاصمة السابقة (...)
- دمار أعداء العاصمة السابقة (...) لا أحد يستطيع الوقوف (...)
- دمار أعداء العاصمة السابقة متعددة المكاتب ، جثًا (...)
- تذكر أن تغمس (...) الذي في ألم عندما يمرض بجسده ، أظهر الاحترام (...) بسبب إلهه الذي يحرس الكلام (...) أطفاله الذين شهدوا ارتفاع الفيضان.

الصفحة الحادية عشرة:

- تذكر أن (... المزار ، و أن تعقم بالبخور ، وتقدم الماء في إناء في الصباح الباكر.
- تذكر أن تحضر دهن إوز، وإوز ترب ، والبط ، وأن تقدم القرابين المقدسة للآلهة.
- تذكر أن تضع التطرون ، وتعد الخبز الأبيض ، فالرجل يجب أن يفعل ذلك في يوم تدهين الرأس.
- تذكر أن تثبت صاريات الأعلام ، وأن تنحت أحجار القرابين ، ويقوم الكاهن بتطهير المقاصير ، ويكسي المعبد مثل: اللبن ، وتلطفه برائحة الأفق ، وتمده بقرابين الخبز.
- تذكر أن تراقب اللوانح ، وتصلح التواريخ بشكل صحيح ، وأن تطرد الذي يدخل المنصب الكهنوتي بجسد غير طاهر ، لأن الذي يفعل ذلك يكون مخطئًا ، وأنه دمار للقلب (... اليوم الذي يسبق الأبدية ، الشهور (... والسنين معروفة.
- تذكر أن تذبح الثيران
- تذكر أن تذهب للتطهير (... الذي يستدعيك ، وان تضع إوزاري علي النار (... وأن تفتح الإناء (... ساحل المياه (... للنساء (... الملابس (... لتعطي مديحًا ... من أجل إرضائك (... ندرة الناس ، يأتي (... رع الذي يأمر (... يعبده (... غربا حتى (... يتضاءلون. انتبه ، لماذا يبحث كي يخلق البشر ...؟ الخائف لا يتم تمييزه عن العنيف.

الصفحة الثانية عشرة:

- إنه يجلب البرد علي الحرارة ، الرجال يقولون : " هو راع البشرية وليس هناك شر في قلبه" ، ورغم أن قطيعه قليل ، فهو يقضي اليوم في جمعهم ، فقلوبهم تبقى في النار. فهل ذلك لأنه

ينظر طبيعتهم في الجيل الأول ، ثم هو قد يضع العقبات ، وهو يمد نراعه ناحيتهم ، وهو قد يدمر قطعانهم وميراثهم. البشر يرغبون في إعطاء المواليد ، لكن الحزن يخيم ، مع وجود أناس محتاجين علي كل الجوانب. وهو لن يزول بينما الآلهة موجودون. البذور توضع في رحم النساء ولكن لا أحد يوجد علي الطريق.

• بدأ الصراع والذي يكون معين تخزين الشر هو الذي يقترفها ، فلا الرجال يعملون كرواد في ساعة عملهم. أين هو اليوم؟ هل هو نائم؟ انتبه ، قوته غير مرئية. لو تم إطعامنا لن أجدك ولن أستدعي عبثاً. "العنف ضده يعني الآلام في القلب" وهو قول علي شفاه كل واحد. اليوم إنه خائف... عدد لا يحصي من البشر ، (... لا يرون (... ضد أعداء (... في غرفته الخارجية ، الذي يدخل المعبد (...)) سيكون من أجله (...)) ذلك الواحد الذي ينفذ ما يقوله... الأرض لم تسقط (... التماثيل حرقت ، والمقابر دمرت (...)) . هو ذلك الذي لا يعمل لنفسه (...)) بين السماء والأرض يكون خانقاً من كل شخص.

• ... لو فعلها. ما لا يروق لك أخذه . السلطة والمعرفة والحق معك، لا ارتباك فيما تقرره علي الأرض وأيضاً ضجيج الفتنة. انتبه، الواحد يتعامل بأذى مع الآخر لأن البشر يؤكدون ما قررت. لو سافر ثلاثة رجال فسوف يكونون اثنين لأن الكثرة تقتل القلة.

الصفحة الثالثة عشرة:

• هل يرغب الراعي في الموت ؟ عندئذ يجب عليك أن تأمر بجواب منك ، لأنه يعني أن الواحد يحب والآخر يكره ، ويعني أن وجودهم قليل في كل مكان ، ويعني أنك تعمل كي تحضر تلك الأشياء لتمر. إنك أخبرت الأكاذيب والأرض عشب والتي تدمر البشر ، ولا أحد يحصي في الحياة. كل هذه السنوات في صراع ، والرجل يقتل علي سطح بيته حتى أنه علي الرغم من يقظته في

- حراسة البوابة. هل هو شجاع وينقذ نفسه؟ فهذا يعني أنه سيعيش.
- عندما يرسل الرجل خادماً لقوم متواضعين فإنه يستمر علي الطريق حتى يري الفيضان ، الطريق يتم غسله وهو يبقى قلقاً. ما حملة يسلب ولكنه تلقي ضربات عض وذبح ظملاً: آه ، لعلك تتذوق جزءاً من بؤسه ، وعندئذ ستقول (...) من شخص ما آخر كحائط ، فوق وعلي (...) ساخن...سنوات (...)
- إنه جيد حقاً عندما تصعد المراكب (...) سرقتهم.
 - إنه جيد حقاً (...).
 - إنه جيد حقاً عندما تسحب الشبكة وتعلق بها الطيور؟
 - إنه جيد حقاً (...) الكرامات لهم ، والطرق تكون مطروقة.
 - إنه جيد حقاً عندما تبني أيدي الرجال الأهرامات ، وتحفر البرك ، وتزرع أشجار الآلهة.
 - إنه جيد حقاً عندما تكون الناس في حالة سكر ، هم يشربون ميبيت، وقلوبهم سعيدة.

الصفحة الرابعة عشرة:

- إنه جيد حقاً عندما يبق الصراخ في أفواه الرجال ، وعندما يبق نبلاء الأحياء مستمرين في الصراخ في بيوتهم مرتدين العباءات ومطهرين ومجهزين.
- إنه جيد حقاً عندما تجهز الأسرة وتكون مساند رأس النبلاء آمنة ، واحتياج كل رجل مريحة في أريكة في الظل ، ويغلق عليه الباب الآن وهو ينام في الأدغال.
- إنه جيد حقاً عندما ينتشر الكتان الجيد في يوم رأس السنة الجديدة (...) علي الضفة، عندما ينتشر الكتان الجيد والعباءات علي الأرض. مشرف (...) الأشجار ، الفقير (...) في وسطهم مثل الآسيويين (...) والحالة هكذا ، جاءوا إلي نهاية أنفسهم ، لا يمكن

إيجاد شخص يقف ويحمي أنفسهم (...). كل شخص يحارب من أجل أخته وينقذ نفسه. إنهم النوبيون؟ عندئذ سنحرس أنفسنا ، المحاربون كثيرون جداً لقطع رؤوس الأجانب. إنهم الليبيون؟ ثم سنستدير و المدجاي مسرورون بمصر.

الصفحة الخامسة عشرة:

- كيف يحدث أن يقتل الرجل أخاه؟
- الجيوش التي نجيشها لأنفسنا تحولت إلي أجنب ، وأخذت في الانتقام.
- ما جاء بسببها هو إخبار الآسيويين بحالة الأرض.
- كل بدو الصحاري يمتلك مع الخوف منه.
- ما تذوقه العوام (...). بدون إعطاء مصر الحق علي الرمال.
- إنه قوي (...). يتحدث عنك بعد سنوات (...). تدمر نفسها.
- إنه أرضية الجرن التي تنعش منازلهم (...). لتنعش أولاده (...).
- والقوات تقول (...). السمك (...). الصمغ و أوراق اللوتس (...).
- غذاء إضافي.

الصفحة السادسة عشرة:

- ما قاله اييو- ور عندما خاطب رب الكل : (...). كل القطيع ، وهذا يعني أن الجهل ما يبعث علي السرور في القلب.
- فعلت ما هو جيد في قلوبهم وأنعشت الناس بها.
- غطوا وجوههم خوفاً من الغد.
- وهذا ما يجعل الإنسان يكبر في السن قبل أن يموت ، بينما ابنه شخص متفاهم.
- هو لا يفتح فمه للتحدث إليك.
- ولكنك تهاجمه في عذاب الموت (...). ينتحب (...). يذهب (...).
- بعدك والتي تصبح الأرض (...). علي كل جانب.

الصفحة السابعة عشرة:

• لو استدعي الرجل إلي (...) ينتحب (...) ، الذي يتسلل إلي المقابر ، ويحرق التماثيل (...) وأجساد النبلاء (...) هو عمل موجه⁸¹.

⁸¹http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D8%A3%D9%8A%D8%A8%D9%88%D8%B1#.D9.86.D8.B5_.D8.A7.D9.84.D8.A8.D8.B1.D8.AF.D9.8A.D8.A9.

الفصل الخامس

الديانة المصرية

دراسة الديانة المصرية يمثل أهمية كبيرة لمعرفة المنظومة الأخلاقية والقيمية في هذه الفترة التاريخية والأساس الفكري والفلسفي لها.

عرفت البشرية نظامين من الديانة على مر التاريخ. وهما الهندي والمصري. فالنظام الهندي يتأسس على تناسخ الأرواح. أي أن روح المتوفي تتخلق في كائن جديد يولد في نفس اللحظة التي يتوفى فيها هذا الشخص.

من الممكن تقسيم الديانة المصرية إلى قسمين. قسم خاص بالموت، وهو المنوط به الإله وزير المعروف خطأ بـ (أوزيريس). والقسم الآخر من الديانة خاص بالحياة وهو الخاص بالآلهة الأخرى مثل أمون، رع، آمون رع، وبتاح.

هذا التقسيم لا يعني أن القسمين غير متصلين، بل هما متصلان معًا من حيث نشأة الآلهة ونظريات الخلق.

نظريات الخلق

نظرية الأشمونين

الأشمونين بلدة في جنوب مصر حوالي 100 كيلو متر شمال أسيوط. واسمها الحقيقي هو خامون أو ثامون. ويتضح من الاسم أنه مشتق أساساً من نظرية الثامون..

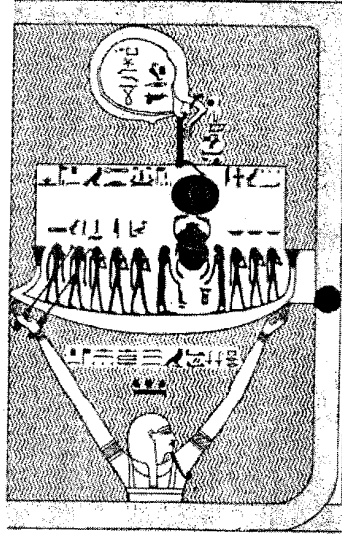
نظرية الثامون

سميت الثامون؛ لأنها تعتمد على ثمانية آلهة.

في البداية كان اللاوجود والفوضى والظلام متمثلة في المياه الأولى نون الأزلي، الذي أطلق عليه الواحد القديم، أو المبدأ الأول، أو الأصل الأول. وقوام هذا الأصل أربع خواص زوجية:

- 1- العمق العظيم (نون ونونت).
- 2- اللانهاية (حوح وحوحت).
- 3- الظلام الدامس (كوك وكوكت).
- 4- اللارؤية أو الاختفاء (أمن وأمنت).

صورة 1 الإله نون



وللأسف لم نعثر على ما يكمل النظرية الكونية الأشمونية. فقد احترقت كل الأدبيات في مكتبة الإسكندرية.

يلاحظ أن كل هذه الخواص العمق واللانهائية والظلام والاختفاء تجسدت بشكل إلهي محسوس. وهو بعد يجب ألا نغفله في فهم العقيدة المصرية القديمة التي كانت تربط بين المجرد والعيني. أي أن الأفكار المجردة مثل العمق، الظلام، الحرية، الحب كانت تجد لها تجسيدًا لتقريبها ولتسهيل التعامل معها، وهذا التجسيد للمجرد مازال موجودًا في ثقافة القرية. فيقول الناس مثلًا:

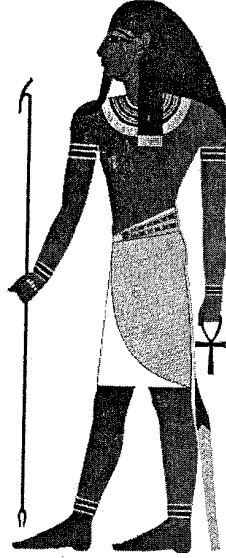
"رمضان يحب النوم" وكتعبير عن انتشار ظاهرة النوم أثناء الصيام. فحولوا رمضان الشهر إلى كائن له رغبات يحب ويكره. لا يعني هذا أنهم يتصورون أن هناك شخصًا ما اسمه رمضان، ولكن هو تبسيط لتوضيح الأفكار. وربما كان في الماضي يعتقد بالفعل في

وجود كائنات تعتبر المصدر لهذه المعاني. فيتم التعامل مع هذه الكائنات التي تأخذ مرتبة إلهية بدلاً من التعامل مع المجردات غير الملموسة. فمِلا خصوبة الأرض التي تعتمد على تجديد الطمي والسماد وغيرها من الأملاح المهمة للزرع، يتم التعامل معها على أساس أن هناك إلهًا (وزيراً أو أوزوريس) يحب كذا وكذا وكذا... وهناك معنى الحب الذي يفرض التضحية والحماية والشوق الجنسي، فيرمز له بإلهة (حتحور) تحب الورود والقبلات والعناق.... إلى آخره. فالحقيقة أن كل الآلهة هي تعبير عن معني مجردة تتمثل في أشكال ربوبية لتسهيل التعامل معها.

نظرية الخلق في أيون (عين شمس)

يبدو أن هذه النظرية (الأشمونين) اندمجت فيما بعد مع نظرية أيون (عين شمس) التي أوضحت أن الإله أتم (أي الكامل) بدأ وجوده الذاتي من فوق قمة تل أزلي انبثق بدوره من المياه واللائظام والظلام الأزلي.

صورة 2. الإله أتم

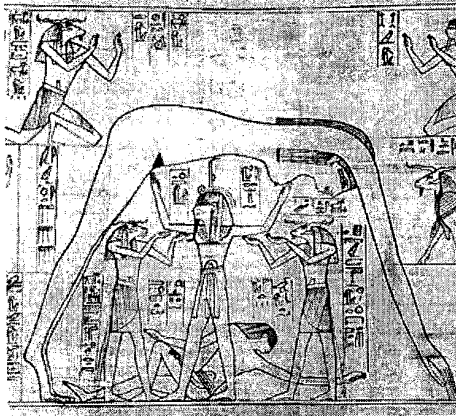


نفخ الإله أتم (أتون) وبصق من فمه فكان الإله شو الهواء وقرينته
تفنوة أو تفنوت إلهة الرطوبة⁸². من خلال هذين الإلهين شو
وتفنوت ولد ولادة طبيعية

⁸² لاحظ العلاقة بين الاسم وتعبير (تف)، وهو يعني البصاق.

بقية المعبودات

صورة 3. توضح الإله شو وهو يحمل الإلهة نوت (آلهة السماء) وعلى الأرض يقبع الإله جب إله الأرض والجبال.



فهما - شو وتفنوت - أنجبا جب إله الأرض والجبال ونوت أو نوة إلهة السماء. تزواج جب ونوت أنجبا الرباعي الشهير، وزير، إزة ست نبوة⁸³.

مهم أن نعرف أن الإله أتم (المعروف باسم أتوم) كان له صفات مثل الموجود بذاته، الذي أتى إلى الوجود بنفسه، الأزلي، الأوحد، سيد الجميع. وكل هذه الصفات نستطيع استنتاجها من اسمه⁸⁴. ومن خلال الإلهين شو وتفنوت الهواء والرطوبة أتى العالم. وهما النسيم والرياح وعليهما يعزى الفضل في فصل السماء عن الأرض.

⁸³ هذا الرباعي معروف بالأسماء (أوزيريس، إيزيس، ست، نفتيس)، وهي تسمية يونانية تغرب الآلهة المصرية وتعطيها سمة غير مصرية. والعودة إلى النطق الحقيقي يعيد إليها الطابع المصري.

⁸⁴ تعتبر اللغتان المصرية القديمة والعربية لغتين شقيقتين. ومن الممكن الاعتماد على التحليل العربي للكلمة المصرية عندما تنطق بشكل صحيح لفهم المعنى.

ويمثل أتم وشو وتفنوت ثالوثا. وهنا نجد في اللاهوت الأيوني (عين شمس) أن الإله أتم هو أحد مظاهر رع. وكان يسمى رع - أتم، أو رع الكامل. وكان بانبتأقه من النون المظلم الأزلي بداية ظهور النور واليابسة. فكان العالم والنظام الكوني من مياه ويابسة وليل ونهار، وهواء ورطوبة. وفي لاهوت الأشمونين كانت "الأشمونين" نفسها هي البقعة التي انبثق فيها رع من النون العظيم المظلم. ولذلك كانت هذه المدينة ذات قداسة دائمة. وكان أن بنى المصريون في هذه البقعة داخل جدران تمثل مستطيلاً بداخله بحيرة يتوسطها تل مشتعل. وكانت تسمى بحيرة السكينتين. ومما يستحق الذكر أنه كانت هناك عدة أماكن يعتقد أنها كانت موقع ظهور رع أو أتم من النون الأزلي. فكان هناك واحد في أيون (عين شمس)، وكان هناك آخر في منف، وآخر في طيبة.

نظرية الخلق، تاسوع منف

ظهرت في منف نظرية خلق متأثرة إلى حد بعيد بالنظرية الأشمونية. كانت تنص على:

في البدء كان اللسان والقلب (وهذا كان الإله أتم) للإله بتاح. وتم الخلق من اللسان والقلب. وتم الخلق عن طريق النطق بالكلمات. فخلق بتاح الآلهة شو وتقنوت وبقية التاسوع. على طريقة (كن فيكون). فبالرغبة التي استقرت في القلب والنطق بها خلقت الأرواح (كا). ومن النطق بالكلمة خرج الطعام والمؤمن كما خلق الإنسان بنفس الطريقة. وبالأفعال الحسنة يجد الإنسان ما يحبه، وبالأفعال السيئة يجد ما يكرهه. وتستمر نظرية الخلق المدهشة فتقرر أن القلب واللسان هو الأساس. فالنظر والسمع والشم تأتي كلها من القلب. والقلب مصدر كل معرفة وبكل الذاكرة. منه تنجم المهن والأعمال ونشاط الأيدي والأذرع وكل ما سعى على قدميه، وكل حركة من حركات لأعضاء الجسم تخضع لأوامر القلب والتي ينطق بها اللسان⁸⁵. يعتبر هذا التحليل تحليلًا متطورًا نسبيًا للعقل البشري. فكلمة القلب كان تعني العقل. حتى القرآن والرسول استعمالاً كلمة القلب بما يعني العقل.

هذا اللاهوت انتقل على مر الزمن من أسرة إلى أسرة، حتى نقله الفرعون النوبي شاباكا لينقش على لوحة من الحجر الأسود الصلد.

ويقول العالم يوروسلاف تشرني⁸⁶: (إن هذا التكوين اللاهوتي ليس له أي مقابل في مثل هذه الفترة المبكرة من تاريخ البشرية)⁸⁷.

⁸⁵ يوروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، ت: أحمد قدرى ص 57.

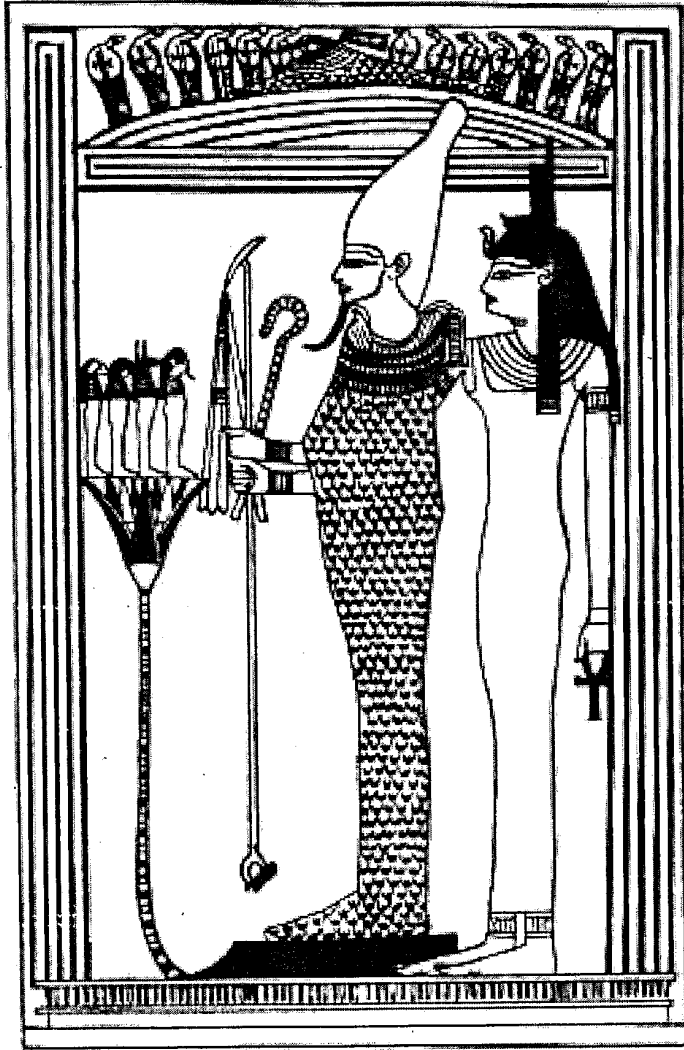
⁸⁶ تشرني هو واحد من أهم علماء المصريات، وهو بولندي الجنسية، ولكن كتبه تعد من أهم الكتب على الإطلاق في هذا المجال.

هنا يفرض علينا وقفة تحليلية. إن الإله أتم جزء من الإله بتاح. وهو يمثل القلب واللسان. لكي نقرب أكثر من المعنى علينا أن الإله بتاح كان متعدد القوى وهي صفة تختص بها الآلهة الأساسية. فالآلهة الثانوية تختص بعمل واحد فقط فأنوبيس - مثلا - وظيفته حماية المقابر. وتحوتي العلم... أما رع فمتعدد القدرات. وهذا يوازي فهمنا للنظام الإلهي في الديانات السماوية فإله تتعدد صفاته مثل: (القادر، الجبار، الرحمن، الحق....) أما الملاك إسرافيل فوظيفته أن ينفخ في الصور، وعزرائيل أن يقبض الأرواح، وجبريل الوسيط الذي ينزل على الرسل... واعتبار أن الإله أتم يمثل القلب واللسان من الإله بتاح هذا يعني أن قدرة الخلق عن طريق (كن فيكون) هذه القدرة المجردة يتم تشخيصها في إله يتضمنه بتاح.

من المهم أن نعرف أن المصريين كانوا يعتقدون أن الآلهة حكمت مصر قبل أن يحكمها البشر. وكان هذا العصر يسمى بعصر الآلهة. وقد ذكر مانيتون قائمة للآلهة التي حكمت كانت تتصدرها بتاح، رع، شو. ومن الطريف أن نعرف أن تحوتي حدد له مانيتون عدد سنين حكم تصل إلى 3726، وجب، 1773، أما حورس فقد تحدد له 300 سنة فقط. وهذه المسألة غاية في الأهمية؛ لأن حكم الأسرات كان حكم بشر وليس آلهة، وافترض أن المصريين كانوا يعبدون ملوكهم افتراض خاطئ تماما وحين الوقت لتغيير هذه الفهم المغلوط والذي يشوه الحضارة المصرية تماما، وسوف نتعرض لهذا بالتفصيل فيما بعد.

⁸⁷ الديانة المصرية القديمة، يوروسلاف تشرني.

صورة 4 عزة ووزير (إيزيس وأوزوريس)



إيزيس وأوزوريس (عزة ووزير)

تعتبر هذه الأسطورة عن حق هي أم أساطير البشرية.

تقول الأسطورة⁸⁸:

"بعد أن خلق الإله والجد الأعظم شو (الهواء) وتفنوت إلهة (الطوبة). وبعد أن تزواج شو وتفنوت وأنجبا نوت إلهة السماء وزوجها جب إله الأرض، خلق رع البشر وكل أنواع الحياة على الأرض. لم يشأ الإله الأكبر رع أن يتزواج حتى لا تتعدد الآلهة التي تحكم والتي يعيدها البشر.

وكان هذا هو السبب الذي جعله يمنع بقية الآلهة من الإنجاب وأعلن قراراً قاطعاً أن أيام السنة التي كانت تبلغ في هذا الوقت 360 يوماً لن يولد في أي منها إله آخر. فحزنت الآلهة نوت حزناً شديداً. ولاحظها إله القمر تحوتي وهي تبكي، فسألها عن السبب فحكّت له القصة. ففكر تحوتي إله القمر والمعارف والعلوم، وقال ربما نستطيع أن نحقق رغبتك ورغبة الجد رع في الوقت نفسه. واستطاع تحوتي بعلمه ومعارفه أن يستقطع بعضاً من ضوء القمر يكفي لمدة 5 أيام، وأضاف هذا الجزء إلى أيام السنة الشمسية لرع فأصبحت 365 يوماً. وكانت الأيام الزائدة لا تقع تحت القسم الذي

⁸⁸ توجد هذه الأسطورة في بردية يرجع تاريخها إلى رمسيس الخامس (1155 ق.م.) وأيضاً في برديات أقدم من ذلك تعود على الأسرة 12. عثر على أجزاء منها في بعض برديات الدولة الحديثة. والنص الأساسي لهذه البردية نشره جاردنر في كتابه.

A.H. Gardner, The Library of A. Chester Beauty description of a Hieratic Papyrus with mythological, Love songs and other miscellaneous Texts – the Chester Beatty Papyri No. 1 London 1931.

أقسمه رع استطاعت نوت أن تلد فيهم دون أن تعصي أمر جدما الأكبر. وزير (أوزوريس) وعزة (إيزيس) وست ونبوة (نفتيس) حتى حورس الذي ولد لاحقًا ولد في هذه الأيام⁸⁹. وعندما علم رع بما حدث لم يحزن ببارك الأحفاد الجدد واختار عزة (إيزيس) زوجة لوزير (أوزيريس) نبوة (نفتيس) زوجة لست. ولما كان وزير هو أكثر الأحفاد خلقًا، فقد اختاره الجد الأكبر رع لكي يخلفه في حكم الأرض والبشر بعد أن قرر الجد الصعود إلى السماء.

انتابت ست غيرة عارمة. فقد تزوج وزير بالأخت الجميلة وأصبح حاكمًا على الأرض.⁹⁰

وفكر ست في مكيدة لإزاحة وزير واستيلائه على أملاكه ووظيفته، وعلى زوجته عزة. انتهاز ست فرصة سفر وزير (أوزيريس) في زيارة عمل في إحدى المناطق النائية. وجهاز تابوتًا على مقاس أخيه وزير تمامًا مصنوعًا من خشب الأبنوس ومرصعًا بالذهب والفضة وجعله غاية في الجمال والإتقان. وعندما عاد أخوه أقام حفلًا كبيرًا بهذه المناسبة ودعا إليه أعوانه للاحتفال بعودة وزير. كان الحفل مليئًا بما لذ وطاب من أشهى أنواع المأكولات والمشروبات والراقصات والمغنيات مما يوحى بحبه لأخيه واهتمامه به. وأخرج ست التابوت الذي أثار إعجاب الجميع وأبهرهم. أعلن ست أنه سيهدي التابوت لمن يناسبه في الحجم. وحاول المدعوون أن يجربوا حظهم في أن يرقدوا داخله ولكنه لم يناسب أحدًا. وعندما جاء دور وزير رقد بدوره فناسبه التابوت تمامًا. ولكن ست

⁸⁹ كان المصريون القدماء يتعاملون مع هذه الأيام الخمسة على أنها أيام خارج السنة، أو أيام غير محسوبة، ويقضيها الجميع في فرح واحتفالات في كل البلاد.

⁹⁰ كلمة عزة تعني في المصرية القديمة الحكم تمامًا كما كانت تعني في العربية القديمة. وكان يرمز للآلهة عزة بكرسي العرش، مما يدل على أن المصريين القدماء وحدوا بين عزة وحكم مصر.

المخادع أغلق التابوت على أخيه غلفاً محكماً بالحديد وسد كل منافذه. وألقى به في النيل.

ولما لم يعد وزير إلى بيته توجهت زوجته عزة إلى معبد الإله رع لتسأل عن زوجها فأخبرها بما فعل ست بأخيه. جن جنون عزة وانطلقت تبحث عن التابوت في النيل. ولما أعيأها البحث عبثاً سألت بعض الصبية ووصفت لهم التابوت فأخبروها أنهم شاهدوا تابوتاً بنفس الأوصاف يحمله التيار في اتجاه الشمال. بدأت عزة في متابعة التابوت من طيبة إلى الشمال وهي تسأل كل من تراهم عنه فيخبرونها أنهم رأوا شيئاً مشابهاً يتجه مع تيار المياه إلى الشمال. كان النيل قد حمل التابوت حتى الدلتا وما زال يدفعه حتى وصل إلى البحر. وفي البحر أخذت الأمواج التابوت حتى رسى على شاطئ جميل مليء بالأشجار في مدينة جبيل الحالية بלבنا. وكان يحكم هذه المدينة في ذلك الوقت الملك مالكندر والملكة عشتارت. ورسى التابوت عند إحدى الأشجار التي كبرت فجأة وترعرعت وازدهرت وتفرعت أغصانها وأوراقها فأصبحت شجرة جميلة واخفت التابوت تماماً داخل الأغصان والأوراق والزهور.

عندما وصلت عزة إلى الدلتا توجهت إلى معبد الآلهة في بوتو؛ حيث أخبروها أن التابوت خرج من النيل ودخل البحر فتوجهت بدورها أيضاً إلى البحر تصارع الأمواج وتسبح في كل مكان تبحث عن تابوت زوجها حتى أعيأها التعب وحملتها الأمواج إلى نفس الشاطئ لمدينة جبيل. وهناك وجدها مجموعة من الفتيات فاحتفلن ورحبن بها. ورأت عزة أن تكافئن بأن تعلمن الكثير من أمور الأنثى مثل تصفيف الشعر ووضع الزينات والزهور فحولتهن إلى فتيات رانعات الجمال. ولما عادت الفتيات إلى القصر بهذه الهيئة رأتهم الملكة عشتارت وتعجبت وسألتهن فأجبنها بأن سيدة جميلة على الشاطئ هي التي علمتهن هذه الأمور. فأمرت عشتارت

بإحضار السيدة الجميلة فأحضرها إلى القصر وطلبت منها عشتارت أن تبقى معهم لتعلمهم مما تعرف وتعتني بابنها. أخفت عزة (إيزيس) شخصيتها الحقيقية عنهم وبقت معهم في القصر واعتنت بابن عشتارت الصغير. وأحبت عزة الطفل كثيراً وأرادت أن تهبه الأبدية. كان لا بد من إيقاد نيران مقدسة تحرق بها الجزء الإنساني في الطفل. فبدأت في فعل هذا وأخذت تقرأ التعاويذ. وعندما رأت عشتارت مشهد ابنها في النيران صرخت من الفزع والرعب، ولكن عزة (إيزيس) طمأنتها وكشفت عن شخصيتها الحقيقية، فتعجب الجميع وفرحوا جميعاً بها وأقاموا الاحتفالات بوجود الآلهة عزة حفيدة رع بينهم. وأرادوا أن يعطوها الهدايا، ولكن عزة رفضت كل الهدايا وطلبت فقط الشجرة التي يختفي داخلها تابوت وزير. فلبوا طلبها وحملوا الشجرة في مركب كبير وقاد المركب ابن الملك مالكاندر ليعود بعزة (إيزيس) إلى موطنها الأصلي مصر حسب رغبتها ورافقها حتى الدلتا. وتوجهت عزة لتصلي في أحد المعابد وتركت الشجرة بين مجموعة من الأشجار ولكن الحظ السيئ يأتي بست في رحلة صيد ويلمح الشجرة الكبرى فيقترب منها فيلاحظ بريق ذهب فيزيح الأغصان فيكتشف التابوت فيجن جنونه ويفتح التابوت ويقطع جسد أخيه 14 قطعة ويلقي بها في مياه النيل للتماسيح لتبتلعها وهو يصرخ بجنون معلناً أنه قتل أخاه. لكن التماسيح كانت تقترب من الأشلاء ثم تبتعد لإحساسها بأنها أشلاء إلهية، فظلت الأشلاء سليمة في مياه النيل. وعندما عادت عزة (إيزيس) ورأت الدماء في كل مكان صرخت من الفزع وجرت إلى الصحراء تبحث عن بقايا زوجها وكانت تساعد سبعة عقارب ولكنها لم تجد شيئاً في الصحراء. فتوجهت إلى المياه، أخذت تغوص وتبحث عن الأشلاء وكانت تساعد ربة الأسماك (حات محبت) واستطاعت أن تجد 13 جزءاً من زوجها ولم تستطع أن تجد الجزء الرابع عشر وهو الجزء الذكري. وخيطة عزة (إيزيس)

الأجزاء جميعها وصلت للإله رع أن يعيد الحياة إلى زوجها. فوافقها الإله رع على ذلك وبعث الروح في الجسد المسجى. وعندما بعث وزير (أوزيريس) مرة أخرى طلب من الإله رع أن يرسله إلى العالم الآخر ليقيم محاكمة يحاكم فيها ست والآخرين من مرتكبي الجرائم والسيئات والشرور، وأن يجازي أصحاب الأفعال الحسنة. ولكن عزة اعترضت لأنها كانت تريد ابناً من زوجها. فأجابها وزير (أوزيريس) أنها ستحمل منه ولكن ليس عن طريق الاتصال الجسدي، ولكن بالروح القدس. وحملت عزة فعلاً من وزير بالروح القدس وولدت ابناً نبيلاً أسمته حور (حورس) في الأيام الخمسة الخارجة عن السنة.

كان ست قد استولى على حكم مصر وعاث في الأرض فساداً. ولكنه لم يستطع النيل من المخلصة الطاهرة عزة فقد رفضته وكرهته واتهمته بقتل زوجها، وقررت عدم الزواج والحياة لتربية حور. كان حور ينمو ويكبر يوماً بعد يوم في عناية أمه عزة وجدته رع. ولكن كان يجب أن يعي دوره في الحياة، وهو الانتقام من عمه وإعادة الحق وحكم البلاد بالعدل والقسطاط. فزارته يوماً في بيته روح أبيه وزير. وأطلعته على قصة أبيه مع عمه، وعن واجبه تجاه ذلك. وتكررت زيارات روح وزير (أوزيريس) السرية لابنه حور لتأكيد الدور الموكل إليه. وكبر حور واشتد عوده وقويت عنده روح الحق والانتقام لأبيه، وإعادة حكم البلاد بالعدل. وبدأت المعارك بينه وبين عمه ست.

تستمر الأسطورة لتحكي كيف كانت جيوش حور تلتقي بجيوش ست عدة مرات وفي مناطق مختلفة من مصر. وكيف كانت المعارك المستمرة بينهم تنتهي دائماً لصالح حور. وهناك نسخ مختلفة من هذه المعارك. أشهرها هي التي فقد فيها حور عينه، ثم أعطاه الإله رع عينه بدلاً منها. وهي العين المشهورة التي أصبحت

من أهم رموز مصر القديمة والحديثة أيضًا، وأصبحت في العالم كله رمزًا شهيرًا للحماية من الشرور. وهذه المعركة دارت رحاها في إدفو. وكان هناك نزال مستمر بين ست وهور يتقمص فيه ست أطوارًا مختلفة، فهو مرة ثعبان عملاق، ومرة في شكل وحش ناري. وكان حور يظهر في شكل قرص شمس مجنح، وشكل صقر. وتقول الأسطورة إن الصراع بين الاثنين مازال مستمرًا.

كان الصراع يأخذ شكلًا قانونيًا أيضًا فتتصب محاكمات لمتابعة القضية، وكان يظهر لست بعض الاتباع من الآلهة يدافعون عنه لأنه قوي يستحق أن يكون حاكمًا، أما حور فلا يزال صغيرًا. وكان ست يهدد الإلهة بقوته فيخافون منه. حتى رع نفسه انحاز في بعض الأحيان لست بسبب حبه بأنه قوي والحكم يحتاج إلى شخص قوي، ولكن الآلهة غضبت على رع لانحيازه للقوة وأن معابده أصبحت فارغة لا يزورها البشر بسبب موقفه هذا، فغضب رع وخرج من المحكمة مقاطعًا. فذهبت إليه حتحور وتدلت عليه بأنوثتها الطاغية ففرجت عنه وأعادته مرة أخرى إلى المحاكمة. وتستمر الأسطورة لتذكر حيل عزة (إيزيس) الكثيرة في الإيقاع بست لينطق بالحقيقة. فيأخذ الصراع مرة شكلًا حربيًا، ومرة شكلًا قانونيًا كصراع بين القيم والمبادئ، ومرة أخرى حيل وتفانين. ولكن الأسطورة تصر على أن حور سينتصر في النهاية ويقضي على ست ويخلص العالم منه ومن أعوانه.

هذه تمثل الأصل الحقيقي إلى المخلص المنتظر الذي سيقضي على الشر بشكل مباشر في كل الديانات السماوية فيما بعد. في الديانة اليهودية، ثم المسيحية، ثم الإسلام على شكل مهدي قادم يقضي على الشر.

تحليل الدلالات

تعتمد الأسطورة على صراع بين القيم.

أولا رفض رع التعددية الألوهية من ناحية، وغريزة الأمومة التي تفاقمت عند نوت من الناحية الأخرى. هذا صراع بين قيم خيرة ولكنها متعارضة. ليس فيها خير وشر، والخاسر فيها لم يظلمه أحد. وهي درجة راقية جدًا في الدراما. فمنع رع نوت من الإنجاب له مبرراته، وإصرار نوت على الإنجاب له أيضًا مبرراته. حتى استطاع تحوتي حل المعضلة.

والصراع الأهم هو رابطة الأخوة من ناحية، وحب المرأة من ناحية أخرى. وهذا الشكل من الصراع كان طول وجود البشرية موجودًا. فقد وجد في قصة قابيل وهاويل. فهما ولدا آدم أبو البشر. كانت هناك قسمة للزواج. فكان على هاويل أن يتزوج الفتاة التي ولدت مع أخيه قابيل كتوعم في بطن واحدة، وكان على قابيل الزواج بالفتاة التي ولدت مع أخيه هاويل كتوعم في نفس البطن. ولكن الغيرة والحقد دفعت قابيل أن يطمع في خطيبة أخيه هاويل ويقتله ليتزوج بخطيبته. وقد كان له ما كان. أما في الأسطورة المصرية فإن القتل لم ينجح في تحقيق أهداف القاتل لأخيه. وفي الأسطورة المصرية كما في كل ما تتبعها يعد حب المرأة هو الأسمى والأقوى على كل أنواع الحب الأخرى، ويثبت أنه حتى أقوى من الأخوة.

وهذا الصراع لا زمن له. فهو ليس ابن عصر محدد من العصور، بل هو موجود في كل عصر بل وفي كل حضارة. هو ربما الصراع الوحيد الخالد خلود الفكر.

فرائعة شكسبير في القرن 17 (هاملت) (بعد الأسطورة المصرية بحوالي 6 آلاف سنة) نجد نفس التركيبة الدرامية. الأخ

(كلاوديوس) الحاقد يقتل أخاه هاملت طمعاً في زوجة أخيه (جوتروت) ويستولى على عرشه أيضاً، تماماً كما كان ست يخطط. والمدهش أن اسم عزة (إيزيس) يعني في اللغة القديمة الحكم⁹¹. أي أن المصريين وحدوا تماماً بين طمع ست في المرأة وطمعه في الحكم، وأصبحت عزة (إيزيس) هي التجسيد للمعاني المجردة من الحكم والحب، كما لو كانا معاً شيئاً واحداً لا يتجزأ، وكان يرمز لها أيضاً بكرسي العرش. هنا تتطابق الدرامتان تماماً عند شكسبير وعند المصريين القدماء. ويستمر التطابق المدهش عندما نكتشف أن الابن عند شكسبير وعند المصريين القدماء كان منوطاً به إعادة الحق وتطبيق العدالة الضائعة. ولكن المذهل هو أن يزور شبح الأب وزير ابنه ليعلمه بقدرة ودوره. كما يزور شبح الأب هاملت ابنه هاملت ليعلمه بدوره. هنا تتطابق الدرامتان تطابقاً مدهشاً يجعل مسألة الصدفة غير كافية بالمرّة كتفسير. ولكن تظل الحقيقة أن هذه الدراما هي دراما كل عصر وكل مجتمع وكل حضارة. فهي بدون مبالغة أم الأساطير.

يتبقى أن جوتروت في مسرحية شكسبير (زوجة الملك هاملت الذي قتل) كانت سلبية تماماً في الأحداث. كما أن هاملت نفسه كان أيضاً في غاية السلبية ولم يستطع فعل شيء سوى تأليف مسرحية تعبر عن الأسرار الخفية، وكان موت كلاوديوس والأم بمحض الصدفة. أما في الأسطورة المصرية فقد كانت عزة وحورس أكثر إيجابية، ولم تترك الأمور لانتقام الصدفة، بل جاءت الشجاعة والمروءة والصراع النبيل لتعدل الأوضاع.

⁹¹ وهو يعني في العربية القديمة أيضاً الحكم. نطق الآلهة المصرية باللغة المصرية القديمة يقربها من قلوبنا ويفهم معانيها؛ لأن اللغة المصرية القديمة والعربية لغتان شقيقتان والتشابه بينهما كبير جداً مما يسهل علينا أموراً كثيرة.

تحليل لحقيقة ست

لقد تعودنا على رؤية الشيطان كشر مطلق. وعندما نطلق على ست لقب إله الشر فنحن نحوله بالتالي إلى شر مطلق. ولكن الحقيقة أن موقع ست في الأسطورة كان أكثر غنا وتعقيدًا من ذلك. فنحن نلاحظ أنه كان يملك حججًا تقنع البعض. وأن حججه أقنعت حتى الإله رع نفسه بعض الوقت. وكان ست إلهًا عند المصريين تقدم له القرابين. بل إن بعض الملوك حملوا اسمه مثل: سيتي الأول والثاني.... كان الجيوش المصرية تقسم إلى أقسام يحمل بعضها اسم ست. كيف نستطيع تفسير ذلك؟

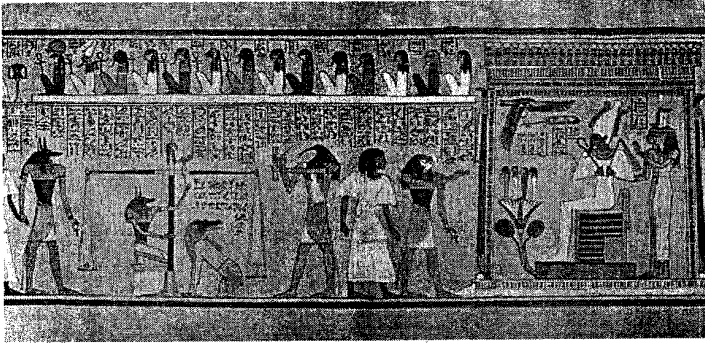
كان ست يتحجج بكونه قويًا. وأنه أحق بالحكم لأنه الأقوى. وأن هذه الحجة كانت مقنعة حتى لبعض الآلهة. ومن هنا نستطيع أن نرى أن الصراع بين حور وست لم يكن في بساطة وسطحية الخير والشر، بل كان أكثر عمقا. كان صراعًا بين الشرعية والقوة. بين شرعية تفتقر إلى الجبروت، وبين جبروت يفتقر إلى الشرعية. وهنا نستطيع أن نقرب أكثر من حقيقة الصراع. ونستطيع من خلال هذا التصنيف أن نفهم لماذا ظل ست طول الوقت مطلوبًا ومرغوبًا في وجوده. لم يكن شرًا سهل حذفه، بل قيمة مطلوبة، ولكن يجب الحذر منها. والأسطورة المصرية التي تحتم فوز حورس هي في الحقيقة تعبر عن ميل الحضارة المصرية والفلسفة المصرية تجاه جانب الشرعية أكثر من ميلها تجاه جانب الجبروت.

ولهذا من الأدق أن نصف ست ليس بإله الشر بل بإله القوة. ووزير وحورس بالحق. لقد كان صراعًا بين القوة والشرعية.

المحاكمة

كما ذكرت الأسطورة فإن وزير الضحية الذي قتل غيلة طلب من جده الأكبر رع أن يتركه في الآخرة ليقوم محاكمة لمحاكمة الأشرار أمثال أخيه ست، فيكافئ الأخير بجنة، ويعاقب الأشرار بنيران مقدسة.

صورة 5 المحاكمة



هذه الصورة من كتاب الموتى، وتمثل محاكمة ما بعد الموت.

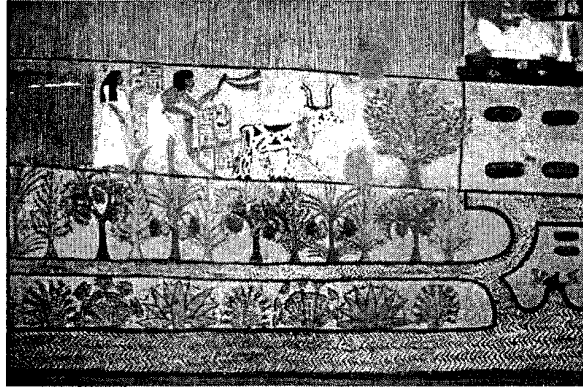
يرى الإله وزير (أوزيريس) جالساً على عرش جهة اليمين. خلف الإله وزير ترى الإلهتين عزة (إيزيس) ونبوة (نفتيس). نجد عددًا من الآلهة والأشخاص الأخرى هي بالترتيب حورس، زوجة الكاهن أني، تحوتي، حيوان الملتهمة، أنوبيس، أنوبيس مرة أخرى، أني الكاهن صاحب البردية.

يلاحظ أن وزير هو الوحيد الجالس على العرش، وبقية الآلهة تقوم بالعمل، مثل إحضار المتوفي، وضع قلبه على الميزان، إبلاغ وزير بالنتيجة. ولهذا فإن بعض الكتاب يلقبهم بآلهة من الدرجة الثانية.

والحقيقة ان هذه المعادلة تساوي تقريبًا التصور الحالي للإله والملائكة في الديانات الحديثة. فهناك إله واحد خالق لكل شيء وهناك ملائكة وهي كائنات ذات قوى خارقة وإن كان لكل منها له دور محدد. ويقومون بالأعمال التي يؤمرون بالقيام بها.

يرى في المنتصف الميزان. ويوضع قلب المتوفى في ناحية وتوضع الريشة في الناحية الأخرى. فإذا رجحت كفة القلب كان هذا إعلانًا بزيادة السيئات، أما إذا تعادلت الكفتان أو زادت الريشة فيكون هذا إعلان بزيادة الحسنات. ويعاقب الأشرار بفعلين: أولاً أن تفترسهم الملتهمة، ثانياً يلقون في بحيرة من النيران تسمى النيران المقدسة. أما الأخيار فجزاؤهم جنة أيارو. وهي أرض خصبة مليئة بالخيرات. وهي كما ترى في الصورة جنات تجري من تحتها الأنهار.

صورة 6 جنة أيارو التي يعد بها وزير الأخيار. يلاحظ أنها جنات تجري من تحتها الأنهار.



عرفت البشرية نظامين من الأديان وذلك منذ القدم. هما النظام الهندي والنظام المصري. النظام الهندي يبنى فهم الموت فيه على أنه تناسخ للأرواح. أي أن روح المتوفي تعود في جسد مولود جديد.

أما النظام المصري فهو النظام المبني على أساس أن بعد الموت محاكمة للحسنات والسيئات وجنة ونار. والنظام المصري يتفق في تفاصيله الشديدة مع الأديان السماوية الثلاثة. حتى الميزان بكفتيه حيث الريشة والقلب مازال معتقدًا معترفًا به دينيًا حتى اليوم.

المخلص. أو المهدي المنتظر.

تعتبر أيضًا هذه الأسطورة من الأساطير الشعبية والدينية المنتشرة في المنطقة العربية، بل والشرق الأوسط (الدائرة المصرية). وهي أسطورة تتخلل الأديان وتتسلل منها لتظل موجودة. فهي لا تؤيد دينًا معينًا ولا تتناقض معه. بل يأتي الدين معتمدًا عليها لينهيها، فنجد أن الدين انتشر، ولكن الأسطورة لا تزال باقية تكون عمادًا للدين الذي يليه وهكذا دواليك.

ظل المصريون طول حضارتهم القديمة يؤمنون بمجيء حور وانتصاره النهائي على الإله الغاشم ست⁹².

جاء اليهود بعد ذلك⁹³ وتعددت أنبياءهم ولكنهم ظلوا طول الوقت ينتظرون ظهور ابن الله المخلص. (كما تنص عليه عقيدتهم) وعندما ظهر المسيح لم يعترفوا به وظلوا على إيمانهم بأن ابن الله مازال منتظرًا.

وعندما ظهر عيسى ابن مريم كانت الناس تنتظر مقدم ابن الله المخلص. حتى بعد الاعتقاد بأن المسيح هو ابن الله المنتظر وأنه صلب، فقد ظل الاعتقاد بأن مشهد انتصار ابن الله على الشيطان مازال منتظرًا وأن السيد المسيح سيعود مرة أخرى ويصارع رمز الشر الذي أخذ اسم (المسيح الدجال) وأن ابن الله سيقضي على

⁹² نحن نفضل هنا استعمال كلمة الإله الشرير بدلا من تعبير إله الشر. فالإله الشرير اعتراف بألوهيته وأن الشر صفة له. أما إله الشر فمعناها أنه قادم من عالم الشر. وهو عالم يختلف عن عالم رع. بل إنه عالم لا وجود له في التصور المصري حتى اليوم. وكلمة إله الشر تحول الصفة إلى كينونة. في حين أن ست لا يزال يحتوي على انتمائه إلى رع الخير.

⁹³ من الصعب تحديد تمامًا متى ظهر اليهود، وذلك لتناقض ما تذكره التوراة مع ما يذكره التاريخ. ولكن من الممكن اعتبار تاريخ كتابة التوراة هو بداية اليهودية. وهو تاريخ يعود إلى حوالي 450 سنة قبل الميلاد.

رمز الشر ويحقق العدل النهائي على طريقة تمامًا على طريقة حور وست. ألا يدعو هذا للتساؤل؟

والآن وبعد ظهور الإسلام، وبعد إعلان الرسول (صلي الله عليه وسلم) أنه آخر الأنبياء، وأنه لا نبي بعده. رغم كل ذلك تظل أسطورة المهدي المنتظر الذي سيظهر يومًا ما، ويحقق عدالة إلهية لم تتحقق بعد. وأنه سيقتل عدوًا ما ذا بأس وقوى خارقة، وهو أيضًا يحمل اسم المسيح الدجال الذي هو يجسد الشر تمامًا على طريقة حور وست. ألا يدعو هذا للتساؤل؟

أليس هذا هو نفس المعتقد؟. واضح أنه رغم الديانات السماوية وتعددتها وتتابعها، إلا أن هناك شيئًا واحدًا فقط ظل طول الزمن في شعوب المنطقة العربية والشرق الأوسط يخترق كل المعتقدات والديانات بشكل مذهل، وهو صراع حور وست الأسطوري المتجاوز للزمن.

والمدهش أن اسم (ست) انتقل إلى الآرامية (ستان)، وهو مازال موجودًا في اللغات الأوروبية بهذا الاسم. ونحن الآن ننطق بالعربية كلمة شيطان كتعبير عن منبع الشر. وطبعًا التشابه يلح بإصرار على أن هناك علاقة بين الكلمتين، وأن التشابه أقوى من أن ينسب إلى المصادفة.

تعتمد هذه الأسطورة عزة ووزير (إيزيس وأوزوريس) على ثالوث وهو وزير، عزة، وحور.

أي الأب والأم والإبن. وهي تسمى أيضًا في الديانة المصرية القديمة بالعائلة المقدسة (كما تسمى في المسيحية). والصور التي تظهر عزة وحور تتطابق تطابقًا مدهلًا مع صور العنراء والطفل في صورتين 9،8.



صورة 8

الشكل الأول الدولة القديمة والثاني العصر البطلمي

عزة والطفل حور (إيزيس وحورس)

الصورتان مصريتان وقبل ظهور المسيحية

صورة 9 العذراء والطفل، عصر النهضة بوتشيلي



والتشابه بين الأسطورة المصرية والقصة الدينية يصل إلى أدق التفاصيل. فقد حملت عزة (إيزيس) من الإله وزير (أوزوريس) ليس عن طريق مضاجعة جسدية ولكن عن طريق الروح القدس. وكلنا نعرف أن السيدة مريم العذراء حملت أيضًا من الإله بنفس الطريقة، وهي الروح القدس.

وهناك شيء آخر يجعل التطابق أكثر قوة وهو أنه جاء في العهد الجديد ما يلي.

إنجيل متى، 2، 14

"فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر

15 وكان هناك إلى وفاة هيرودس. لكي يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل: من مصر دعوت ابني"

وهذه الآية تدل على أنه كان هناك اعتقاد منتشر قبل ميلاد المسيح أن ابن الله قادم من مصر. وأن هذا الاعتقاد ساقه نبي ما. وأن الملاك طلب من يوسف التوجه إلى مصر لكي تتحقق النبوءة. أي نبوءة كانت في هذا الزمن بهذا المحتوى؟ لا نجد أمامنا سوى معتقد واحد وهو حور ابن الإله الذي سيخلص العالم من شرور ست ويقوم العدل الإلهي.

والذي يجب ذكره أن ليلة 24 ديسمبر (ليلة عيد الميلاد المجيد التي يحتفل بها تقريباً في كل العالم) كانت طول الثلاثة آلاف سنة ق.م. يحتفل بها في مصر القديمة على أنها ليلة ميلاد الإله الأعظم رع. وكانت تسمى (مس رع) والسبب في ذلك أن طول وقت النهار وقصر الليل صيفاً، وطول الليل وقصر النهار شتاء يجعل ليلة 24 ديسمبر هي أطول ليلة، وأن النهار الذي يليها هو أول نهار يبدأ في الإطالة. فاعتبر المصريون أن هذه الليلة هي ليلة الميلاد الطبيعي للإله رع. وكانت النهاية للسنة الشمسية، وكان يليها خمسة أيام (أو أربعة) يعتبرها المصريون أيام خارج السنة تقوم فيها في احتفالات في كل أنحاء البلاد لمولد رع وكان يقام احتفال كبير في كل البلاد.

وكما نكرت الأسطورة فإن الأيام الخمسة (أو الأربعة) التالية كانت تضاف إلى الاحتفالات بميلاد رع فهي أيام إضافية أوجدها تحوتي لتولد فيها الآلهة الخمسة التالية⁹⁴.

وفي العصر البطلمي وعندما احتلت عقيدة الإله وزير (أوزوريس) مكانة رع، كان يحتفل في هذا اليوم على أنه ميلاد الطفل حور⁹⁵. وإذا ترجمنا كلمة ميلاد الطفل إلى اللغة المصرية في هذا الوقت (البطلمي)، وهو كان اسم الاحتفال في هذا الوقت، لوجدنا مفاجأة مذهلة. إن الترجمة الحرفية الدقيقة واسم العيد هو (قراطس مس)⁹⁶.

⁹⁴ ولد حورس في اليوم الثاني من الخمسة الزيادة، فيكون العدد مع الأربع السابقة خمسة.

⁹⁵ الديانة المصرية القيمة، يوروسلاف تشرنين ص

⁹⁶ Yasser Shehata, Seminar " Die alte ägyptische Rreligion" Universität Hamburg.

تحليل نظرية الخلق

العجيب أن نظرية الخلق في العهد القديم تتشابه إلى حد مع النظرية المصرية. ففي العهد القديم تبدأ النظرية كالاتي:

1: 1 في البدء خلق الله السموات و الأرض

1: 2 و كانت الأرض خربة. و خالية و على وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه⁹⁷.

التشابه واضح جدا أنه في البداية كان الفوضى والمياه والظلام، ثم بدأ النظام مع بداية النور واليابسة.

والذي يسترعي الانتباه أن الخلق في النظرية المصرية بدأ من الماء (نون العظيم)، ويقول تشرني ونحن نشترك معه في هذا التحليل أنه يبدو أن القوى الإلهية والحياة⁹⁸ كانت متضمنة طول الوقت في نون.

وهذا يذكرنا بالآية الكريمة (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا) وعلماء الفلك الذين يبحثون عن حياة خارج الكرة الأرضية يبحثون عن كوكب به مياه كشرط أساسي لظهور الحياة.

والفوضى في النظرية المصرية هي وجود المياه والظلام. والنظام والحياة في النظرية هو وجود تناقضات: مياه - يابسة، ظلام - نور.

⁹⁷ العهد القديم، سفر التكوين، 1، 1.

⁹⁸ الديانة المصرية القديمة، يوروسلاف تشرني، ت. د. أحمد قدرى.

وهذا النظام في النظرية المصرية هو بداية الحياة. وهو ما ظهر بعد ذلك في الأديان السماوية. وكما تذكر النظريات المصرية فإن الخلق في تاسوع منف كان عن طريق النطق بالكلمات.

وهو ما أكدته الأديان السماوية فيما بعد بأن الخلق كان عن طريق النطق بالكلمات. تقول التوراة:

"1: 3 وقال الله ليكن نور فكان نور.

1: 4 ورأى الله النور إنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة.

1: 5 و دعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلا وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

1: 6 وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه"⁹⁹.

التشابه يدعو - بالفعل - إلى الدهشة.

⁹⁹ العهد القديم، سفر التكوين، 1، 3.

ديانة أتون والإله الواحد

حدث في الأسرة 18 انقلاب خطير في الدين في مصر. فقام فرعون يسمى إخناتون بتغيير كل النظام الديني القديم وأعلن عن ديانة جديدة لإله أوحد يدعى أتون.

كان أتون جزءًا من التراث الديني المصري. فقد ذكر في الدولة القديمة في متون الأهرام قبل إخناتون بألف سنة. هذا يعني أن الأثريين الذين يحاولون أن ينسبوا ديانة أتون إلى تأثيرات سامية وهم يلمحون بذلك إلى تأثيرات يهودية يرتكبون أخطاء تاريخية جسيمة. وهذه المحاولات تبدأ في وضع علامات استفهام على نفرتيتي فيكتب البعض (ربما كانت نفرتيتي من أصول سامية) ولا نعرف لماذا هذا الافتراض أساسًا. فلا يوجد أبدًا أي مبرر له. فهم أولاً يشككون في مصريتها لجمالها الخلاب من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هذه بداية للإيهام أن ديانة الإله الواحد ليست إبداعًا مصريًا، بل هي نقل عن إبداع يهودي كما هو متصور حتى الآن. على كل فإن نسب نفرتيتي المصري معروف، وأصول ديانة أتون في التراث المصري مثبت تمامًا.

ولكن ماذا أضاف إخناتون؟

أضاف إخناتون أن أتون هو الإله الوحيد. وأنه ليس كمثله شيء. والمعروف أن كل الآلهة الأخرى كانت تصور على شكل بشر أو حيوان أو طيور. ولكن أتون لم يصور على أي شكل، بل ظل مجردًا. والصورة الوحيدة التي تعبر عنه هي أقرب إلى التجريد منها إلى التشخيص وهي قرص الشمس وأشعته التي على شكل أيادٍ تعطي البركات. ولم يكن إخناتون إلهًا للشمس مثل رع، بل كانت الشمس هي أهم رمز لقوته. ولم يكن إخناتون في حاجة إلى كهنة.

فقد كان كل يستطيع اللجوء إليه بدون وساطة، وحتى بدون معابد. ولهذا فقد كانت خطوة غاية في الجرأة والتقدم. كان هذا يعني إنهاء مهمة الكهنة تمامًا. وإعلان أن الإله واحد وله رسول واحد وهو إخناتون الذي كان يعتبر نفسه الرسول الوحيد لآتون. كانت تعاليم هذه الديانة تتفق في الكثير منها مع الديانات السماوية التي تبعتها وخاصة الإسلام. وكان كل هذا إضافات إخناتون الخاصة.

كل هذا يطرح تساؤلات مهمة. كيف يمكن تفسير هذا التشابه المدهش بين الديانة المصرية الغارقة في القدم، وبين الديانات السماوية الحديثة نسبيًا؟

هناك احتمالان لإجابتي:

من الممكن اعتبار هذه الأساطير والمعتقدات المصرية والتي أيدتها بل بنيت عليها الديانات السماوية أنها حقائق إلهية أوصلها الله لشعب مصر بطريقة ما، ربما كانت هذه الوسيلة أنبياء. وهذا يعني ببساطة أن المصريين هم أول شعب خصه الله بنقل المعارف السماوية إلى البشر. وقد فعلوا.

أو أن الثقافة المصرية تمتلك خاصية خاصة تجعلها تظل رغم كل التقلبات الحضارية والتغيرات الثقافية وذوبان أفكار واختفاء نظريات وانقراض معتقدات فإنها تظل موجودة وتطفو دائمًا على السطح، على كل سطح، بتفاصيلها منذ البداية حتى الآن.

أذكر أنني عندما كنت في هامبورج، وفي أوقات أعياد الميلاد حيث الزينات في كل مكان في المدينة الجميلة وأشجار عيد الميلاد؛ في

كل المحلات والبيوت والشوارع والمقاهي والمطاعم. والناس
ينتابهم جنون شراء الهدايا لذويهم، كان يتصل بي صديقي العلامة
والفيلسوف المصري الذي لن أنساه أبدًا، والمقيم في هامبورج (كرم
خلة) ليهنئني بعيد الميلاد. وكان يقول:

كل سنة وأنت طيب بمناسبة عيد ميلاد حورس يا ياسر.

نظرة على الديانة اليونانية

لفهم البعد المثالي الأخلاقي للديانة المصرية يجب علينا وضعها في تحليل مقارن. وربما كانت الديانة اليونانية هي أفضل اختيار لعدة أسباب.

تمثل اليونان الحضارة التالية للحضارة المصرية. أي أنها أحدث منها. ولأن الاحتكاك الحضاري بين الشعبين كان قوياً. والاستفادة المشتركة كانت ممكنة. ولأن الحضارة اليونانية تعتبر في أوروبا بداية الفكر العقلي بداية الفلسفة، والحكمة والديمقراطية ... إلى آخره.

نظرية الخلق عند اليونان¹⁰⁰

"كان العالم هيولي أي يعيش في فوضى مظلمة، فلم يكن هناك ضوء. وبعض النظريات تعتبر هذا الهيولي (غير المحدد) هو الإله الأول، وبعض النظريات تعتبر أن هناك إلهًا يتحكم في هذا الهيولي (الفوضى).

وكان الإله (خيوس)¹⁰¹ يجلس على العرش مع زوجته الزنجية ربة الليل وكان اسمها نكس. وكان وجهها وجسمها وثوبها الأسود ينشر الظلمة في كل مكان. كان لكاوس ونوكس ابن اسمه إربوس. ومع مرور الزمن أحس الزوجان بالملل فاستدعى كاوس الأب ابنه وشاوره في الأمر. فهقه إربوس وصارح أباه بأنه لم يعد يصلح لحكم العالم لأنه شاخ. ومن الخير له ومن الخير للكون أن يتترك الحكم لابنه الذي هو بلا عمل. وأن الأب لا بد أيضًا أن يتنازل عن زوجته نوكس لابنه. وغضب الأب، ولكن ابنه عبث به وخلعه واغتصب أمه واتخذها زوجة له. عاش إربوس دهورًا طويلة مع زوجته التي هي أساسًا أمه وأنجبا إيثير (الضوء) وهيميرا (النهار). وعندما كبر الابن والابنة تأمرا على خلق أبويهما عن الحكم والسيطرة على العالم. وقد أفلحا في ذلك. فلما نجحا تحقق النور في أفاق العالم وظهرت الفوضى واضحة، فقرر أن يخلقا شيئًا جميلًا. كان لهما ابن اسمه إيروس (إله الحب) فاستدعياه للتشاور معه. وبعد المشاورات استقروا على خلق البحر (جايا) والأرض (جي) وفرحوا بالخلق الجديد. ولكن إيروس لم يكتف بالأرض الشاحبة فتناول سهامه وأخذ يطلقها فتشقت الأرض عن خضرة ووديان وأنهار وأسراب نحل وطيور وغزلان. وبقيّة المخلوقات. وسعدت

¹⁰⁰ أخذت هذه النظرية من كتاب أساطير الحب والجمال، دريني خشبة.

¹⁰¹ كلمة خيوس كلمة يونانية تعني بالعربية الفوضى.

الأرض ولكنها تمتنت لنفسها زوجًا ذكرًا فخلق لها أورانوس الذي هو السماء.

طمع الزوجان جي الأرض وأورانوس في الحكم فانتزعا السلطان من أثير وهيميرا، واستبدا بالحكم من دونهما وكانا يعيشان فوق قمة جبال الأولمب. وأنجبا اثني عشر ماردا من الجبارين. كان كل منهما في قوة أورانوس. وشدة بأسه. لدرجة أن أبوهم فرغ منهما فكان أنه كان يلقي بهما تباعًا في هوة اسمها تارتاروس. حيث ووصدا بالأغلال في أعناقهما قابعين هناك أبد الدهر، وكان هذا لكي يتجنب أن يحدث فيه ما فعله هو بأبويه. وكان قابعا في هذه الهوة ستة أبناء ذكور هم: أوشيانوس، كوبوس، هيربيون، وباتيوس وكرونوس. وكان هناك ستة أبناء إناث هن: إيليا، رها، ثميز، مينوميزين، فوبيه. وفيما بعد استمر الأب أورانوس والأم جي في الإنجاب فأنجبا ثلاثة آخرين من المردة نوي العين الواحدة هم بروننس (الرعد)، ستيروليس (البرق)، أرجيس (أيضًا نوع من البرق). وكان هؤلاء الجدد سيئا في اضطراب شديد في هذه الهوة السحيقة.

ثم استمر أورانوس وجي في الإنجاب فأنجبا ثلاثة أبناء أشد هؤلاء من كل السابقين، فكان لكل منهم مائة ذراع ومائة يد، وهم: كونوس، برياريوس، وجبجز. وكانت جي غير راضية على تصرف زوجها فكانت كل مرة ترجوه ألا يلقي بالأبناء في الهوة ولكن بلا جدوى. نزلت جي إلى الهوة لتحرض أبناءها ضد أبيهم، ولكنهم لم يستمعوا لها، فاختصت بكورونس وأخذت تحرضه وتحضه حتى أقسم لها أن يخلص العالم من شر أبيه. ثم أطلقت أمه جي سراحه وسلحته أمه بمنجل وأرسلته إلى مكان الأب. وانتصر كرونوس على أبيه ووضع الأغلال في عنقه ويديه ورجليه. واحتل مكانه على العرش. وغضب الأب على ابنه وتنبأ له أن يحدث له

تمامًا مثلما فعل بأبيه. وهز كورونوس كتفيه ولم يعبا بنبوءة أبيه. وذهب إلى هوة تارتاروس وفتحها وأطلق سراح إخوته، الذين اتفقوا معًا على طاعته عرفانًا بالجميل. وكانت رها أجمل إخوانه فاتخذها زوجة. وعين كل من أخوته في مكان بالكون ليحكمه.

واستتب الأمر تمامًا لكورونوس، واطمان للحياة. وحملت زوجته، وجاءتها آلام الولادة، فتذكر نبوءة أبيه أن أحد أبنائه سيفعل به ما فعله هو بأبيه. نهض من فورهِ ودخل غرفتها وأخذ الطفل الوليد بحجة تدليله، ثم فتح فمه الكبير الرطب وابتلع الطفل وهو يضحك. والأم تنظر وتتحسر. وكان يحاول أن يداعيها ويذكرها بنبوءة أبيه كورونوس حتى تهدأ. ثم تلد رها مرة أخرى فيكون مصير المولود الجديد هو نفس المصير السابق هو أن يبتلعه أبوه. وتتوالى الولادات ويظل الأب يتخلص من أبنائه بابتلاعهم وهكذا تتجدد حسرتها. ولكن في المرة الأخيرة حينما ولد زيوس، عرفت الأم أنه نكر، وحاولت أن تستشير الحنان عند الأب ولكن بلا جدوى، فأخذت المولود وأعطت الأب حجر ملفوف في فراء ناعم على أنه ابنه وأخذت تشبث به ألا يبتلعه وتبكي بحرقة حتى دفع الأب الغبي بالمولود ولفاقته في معدته وهو يقهقه. ثم ينصرف. فرحت الأم وأسندت ابنها لعرائس الميلوسيات¹⁰². اللاتي كن يسهرن عليه ويربينه ليصير فيما بعد رب المستقبل، وسيد الأوليمب، وجبار السموات والأرض. جمعت العرائس الكهنة الذين كانوا يتعبون ويغنون ويرقصون ويقرعون الطبول ليخفوا أصوات الابن زيوس حتى لا يسمعه الأب. ولكن الأب عرف بالأمر وأخذ يحضر لقتل الابن قبل أن تتحقق النبوءة. ولكن الابن زيوس كان أسرع. فأعد نفسه وذهب إلى لقاء الأب وبدأ النزال الذي انتصر فيه الابن وقبض على صولجان الأب. وعن طريقة معاونة الفتاة ميتيس

¹⁰² بنات من جزيرة ميلوس في بحر إيجه.

أعطى أباه شربة من أعشاب خاصة جعلت الأب يخرج كل أبنائه الذي ابتلعهم من قبل. حتى الحجر الذي ابتلعه معتقداً أنه ابنه زيوس خرج أيضاً وأصبح حجراً مقدساً يزوره الناس. وأخذ زيوس يوزع ملكوت العالم على إخوته.

وتستمر المعارك فقد ثار المردة (الذين هم أعمام زيوس) على حكمه. ونسوا أنه ابن أخيهم كورونوس الذي قهر أباهم أورانوس وأنقذهم من هوة تارتاروس. ولكن زيوس استعان بقوى السيكلوب ذوي العين الواحدة، وهم أيضاً أعمامه الذين كانوا في الهوة. فمدوه بصواعقهم الفتاكة، التي ساعدته في القضاء على بقية الأعمام. أما الجدة جي رية الأرض وزوجة أوروانوس وأم المردة قلم تسعد بانتصار زيوس حفيدها على أولادها فخلقت كائناً بشعاً ماهولاً له في جسده مائة تبنين تنفث النيران وأرسلته ليقتل زيوس الذي هرب من التنين ولجأ إلى مصر. وهرب كل أعوانه واختفوا من التيفون في مستنقعات الدلتا. وسحر زيوس نفسه ليكزن كبشا وزوجته لتكون بقرة ليختفي من التيفون. أبعد مدة قرر العودة لقتل التيفون، فعاد من مصر وانتصر على الوحش. ولكن الجدة جي زاذ غيظها فخلقت جباراً آخر أبشع من التيفون اسمه أنكيلادوس. ولكن زيوس لم يهرب هذه المرة وكانت حرباً شديدة انتصر فيها أيضاً زيوس. ثم كان أن دعا زيزس إخوته وأعمامه بعد أن استسلم له الجميع وأعاد توزيع العالم عليهم. وتزوج أحد المردة بفتاة اسمها كليمين وأنجب منها أربعة مردة آخرين وهم : أطلس، ومينوس، ويومثيوس، وأيمسثيوس. والأخيران هما من خلقا الإنسان. ويومثيوس عادي زيوس من أجل البشر، وسرق النار المقدسة ليهديها للبشر ن ف.إن أن تم تصفيده ودقه في جبال الأوليمب وسلط عليه نسر باشق ينهشه من مشرق الشمس حتى مغربها. واستمر الحال حتى أنقذه هرقل فيما بعد".

تحليل

المثيولوجي المصري أقدم من المثيولوجي اليوناني على الأقل بثلاثة آلاف سنة. ولهذا فإن التشابهات إذا وصلت إلى حد الاقتباس، فإنها ستكون بالتأكيد من المصري إلى اليوناني.

يلاحظ أن البداية وهي الفوضى والظلام في الغالب مستمدة تمامًا من المثيولوجي المصري.

إن الروح المجردة في المثيولوجي المصري، والتي تجعله أكثر ميتافيزيقيا تقل كثيرًا في اليوناني باستثناء الأجزاء المقتبسة. ففي ثامون الأشمونين يتحدث المصريون مجردات مثل الفوضى والظلام وهو الجزء المجرد الوحيد في المثيولوجي اليوناني والذي أخذ بالتأكيد من المصري كما أسلفنا. ويستمر التجريد المصري فيتحدث المصريون عن العمق العظيم (نون ونونت) اللانهائية (حوح وحوحت)، الظلام الدامس (كوك وكوكت)، اللارؤية أو الاختفاء (آمن وأمنت). أما المثيولوجي اليوناني فيغوص بعد ذلك في سلسلة من التصورات الحسية الشديدة الخالية من التجريد والتي تغوص في بحر من نزوات الحروب المتتابعة.

يلاحظ في الديانة اليونانية أن تتابع الآلهة مبني على استيلاء الأبناء على عرش الآباء. وأن هذا لا يتم كخطأ أو جريمة بل كسمة إلهية. وأن القسوة المشتركة من آباء يلقون بأبنائهم في هوة سحيقة أو يبتلعوهم... وأبناء يجيدون إقصاء الآباء وقتلهم والاستيلاء على عروشهم، بل حتى اغتصاب أمهاتهم، كل هذا خارج عن إطار الخطأ والصح أو الحرام والحلال الذي لا وجود له في المثيولوجي اليوناني، بل يعتبر طبيعة آلهة من خلال متابعة قصة نشوء الآلهة اليونانية.

من الصعب جدًا تصور أحداث مشابهة في علاقة رع بأبنائه أو العكس. وأن أسطورة وزير وعزة (إيزيس وأوزوريس) هي بالتحديد مبنية على أساس انتصار الحق على القوة. بل إن تعبير الخير والشر يتفق مع المفاهيم المصرية الدينية تمامًا في حين أنه من خلال الديانة اليونانية لا نجد تصنيفًا للخير والشر والصراع بينهما. فصراع (حور وست)، وحتمية انتصار الحق (انتصار حور) كل هذا يمثل أساس الديانة المصرية. أما في الديانة اليونانية فليس هناك لا خير ولا شر. فكلاهما واحد تمامًا. والنصر في النهاية للأقوى والأكثر ذكاء وخبثًا.

تمتاز الآلهة المصرية بصفات أخلاقية كنموذج يحتذى به من المثاليات المطلقة. مثل: رع الذي لا يعرف الخطأ ووزير (أوزيريس) الطاهر البريء الصادق، وحور(حورس) النبيل الشجاع الطاهر، وطبعًا عزة المرأة العفيفة الطاهرة المخلصة التي تضحي وتبذل المستحيل من أجل حبيبها، بل وتظل مخلصة له بعد مماته.

أما الآلهة اليونانية فهم خطاءون إلى أقصى درجة. فإذا تتبعنا سيرة زيوس فهي خطف النساء ومضاجعة كل من تسول له نفسه وخيانة مستمرة لزوجته هيرا. بل وصل الأمر إلى حد ممارسة زيوس اللواط مع فتى يوناني، وهو ما يعتبر في الثقافة المصرية شيئًا غير متصور على الإطلاق. وأفروديت. آلهة الحب هي أقرب إلى بنت ليل تضاجع الجميع بلا حساب. وسيرة حياة كل منهم هي سلسلة من الخدع والغش المتواصل. حتى إنهم يخرجون تمامًا من إطار الآلهة على الطريقة المصرية ليكونوا مجموعة من الكائنات الفاسقة والتي تمتلك قدرات خارقة. فالألوهية في الثقافة المصرية هي المثل، وهو الجانب المفقود تمامًا في الديانة اليونانية.

من هذه الدراسة المقارنة نستطيع أن نفهم لماذا كتب على المفاهيم المصرية أن تستمر رغم التقلبات الحضارية المختلفة. فيما انقرضت المفاهيم اليونانية تمامًا. المفاهيم المصرية استطاعت لمس الجوهر في الإنسان والتعبير عنه والارتقاء به..

التطور الفكري للإنسان كان من الطبيعي أن يتجاوز المفاهيم اليونانية، وكان أيضًا من الطبيعي أن يتمسك بالمفاهيم المصرية الدينية، فهي مازالت تمثل الجوهر الإنساني.

الفصل السادس

الفن المصري

تحليل اجتماعي

يشغل عصر الأسرات مساحة زمنية غاية في الطول الذي يصل إلى حوالي 3000 سنة. ولهذا فإن الفن في هذه الحقبة تنوع تنوعاً ملحوظاً وإن كانت الصفة المثالية هي الغالبة عليه.

المثالية في الفن

الفنون الإنسانية في حالة تبلورها واستيعابها لأساسيات التشريح والمنظور والتلوين تتراوح حتى الآن بين مدرستين أساسيتين. هما الواقعية والمثالية. ومن الممكن وضع المدرسة الرومانسية مع بعض الاتجاهات الأخرى بينهما.

الفن المثالي هو التعامل مع الأشكال في أرقى صورة لها، بالمقارنة بالواقعية التي تهتم بالأشكال في صورتها الواقعية بدون تطوير أو تغيير.

هذا لا يعني أن الفن المثالي يغير في الشكل، بل هو يحافظ عليه. وهناك تجربة بسيطة خاضها كل شخص منا تعبر بشكل دقيق عن المثالية. وهي تجربة الذهاب إلى محل تصوير لعمل صور ما للذكرى في بعض المناسبات أو للبطاقة الشخصية أو لجواز السفر.

فالمصور الفوتوغرافي يجلس الشخص ليس فقط تحت إضاءة معينة، بل يجلسه في وضع معين. ويضبط الرأس مع الكتفين. ويذهب للرؤية ثم يعود لإعادة ضبط الرأس بتحريكها ملليمترات بسيطة ويرفع الذقن أو ينزلها. ويستمر وقتًا في ضبط وضع الرأس مع الكتفين والجسم. في الحقيقة أن المصور الفوتوغرافي يقوم في هذه الحالة بإيجاد أكثر الأوضاع مثالية من حيث علاقة الرأس بالجسم. وإذا لم يفعل ذلك ستخرج صورة عادية وربما بسبب علاقة الرأس بالكتفين والجسم تضيف شيئًا عبيثًا أو مسحة من السخافة على الشخصية. أما الوضع الذي يبحث عنه المصور الفوتوغرافي فهو الوضع الذي يضيف مسحة من العظمة والاحترام للشخصية. هذا يفرض أن المصور الفوتوغرافي يجيد عمله.

فالفن المثالي في النهاية هو وضع العناصر وخاصة الشخصيات في أرقى صورة لها.

وما هذه الصفات المثالية؟

الصفات المثالية هي: الحركة البسيطة غير العصبية. استقامة الجسد بقدر الإمكان، التعبير غير المبالغ فيه في الوجه واقتصاد شديد في المشاعر لدرجة أبسط أشكال الابتسامة.

والشكل المثالي الذي يصور فيه الشخص لا يعبر عن حالة محددة. فهو ليس وضع يتحدث في الشخص المعني مع أحد. وليس وضعًا يحارب فيه الشخص أحدًا، ولا وضع يكون الشخص فيه في حالة أكل أو شرب. بل هو وضع محايد تمامًا. ويعتبر تلخيصًا لكل حالات الشخص في فترة حياتية معينة. هو وضع يعبر عن جوهر الشخص الكلي، وليس جزئية وقتية محددة. وهذه هي أهم عناصر الفن المثالي. والفن المثالي يوجد بقوة في الفترات التي تمتاز بسيطرة الفكر الديني.

صورة 1 الملكة إليزابيث

صورة 2 الموناليزا.

نموذج للفن المثالي.



والواقعية تختلف تمامًا. فالواقعية هي تصوير الشخصية في لحظة محددة. فنجد الشخص ذا تعبير يعبر عن الدهشة، أو الغضب، أو الإجهاد أو الخوف مثلاً. أو نجد الشخص في حالة أكل فاتحاً فمه ومظهراً أسنانه، أو في حالة قهقهة، أو في حالة إجهاد شديد ويتصبب منه العرق. وتصوير الأشخاص في هذه الأوضاع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفعل وقتي محدد، فهم إما في حالة عمل، أو حوار، أو عراك أو غيره. في حين أن التصوير المثالي لا يعبر عن فعل زمني ما بل هو متجاوز للزمن. والفن الواقعي يظهر غالباً في فترات ما قبل الثورات الاجتماعية.

صورة 3، نموذج للواقعية، فرانس هالس، امرأة من هارلم



والفن الرومانسي هو حلقة بين المثالي والواقعي. هو فن يظهر حالة زمنية محددة. ولكن حالة واحدة. وهي حالة المشاعر الجميلة النبيلة. فنجد انتشار العناصر الجمالية في العمل الفني من نساء جميلات يرتدين ملابس ذات طبيعة رومانسية تظهر جمال المرأة وتهتم بكسرات الملابس الرقيقة، وزهور ومناظر طبيعية خلابة. كما نرى مشاعر إنسانية على الوجوه، ولكنها مشاعر رقيقة تعبر عن الحب والجمال. والفن الرومانسي يعبر في الغالب منه عن الحب وعن الطبيعة. وهو غالبًا ما يعقب الثورات والتحوللات الاجتماعية.

صورة 4 نموذج للرومانسية، فراسوا بوشيه
العاشقان

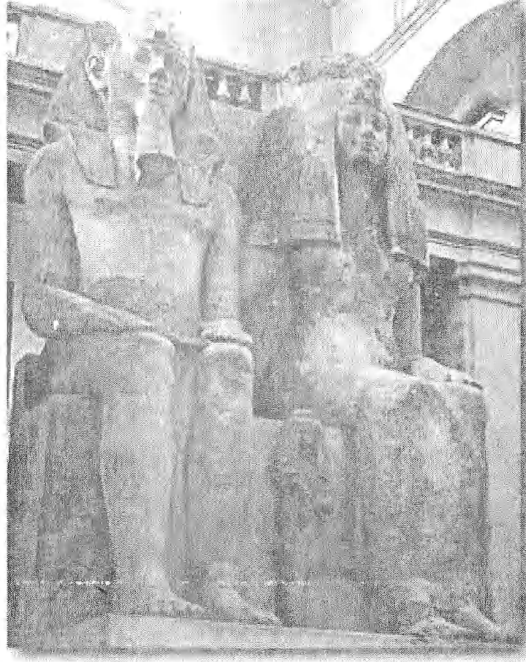


هذه هي أهم مدارس الفن من تصوير ونحت وحفر في التاريخ. منذ بداية الفن حتى الآن.

والفن المصري عرف كل هذه المدارس وخاصة المثالية في غالبية الرومانسية في بعض فتراته، والواقعية بدرجة أقل.

والحقيقة أن الفن المصري كان أول فن مثالي في فترة زمنية كانت تمتاز في كل حضاراتها بما يمكن أن يسمى بالفنون الابتدائية. ومن التحليل الاجتماعي للفن نستطيع أن نصل إلى حقائق لا نصل إليها بطريق آخر. فالفن لا يكذب. البرديات قد تكذب. الكتب قد تكذب ولكن الفن يظل مرآة الحقيقة. وهذا ما سنعتمد عليه في هذا الجزء

صورة 5. أمينوفيس الثالث وزوجته تي. الدولة الحديثة



هذا التمثال العملاق للملك أمينوفيس الثالث أبي إخناتون وزوجته الملكة تي، يعتبر نموذجًا لتدريس المثاليات المصرية. فنرى الاقتصاد الشديد في الحركة. ورغم أن حجارة الجرانيت لم تكن تسمح بحركات كبيرة مثل رفع الأذرع، ولكن واضح أيضًا أن الفنان كان يميل إلى تبسيط الحركة رغم ذلك في تماثل حركات الذراعين والساقين معًا. بل إن الرأس والجسم والساقين والذراعين كل هذه الأعضاء تتجه في اتجاه واحد أمامي، فلا يأخذ الرأس

وضع نظرة جانبيه مثلا كما ظهر بعد ذلك في مثاليات دافنشي في عصر النهضة (لاحظ الموناليزا). يلاحظ أيضا الاختصار الشديد في تفاصيل العضلات والأصابع والملابس لأن التفاصيل تقلل من الجوهري في العنصر وتزيد من المرحلي فيه.

الخصوصية المصرية هي اللمسة العاطفية الرومانسية في المثاليات المصرية. فنجد ابتسامة رقيقة على وجه الملكة والملك معاً. كما نجد حركة ناعمة رقيقة من ذراع الملكة لتحيط خصر الملك في إشارة إلى الحب المتبادل. هذا التمثال العظيم لم ينحت لكي يكون في غرفة نوم الملك والملكة. بل صمم ليكون في معبد الكرنك يراه الشعب ليتعرف منه على الملك وخصائصه وصفاته. لأن هذه التماثيل المقصود منها إرسال رسائل إلى الشعب. كانت هذه التماثيل تصمم من قبل الكهنة لتعكس بدقة وجدية وصرامة المفاهيم والثقافات والأفكار السائدة والمطلوب تعميقها على الشعب. التمثال يخلو تماماً من أي مظهر من مظاهر التخويف أو الإرهاب أو حتى الهيبة. لا يوجد أي شكل من أشكال الأسلحة في صحبة الملك أو الملكة أو بجوارهما. الابتسامة البسيطة والهادئة على وجهي الملك والملكة هي مرسلة إلى المشاهدين من الشعب لتعبر عن طبيعة العلاقة التي يريد الملك والكهنة إيجادها. حركة ذراع الملكة حول خصر الملك تمثل جزءاً أساسياً من طبيعة العلاقات الاجتماعية المطلوبة والمطلوب نشرها والتأكيد عليها. من غير المنطقي أن نتصور أن الملك يريد فرض الرعب والإرهاب والخوف منه على الشعب من خلال هذا التمثال. ولأن الفن دائماً وأبداً تعبير عن ثقافة. فهذا التمثال وغيره أسمى تعبير عن الثقافة المصرية في هذا الوقت. المجتمعات الدكتاتورية القمعية تعبر عنها فنونها بشكل فاضح كما سنرى فيما بعد. وهذا النوع من الفن (الدكتاتوري) لا أثر له على الإطلاق في الفن المصري القديم. وفترات الحكم الإنساني الذي

يعبر عن علاقة جيدة بين الحاكم والمحكوم يكشف عنه الفن بكل وضوح. نلاحظ حضوراً مهماً و متميزاً للمرأة في معظم الأعمال الفنية، حتى في الأعمال التي لا تكون فيها المرأة هي الموضوع، فنجد أن معظم تماثيل الملوك بصحبة زوجاتهم. ومن النادر جداً رؤية ملك بدون زوجته. هذا له دلالة واحدة وهو أنه كان للمرأة دور أساسي في المجتمع وفي الحياة العامة.

صورة 6



وهي أيضاً من الدولة القديمة. أحد المهندسين مع زوجته وأولاده. نفس الوضع العاطفي الجميل. حضور كبير للأنثى في الفن. الزوجة تحيط زوجها بكلتا ذراعيها ويديها من كتفه اليمنى ذراعه اليسرى. الأطفال أصغر حجماً ويمثل كل منها بخصلة شعر على الجانب مع الأصبع في الفم. كان هذا الوضع (خصلة على الجانب

وأصبع في الفم) هو مخصص للأطفال مثل: حورس وخونسو وغيرهما. كانت المرأة ترسم بلون فاتح، ربما تعبيراً عن الأنثى، وربما كان اللون المعتاد للنساء؛ حيث إن عملهن في الخارج تحت الشمس كان أقل فاحتفظن بلونهن الطبيعي، في حين أن الرجال كانوا أكثر تعرضاً للشمس فأصبحوا أكثر سمرة. الرجل قصير الشعر والمرأة طويلة الشعر، وكانت هذه العادة حتى لو كانوا يلبس الشعر المستعار. يحمل كل من الرجل والمرأة نفس الابتسامة الرقيقة.

صورة 7 الكاهن بتاح حوتب. الدولة القديمة



صورة 7 لكاهن يسمى بتاح حتب من الدولة القديمة. لنتصور معًا رجل دين ليس من الدولة المصرية القديمة يريد صورة لنفسه ينشرها لأتباعه، فكيف يريد أن يراه هؤلاء الأتباع ليروا الدين من خلاله؟ طبعا الجدية، الصرامة، المهابة القوة، لأن هذه ربما تكون الصورة العامة لأديان تلك المرحلة، وحتى العصر الحالي. ولكن رجل الدين في مصر القديمة كان يريد أن يراه الأتباع مبتسمًا بشوشًا لطيفًا أو حتى محبوبًا. من الصعب جدًا تخيل دين مليء بالرعب والإرهاب يعبر عنه كاهنه بهذا الشكل. هي نفس الابتسامة الساحرة العذبة.

صورة 8 رمسيس الثاني، الدولة الحديثة

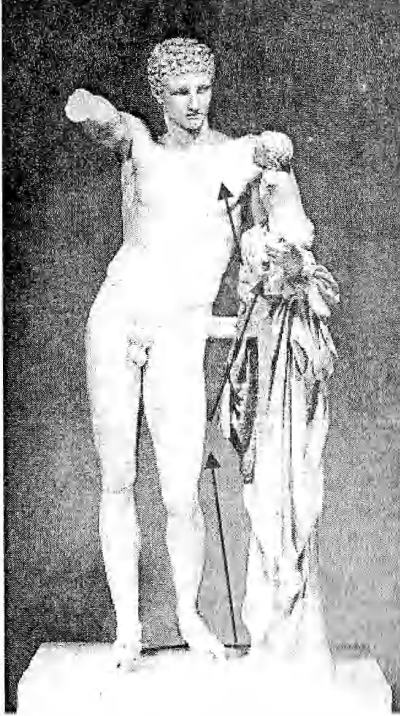


والتي تعرف في العالم كله بابتسامه (الموناليزا) الساحرة وهي في الحقيقة الابتسامه المصرية الساحرة.

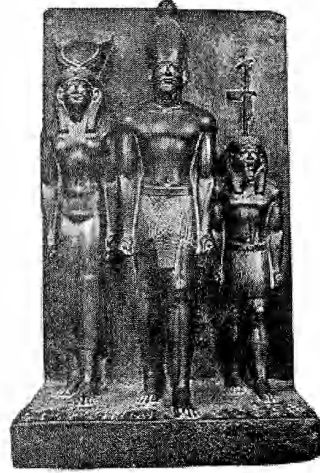
في صورة 8 تمثال للملك الشهير رمسيس الثاني. وهو واحد من أعظم فراعنة مصر. ومن أعظم ملوك التاريخ. نلاحظ الصفات المثالية المصرية. الفن المصري هو أكثر فن تتجسد فيه الصفات المثالية. وكان إفلاطون يعتبره أرقى الفنون لمثاليته الشديدة التي تناسب مذهب إفلاطون الفلسفي المثالي. نلاحظ في تمثال هذا الملك كما في كل تماثيل الملوك الفراعنة عدم وجود سيف. والأدوات الحربية لا تظهر في الفن المصري مطلقاً إلا في تصوير المعارك فقط. لهذا دلالة واحدة فقط. أن القوة والحرب لم تكن قيمة أساسية ملازمة للحكم، بل هي تظهر فقط عند الحاجة ثم تختفي. ويلاحظ أيضاً أن جسم الملك كأجسام كل الملوك المصريين (مع استثناءات بسيطة) لا تعبر عن قوة جبارة مثل أبطال الأفلام الأمريكية (ارنولد شوارتزنجير مثلاً)، ولكنها تعبر عن أجساد تمتاز بالرشاقة والجمال. لا تخيف أحداً، ولا تتحدى أحداً ولكنها تسر الناظر كأجسام راقصي الباليه أو لاعبي الجمباز. الثبات الشديد في الحركة أحد الصفات المثالية المصرية، ووضع الجسم كله على محور واحد. ولكن هناك عاملاً يلعب دوراً حاسماً في إخراج الشكل بهذه الصورة وهو طبيعة الجرانيت. فمن المستحيل أن يكون تمثال من الجرانيت له أذرع مفتوحة، لأنها ستسقط. هذا ممكن في الرخام. ولهذا فإننا نتصور أن التصاق الذراعين والساقين بالجسم ليس سمة مثالية بالضرورة ولكنها مسألة تحتمها الخامة. أما مسألة استقامة الجسد والرأس فهي سمة مثالية. في المثاليات اليونانية تغير وضع الثبات الجسدي إلى حركة تشبه حرف ال S اللاتيني. وهي إضافة جمالية، ولكنها أضفت أيضاً على الأجساد ليونة أنثوية. أما دافنشي في عصر النهضة فقد أضاف حركة جديدة لمثاليته، وهي أن الوجه

يأخذ وضعًا مختلفًا عن الجسم. (راجع الموناليزا) وهو الوضع الذي
ما زال متبعًا حتى اليوم. لاحظ الابتسامة العذبة الرقيقة التي يواجه
بها هذا الملك العظيم والمحارب الفذ شعبه والناظر إليه.

صورة 9 المثاليات اليونانية



صورة 10 المثاليات المصرية



تمثال الكاتب المصري من أهم التماثيل المصرية. فقد وجدت منه نسخ كثيرة يعود كل منها إلى فترة زمنية مختلفة، ولكنها تتفق في كثير من السمات.

صورة 11 الكاتب
المصري



الكاتب المصري صورة 11 شخصية مهمة للغاية في التاريخ المصري. فكل ملك كان يصحب معه كاتبه الخاص لتدوين كل شيء. بل كان الموظفون الكبار أيضًا يصطحبون معهم الكتاب لتدوين الوقائع المهمة وخاصة في المحاكم. التي كانت تسجل باستمرار. والدول الحالية لا تستطيع الاستغناء عن شخص يدون وقائع الاجتماعات في برتوكول يوقع عليه الجميع ويحدث هذا الآن في كل اللقاءات والاجتماعات الرسمية لكل الهيئات. كان هذا تقليدًا مصريًا أصيلاً.

الكاتب المصري في معظم أحواله يجلس القرفصاء مما يجعل التمثال يأخذ شكل الهرم وهو أقوى الأشكال من ناحية التصميم. فيمتاز بالرسوخ والثبات الشديدين. الكاتب عينه مفتوحة تمامًا وتعبر عن تركيز شديد. هو ينظر إلى الأمام ولا ينظر إلى أوراقه. وكما عودنا الفنان المصري أن هذه التفاصيل ليست اعتباطية ولكنها ذات دلالة، فيبدو أن الكاتب يتابع موقفًا ما ويسجله دون أن ينظر إلى ما يكتبه بحكم المهارة، كما تفعل سكرتيرة مدربة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر فتتحرك أناملها على الأحرف بخفة دون أن تتابعها عيناها.

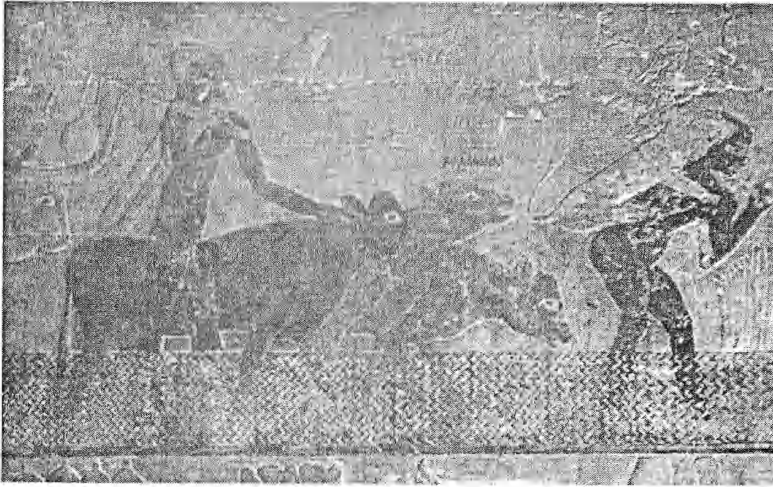
صورة 12. الدولة القديمة



هذه الصورة 12 تمثل إحدى جداريات الأسرة الخامسة. وهي تمثل حياة الفلاح المصري. وهي تمثل العودة إلى البيت بعد العمل. في المنتصف شكل يمثل بقرة تشرب وأمامها صاحبها الفلاح. المهم في الصورة هو العلاقة الرحيمة الرقيقة بين الفلاح وبقرته، فهو يتركها تشرب وفي الوقت نفسه يمسح أو يربت برفق على رأسها. فالحنان والحب لا نراه فقط بين الرجل والمرأة، ولكننا نراه أيضًا بين الإنسان والحيوان.

حياة الذل والقمع والفقر والاستبداد تحول الشخص إلى إنسان سوداوي عنيف قاسي القلب حتى على أبنائه. فيكون الضرب والشدة والقسوة هي أساس العلاقة بينه وبين من يحيطه. أما الحياة المريحة ذات الطابع العادل والجميل فهي التي تخلق من الإنسان شخصًا ودودًا لطيف المعشر يعطي حنانًا وحبًا لمن حوله. هذه الرقة من الفلاح لحيوانه هي دليل على نمط حياة يخلو من الظلم والاستبداد. اهتمام الكهنة بمظاهر الرفق والحب بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والحيوان تدل على أن العلاقات التي يدعون لها يكون الحب والمودة طرقًا أساسيًا فيها.

صورة 13

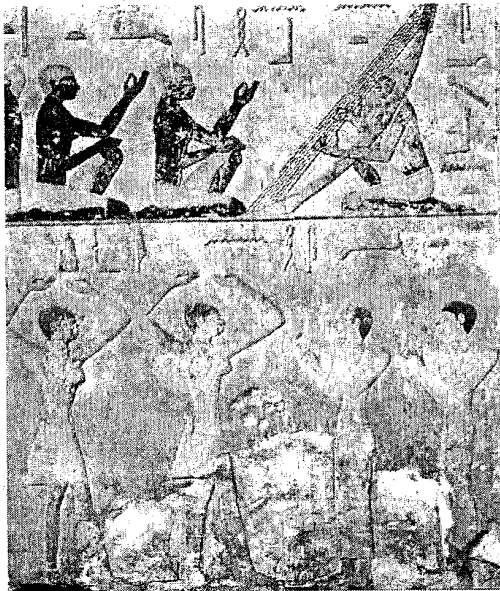


الفن المصري مدهش في إظهار صور الحنان والحب كعنصر أساسي من مكونات الشخصية المصرية في ذلك الوقت، ومن مكونات الثقافة العامة. في هذه الجدارية صورة 13 التي تنتمي

أيضا إلى الأسرة الخامسة نجد مشهداً غاية في الرقة. نرى فلاحاً يحمل عجلًا صغيراً وخلفه فلاح يجر ثلاث بقرات. نلاحظ أيضاً أن البقرة الوسطى، والتي تمثل أمام العجل المحمول ترفع رأسها في توتر وتفتح فمها كما لو كانت تنادي أو تصرخ قلقاً على عجلها الذي تراه محمولاً أمامها ولا يسير معها. كما نجد العجل الصغير المحمول يدير رأسها إلى الخلف في قلق شديد فاتحاً فمه ينادي أمه التي فصل عنها. علاقة الأمومة الرقيقة الواضحة بين البقرة وعجلها، والتي أوضحها الفنان تؤكد نفس الفكرة التي تفرض نفسها علينا كلما تأملنا الفن المصري. وهي إظهار رقة المشاعر

بشكل مستمر كعنصر أساسي من عناصر الصورة والرسالة التي تنقلها الصورة وبالتالي عنصر أساسي من عناصر الثقافة.

صورة 14



هذه الصورة 14 من الدولة القديمة وهي تمثل فرقة موسيقية. في الصف الأعلى عازف القيثارة وضابطو الإيقاع. عرفت الحضارة المصرية آلات موسيقية عديدة مثل أنواع القيثارات، وآلات تشبه العود وأنواعاً من الناي، والمزمار، كل ذلك وأكثر منذ الدولة القديمة. لكن آلات الإيقاع مثل الطبلية ظهرت في الدولة الحديثة. وكان الإيقاع يعتمد إما على طرقة الأصابع أو التصفيق. وكما نرى في الصورة ففي الصف الثاني فتاتان تقومان بإيقاع التصفيق وفتاتان تقومان بالرقص الشعائري. السؤال هو لماذا نجد نوعين من الإيقاع، الطرقة والتصفيق؟ بالتأكيد أنهما نوعان مختلفان من الإيقاع، فنحن بصدد إيقاع مركب يتكون من طرقات عميقة وأخرى عالية بالتناوب. وكان الرقص في الدولة القديمة رقصاً شعائرياً دينياً ذا طبيعة روحية، ولكنه في الدولة الوسطى كان أكروباتياً يقترب من رياضة الجمباز. أما في الدولة الحديثة، فقد ظهرت رقصات التسلية التي تقترب كثيراً مما يعرف الآن بالرقص الشرقي. مهم أيضاً أن نلاحظ السيمترية والتشابه الشديد في الأوضاع التي تظهر العازفين كما لو كانوا كتيبة من جيش يتحركون معاً في نفس اللحظة. وهذه السمة ظلت تغلف الفن المصري منذ حضارات ما قبل الأسرات حتى الدولة الحديثة. وهي تعبر عن نمط حياة يعتمد على الفكر المطلق والثبات الكامل للمعتقدات والعادات التي لا تقبل تغييراً وتجديداً. هي سمة فنية تتكرر في الفترات التي تشهد وجود معتقدات راسخة قوية مثل الفن المسيحي المبكر والقوطي في أوروبا.

الثورة الرومانسية في الفن المصري

تظهر الرومانسية في الفترات التاريخية التي ينتشر فيها الإحساس بالأمال العريضة ويعم فيها الرخاء وتزدهر فيها الحياة. وكان ذلك في فرنسا بعد الثورة، كما ظهر ذلك بوضوح في مصر في مرحلة الستينيات. وفي مصر القديمة كانت المثاليات ذات سمات رومانسية عالية كما أظهرنا من قبل، ولكن في الدولة الحديثة وبالتحديد بعد الأسرة 18 الشهيرة قفز الفن قفزة نوعية باتجاه الرومانسية. فأصبح أكثر رقة ونعومة.

صورة 15 التفاصيل المعلوماتية



يرى في هذا الرسم صورة 15 من الدولة الحديثة أميرات يستمتعن بعبير الأزهار ويستمتعن إلى الموسيقى. يلاحظ أن العازف الأعمى من خلال رسم العين. حركة أصابع العزف تدل بشكل واضح أنه يعزف على أوتار القيثارة. وقد وجد من القيثارة أنواع. فمنها ما كان عدد أوتاره 7، ومنها 9 وقد وصلت إحداها إلى 21 وترًا. واضح أن العازف أشقر. الكل يجلس على الأرض وواضح جدًا التباين الشديد في حركة الذراعين للأميرات، فالأميرة الأولى خلف عازف القيثارة يتجه أحد ذراعيها إلى أعلى ناحية الأنف حاملاً زهوراً تستمتع هي بعبيرها، والآخر إلى أسفل. وكذلك الساقان، فإن إحداها تتجه أيضاً إلى أعلى والآخرى ترقد على الأرض. ويلاحظ التنوع في حركات الأجساد، فإحدى الأميرات تنظر إلى الأمام، في حين أن الأخرى تستدير بجسدها إلى الخلف. وهذا يعتبر تطويراً كبيراً في الفن المصري حيث كان من المعتاد أن يرسموا جميعاً في صف واحد بنفس الحركة. ومن هنا يمكننا أن نتجرأ ونقول إن هذا التعبير عن الحركة يعني زيادة في الحرية الفكرية. فالسيمترية التي عرفناها فيما قبل الدولة الحديثة كانت تعبيراً عن تعاليم وقيم ومعتقدات وتقاليد ثابتة راسخة لا يتطرق إليها الشك ولا مجال لمناقشتها أو تطويرها. في حين أنه يبدو في الدولة الحديثة أنه كانت هناك حرية فكرية وتنوعاً في المعتقدات والقيم أوسع من قبل.

كما نجد تنوعاً غاية في الرقي للحركة. فالأميرة الثالثة من اليمين تتجه ذراعاها في حركتين معكوستين لتكون مع الحركات السابقة سيمفونية جميلة من الحركات المتنوعة في كل الاتجاهات.



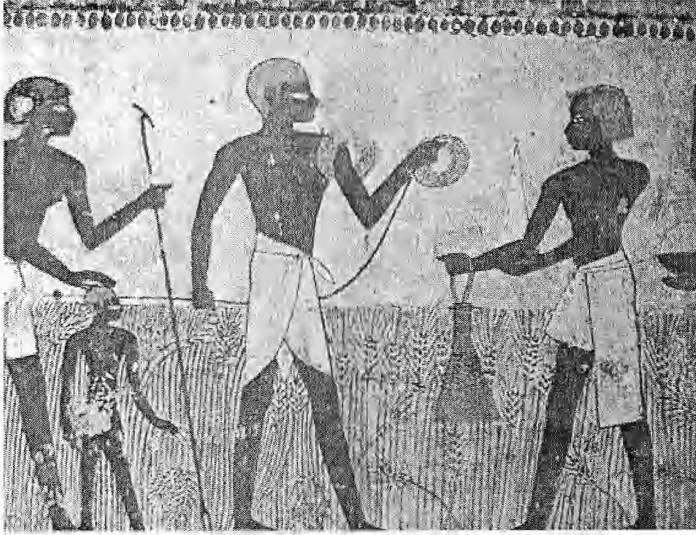
في صورة 16 نرى فرقة موسيقية نسائية. والجميل في الصورة هو العلاقة بين كل عازفتين. فعازفة الناي تتابع عازفة القيثارة المحمولة خلفها. وواضح من حركات الأعين التي تتابع بعضها البعض ومن حركات الأصابع وأماكنها أن كل عازفة أو على الأقل عازفة القيثارة تحاول ضبط الأوتار على نغمات عازفة الناي، حيث إن أصابعها في منطقة شد الأوتار، وهو ما يسمى حاليًا (دوزانا). والعازفتان الأخيرتان تقومان بنفس الشيء وهو ضبط أوتار العود كما نلاحظ من حركة الرأس التي تعبر عن التركيز الشديد واليد اليسرى الموجودة في منطقة شد الأوتار. والفتاة الصغيرة اللطيفة في المنتصف ذات الخصلة المنسدلة كرمز للطفولة تتابع في فضول. عازفة القيثارة يبدو من وضعها الأكثر ثباتًا وزيتها أنها ربما قائدة الفرقة. القيثارة الكبيرة لها 11 وترًا كما في الصورة السابقة. هذه الصورة نموذج للحركة والجمال والرقّة في الدولة

الحديثة. فهي من حيث المحتوى لا تعبر عن آلهة، وملوك، وأشياء
جنازية بل تعبر عن الفن والجمال. وهو شيء أصبح هدفًا أساسيًا
في الدولة الحديثة.

صورة 16 - ب



في هذه الصورة نرى راقصتين وفرقة موسيقية. يلاحظ الفرق
الكبير في طبيعة الرقص في الدولة الحديثة الذي يمتاز بالحركات
وإظهار مفاتن المرأة في حين أنه كان في الدولة القديمة شعائريًا
دينيًا متحفظًا. من خلال التصميمات الحركية الديناميكية في الصور
ومن خلال الحرية الشديدة في التعامل مع جسد المرأة، ومن خلال
المواضيع التي اهتم الفنان في الدولة الحديثة بتصويرها نستطيع أن
نرجح ظهور مجتمع متحرر فكريًا، بل ومتعدد الأفكار والتيارات
الفكرية، وكان حب الحياة والدينا فيه غالبًا على تفكير المجتمع.



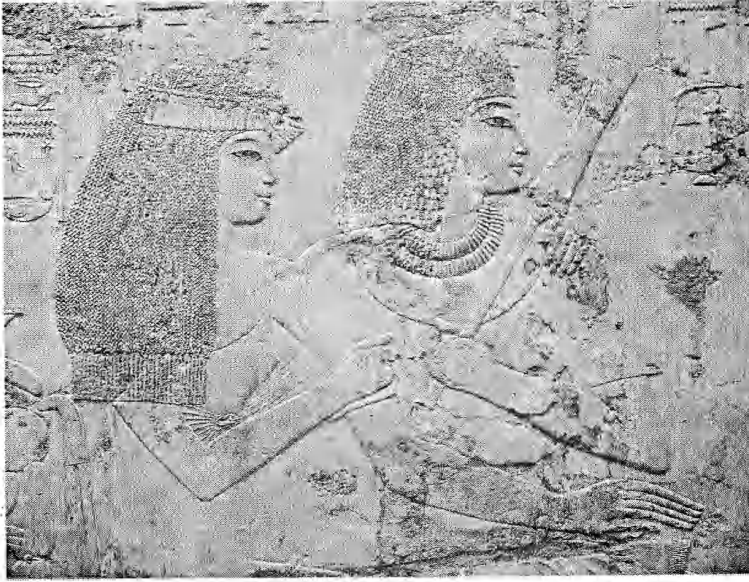
في صورة 17 نجد مجموعة من العمال يقومون بقياسات ما. نلاحظ تجلي عنصر الحركة بشكل ملحوظ وواع. فالشخص الأول من اليمين يتجه إلى اليسار والشخص الثالث من اليمين والأوسط يتجهان إلى اليمين. يلاحظ أن اثنين من العمال أصحاب شعور شقراء. وقد ظهر في الدولة الحديثة بحكم الفتوحات الكثيرة في آسيا الصغرى واحتلال شعوب أوروبية ظهوروا مثل هولاء في دوائر العمال والعبيد. يلاحظ أن ذا الشعر الأسود يمسك بالعصا رمز الرئاسة فهو بالتأكيد الملاحظ أو رئيس العمال. والتنوع في الحركة بين الأذرع واتجاه الحركة عالٍ جدًا. حتى لباس الشخص الأول من اليمين نجده على قدر من الاضطراب فجاناب منه عال وجانب آخر منسدل. وهو اتجاه لكسر التماثل والتقليل من المثالية في اتجاه الواقعية. ولو دققنا النظر للاحظنا اختلافات في طريقة تصفيف الشعر تميز كل شخص منهم عن الآخر.



هذا المشهد صورة 18 من مقبرة رع موسى في الدولة الحديثة. وهو يمثل مشهداً جنازياً لتوديع جثمان. نلاحظ الحركات الجميلة المتنوعة التي تصنعها الأيادي التي تلوح في اتجاهات متعددة في أقصى اليسار لمجموعة من السيدات ذوات الشعر الأسود وهن السيدات التي يظهرن كأميرات من خلال اللبس. أما المجموعة التي تليهن فهن مجموعة من الخادמות أو العبيد الشقراوات. يحملن

بعض الأواني الجنائزية. ويظهر أيضًا تنوعًا جميلًا في حركات الأذرع.

صورة 19.

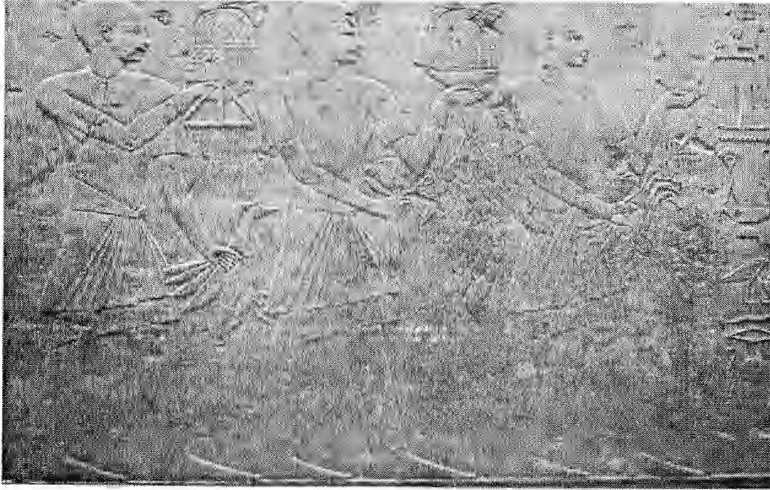


تطورت الرومانسيات بشكل عالٍ جدًا في فن الدولة الحديثة فظهرت الحركات المتنوعة التي تكسر السيمترية وتعطي المشهد ديناميكية عالية. كما ظهر الولوج بالتفاصيل الجميلة التي تزيد من الخصوصية والتمايز. في هذه الصورة 19 في مقبرة رع موسى نجد، حضورًا للزوجة لا يقل عن حضور الشخص المعني مما يؤكد أهمية المرأة ليس فقط في المجتمع، بل أهميتها عند زوجها أيضًا. نجد التفاصيل الجميلة التي في شعر زوجة الوزير الجالسة خلفه، والتي تظهر تصفيفة الشعر وهي غاية في الجمال والدقة. حيث يربط الشعر عند الجبهة بما يشبه التاج المزهر والمربوط من الأمام مما يضيف عليه وعلى حاملته الكثير من الجمال والأنوثة. والشعر

من أسفل يأخذ شكلاً مختلفاً في التصنيف. من الواضح من التصنيف الدقيق والجميل والمنتظم للشعر المستعار أنه كان هناك متخصصون على مستوى عالٍ في هذا المجال. وهذا يؤكد أيضاً الملاحظة التي لا تترك المتابع للفن المصري والحضارة المصرية بشكل عام وهو أن الجمال كان يمثل قيمة غاية في الأهمية في هذه الثقافة طول الوقت. ونفس الملحوظة نراها في شعر الوزير رع موسى وإن كانت بشكل نسبي أقل بحكم كونه رجلاً.

نعود للعلاقة بين الرجل والمرأة، حيث يحددها حركة نراعي المرأة، فذراعها اليمنى يمسك بذراع زوجها اليمنى ويدها اليسرى تمسك بالكثف اليسرى للزوج. أي هي تمسك به من الناحيتين في تعبير رائع عن الحب الذي لا يفارق الفن المصري منذ بدايته.

صورة 20 مقبرة رع موسى.



هذه صورة 20 لنفس المقبرة السابقة لرع موسى وفيها نرى حاملي الهدايا للملك. ونلاحظ الدقة الشديدة في الرسم واستغلال التفاصيل

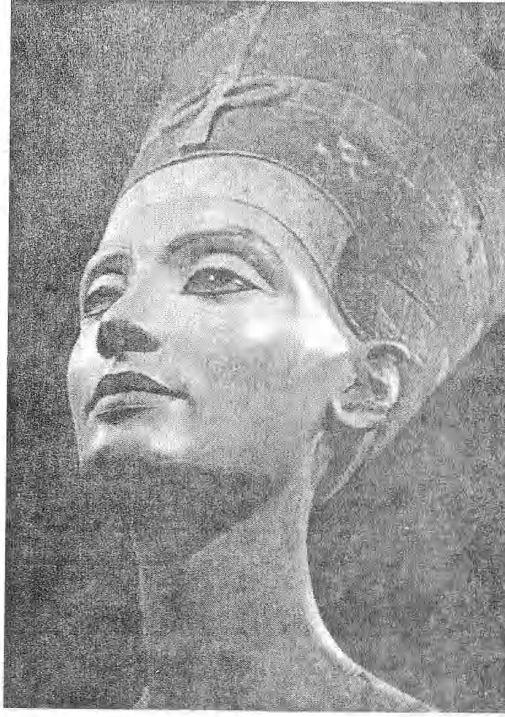
لزيادة الجماليات المطلوبة. نسب جسم الإنسان في الفن المصري نسب صحيحة فنيًا. فنسبة الرأس للجسم 8:1 كما هو معروف فنيًا. وطول الجذع يساوي الساقين. والكوع يقسم الذراع قسمين من نصف الكف. والركبة فهي أيضا تقريبًا في منتصف الساق، وبذلك يكون المصريون هم أول من توصل إلى النسب الصحيحة لجسم الإنسان (صورة 21) كان ذلك قبل دافنشي صاحب الدائرة المعروفة بحوالي 4500 سنة.

صورة 21



كان الجمال قيمة أساسية في الحياة المصرية بشكل عام وفي الدولة الحديثة بشكل خاص، كما يوضح الفن. ووصل الاهتمام بالجمال في الدولة الحديثة وخاصة الأسرة 18 إلى أسمى صورته. وبالتأكيد فإن أجمل تمثال معروف يظهر المقاييس الكاملة لجمال وجه امرأة هو تمثال جميلة الجميلات نفرتيتي صورة 22 الموجود بمتحف برلين.

صورة 22



في الثلاثينيات من القرن المنصرم طالبت مصر ألمانيا التي كانت تحت حكم هتلر بالتمثال. ورفع الأمر إلى هتلر الذي لم يجد غضاضة في إرجاع التمثال إلى مصر. ولكنه أقام زيارة للمتحف المصري هناك ورأى التمثال فانبهر به وأعلن أن نفرتيتي هي سيدة برلين الأولى، ورفض تسليمه لمصر. هذا التمثال الذي صنع من حوالي 3500 سنة يحقق نسب الجمال الخالدة. من نسبة الأنف للعينين للوجنتين للحاجبين للشفة للذقن للرقبة، كلها قياسية، تتمناها كل امرأة لنفسها في كل عصر حتى اليوم. ويضاف إلى نسب الجمال النظرة التي تمتلئ ثقة وكبرياء لا تجد نظيراً لها حتى الآن.

صورة 23



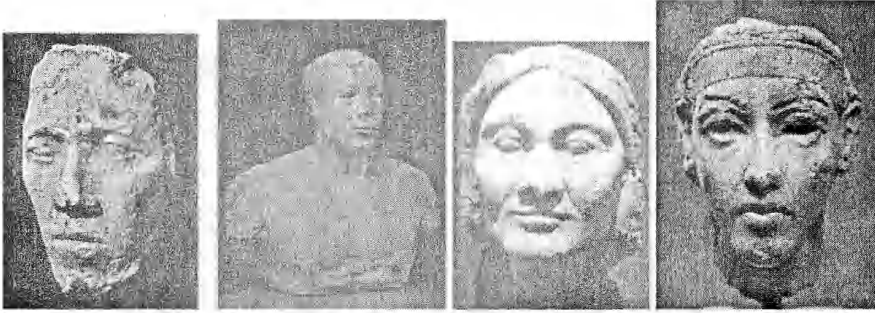
صورة 23 تمثل تحتمس الرابع وزوجته. أصبح هذا المشهد المكون من ملك وملكة في وضع إحاطة الخصر بالذراع مشهدًا مصريًا بالدرجة الأولى. فليس من المعروف أن ملوكًا أو رؤساء دول أخرى منذ البداية حتى الآن يصورون أنفسهم في هذا الوضع غير المصريين. ولنقل أن علاقة الحب تمثل جزءًا من مفهوم الرئاسة والملوكية في مصر القديمة وحدها. في هذا التمثال نجد كليهما يحيط خصر الآخر. كالروح الرومانسية العالية في الدولة الحديثة كانت ذات توجه واقعي يظهر في أعمال كثيرة.

صورة 24



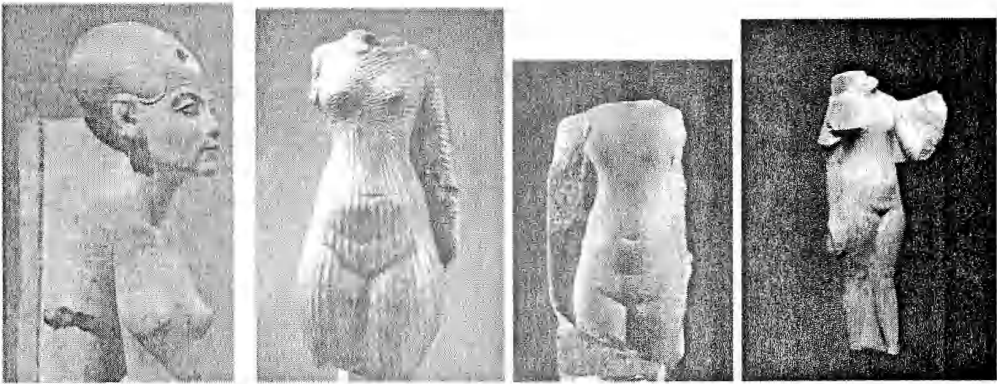
والتوجه الواقعي شمل حتى الملوك صورة 24. ففي عهد إخناتون أصبح الملك يمثل كما هو في الحقيقة. فلم يعد مهماً أن يكون في الصورة المثالية المعهودة بجسد رياضي متناسق جميل، بل كان الفنانون يظهرن عيوبه من انتفاخ البطن (الكرش) وامتلاء الأرداف. بشكل واضح كجزء من القيم الفنية الجديدة والتي كانت تميل بقوة ناحية الواقعية في عهد إخناتون بالتحديد.

صورة 25



في صورة 25 نرى مجموعة من البورتريهات ذات السمة الواقعية جداً فنرى عمر الشخص وحالته من حزن أو أسى مع ملامحه الخاصة المميزة لكل شخص.

صورة 26

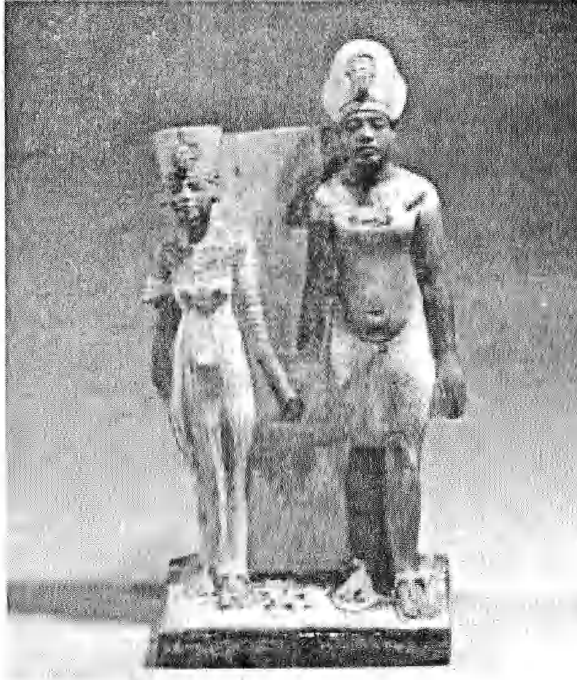


كان جسد المرأة من مراكز الاهتمام في الدولة الحديثة صورة 26. وكان إظهار الأنوثة يأخذ شكل الإثارة الرومانسية وليس الإثارة الحسية. فالثدي ليس حسيًا ضخماً ولكنه رقيق، مع امتلاء الأرداف ونحافة الخصر ونحافة الجسد بشكل عام. والناظر لتمثيل أنثى الدولة الحديثة في مصر يجد نفسه أمام إخراج راق غايته الرومانسية والجمال كما يجب أن يكون. فلو اشترك أحد هذه التماثيل في مسابقة حديثة لملكات جمال لغاز بها بلا شك. لم تكن الأجساد حسية غرائزية جنسية على طريقة روبنز¹⁰³ ولكنها أقرب إلى أجساد فتيات ديجا¹⁰⁴ وراقصات الباليه.

¹⁰³ فنان هولندي ظهر في فترة الباروك كانت النساء في أعماله الفنية تمتاز بالبدانة والأجساد الغرائزية.

¹⁰⁴ فنان فرنسي تأثري اشتهر بولعه برسم راقصات الباليه بأجسادهن وحركاتهن الرقيقة.

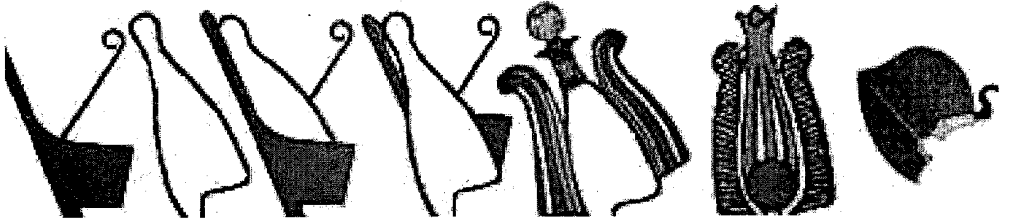
صورة 27



صورة 27 للفرعون العاشق وحبيبته نفرتيتي. كان إخناتون ملكًا بكرش وأرداف ممثلة كالنساء. وهو ما أظهره المثال في صدق، وكانت نفرتيتي ذات جسد رشيق مثالي وهو ما أظهره الفنان أيضًا. تلاحظ الرومانسية الواضحة حتى في الثوب الأبيض الجميل الطويل ذي الشفافية الرقيقة الذي ترتديه الجميلة نفرتيتي. من المؤكد أنه كانت هناك متخصصات أو متخصصون في الثياب الأنثوية، تصفيف الشعر، ربما أيضًا خبراء في الأكل حتى لا تفقد الأنثى رشاقتهما، وإلا ما رأينا هذا القدر الهائل من الإبداع في التسريحات والأزياء الراقية الغارقة في الرومانسية. الملك لا يحمل

سلاحًا كالعادة، ولا يحمل أي رمز من رموز السطوة، أو الجبروت، بل يبدو كعاشق يتنزّه مع حبيبته الجميلة. نلاحظ أيضًا التطور الكبير في أشكال التيجان.

صورة 28



من الجميل في الفن المصري أن ملوكه حصرًا يظهرن أنفسهم كأشخاص عاديين ومعظم الأوقات في حالات الحب، أو مداعبة الأطفال.

صورة 29



في صورة 29 نرى الملك والملكة في الحديقة كحبيين، حيث تقدم الحبيبة لحبيبها باقة من الورد رمزاً للحب. هذا المشهد لا يمكن إلا أن يكون مصرياً. يلاحظ الاهتمام الشديد بالحركة في نسيمات الهواء التي تمتاز بالرقّة وتعلي من القيمة الرومانسية للمشهد العاطفي. فالملابس تتطاير في خفة مع نسيمات الهواء الرقيق.

الفن تعبير عن ثقافة وهو لا يكذب. قد تكذب الوثائق، والمخطوطات والصحف، قد يكذب الملوك والرؤساء. فكل ملك ورئيس يدعي العدالة والحق. الكل يدعي حب الناس له. الكل يدعي الصدق. وكل الوثائق التي تكتب في كل عصر تكتب فقط ما يريده الحاكم. ولكن الفن لا يعرف الكذب. فهو تعبير عن الحالة الاجتماعية. ونستطيع

من خلال التحليل الفكري والاجتماعي أن نستخلص حقائق تخفيها
أبواق الحكام والملوك والرؤساء.

ولكي نفهم الفن المصري ونقترب منه أكثر ونستخلص منه نتائج
أكثر دقة وصدق سنعقد مقارنة بين فنون فترات تاريخية معروفة
بدكتاتوريتها وعنفيها وبين الفن المصري. وقد اخترنا في هذا الكتاب
أن تكون المقارنة مع فنون ألمانيا النازية لاتفاق الجميع على سمات
هذه الفترة التاريخية، رغم أن الفترة النازية فترة معاصرة، أي
تمتاز بزيادة المعارف والثقافة والحذر والفهم لحقائق الإنسان وهو
ما تفتقر له الحضارات القديمة.

الفن في ألمانيا النازية

صورة 1 لهتلر ويلاحظ اختياره لوضع يظهر القوة والعظمة والتعالي الشديد كما يبدو في شكل ييبث الخوف والوعيد والرعب وهذا هو مضمون الرسالة التي يراد إرسالها للمشاهد والتي يراها هتلر معبرة عن ذاته.

صورة 1



صورة 2



ادولف هتلر محارب كبير ولهذا فعند عمل مقارنة بين صورته وصور شخص آخر فيجب أن يكون هذا الشخص أيضًا محاربًا كبيرًا ولهذا فقد اخترنا تحتّمس الثالث. أكبر محارب في تاريخ مصر وكلها والذي حقق قدرًا من التوسعات لم تر مصر مثلها لا قبله ولا بعده.

من النظرة الأولى لهتلر نجد أنه يظهر نفسه لشعبه وللعالم على أنه شخص مغرور متعالٍ صارم وعنيف إلى أقصى درجة. يرتدي الهتلر في كل صورته الرسمية بذلات عسكرية. وطبعًا الدلالة معروفة وهي أن الحرب هي أساس قيمه الخاصة والشيء الذي يؤمن به ويعمل من أجله. هذه القيم ليست تجنيًا على الشخص ولكنها التعبير المباشر والمحايد الخارج من الصور التي اختارها لنفسه. وهذا بالتحديد ما يريد أن يوصله إلى الآخرين من خلال صورته، وفي الشكل الثالث من صورة 1 نجده أمام تمثال ناز لشخص يمتلك سيقًا ضخماً، رمز العنف والقتل، والوجه جانبي كأنه لا يسمع ولا يرى إلا شيئاً واحداً، وحركة جسمانية أشبه بالزوايا المربعة كرمز للقسوة والتي تفتقر إلى المنحنيات الطرية، والنسر الذي يعبر عن الانطلاق بلا حدود.

إذا قارنا هذا بتحتّمس وبتمائيله الرسمية فسنجد شخصًا لا يبدو وأن له صلة بالحرب. فلا يبدو معه سلاح. هذا الشخص الذي فتح العالم كله وركعت كل الشعوب الأوروبية والآسيوية والإفريقية أمامه ودفعت الجزية. لا تجد في تمائيله أي أسلحة. تعبير الوجه لا يظهر إلا الابتسامة الرقيقة. الغريب أنه حتى هذا المحارب العظيم الذي لا مثيل له في التاريخ لم تقتل فيه الحرب إنسانيته. فهو يقابل المشاهد

بابتسامة إنسانية ساحرة. يظهر كشخص لا يريد أن يبيث فيك
الخوف، ولكن يرحب بك كإنسان. بعكس صور هتلر التي لا ترحب
بك بأي شكل من الأشكال، ولكن تريد بث فيك الرعب فقط.

صورة 3



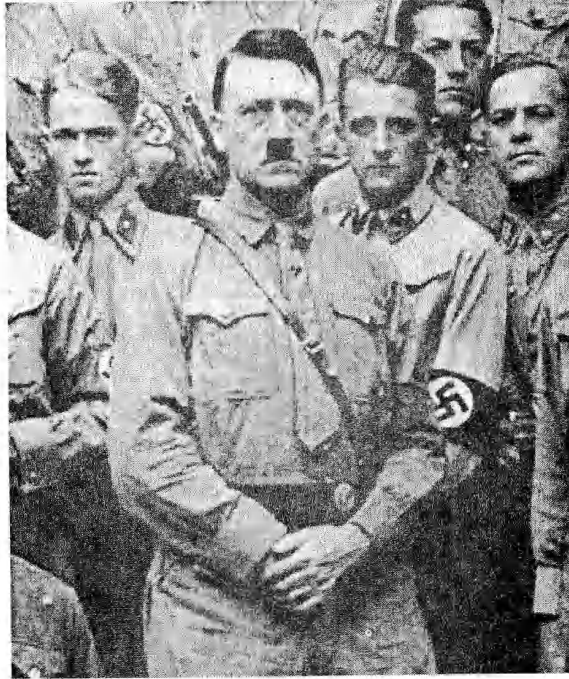
عنوان هذا العمل الفني (تحيا ألمانيا). هو مكون بالطبع من القائد
هتلر بالملابس العسكرية التي لم يرتد، غيرها ويكور يده على شكل
قبضة موجهة للمشاهد. في السماء يرى النسر رمز ألمانيا النازية
يبدو كطائر سماوي مرسل من الإله لحماية مسيرة هتلر بالوجه
الصارم المليء بالكراهية، وخلفه بشر يرتدون نفس الثياب
ويحملون نفس العلم ولهم نفس الوجوه.

صورة 4



صورة 4 أحد ملصقات الحزب النازي. نفس الوجوه المليئة
بالغضب والتحدي والعنف والتهديد. ملابس عسكرية.

صورة 5



صورة لهتلر في أحد المعسكرات. تبدو جميع الوجوه في مثل صرامة وغضب وكراهية هتلر. لم تكن ملامح شخص بل كانت ملامح عصر. كلهم عسكريون.

صورة 6



صورة 7

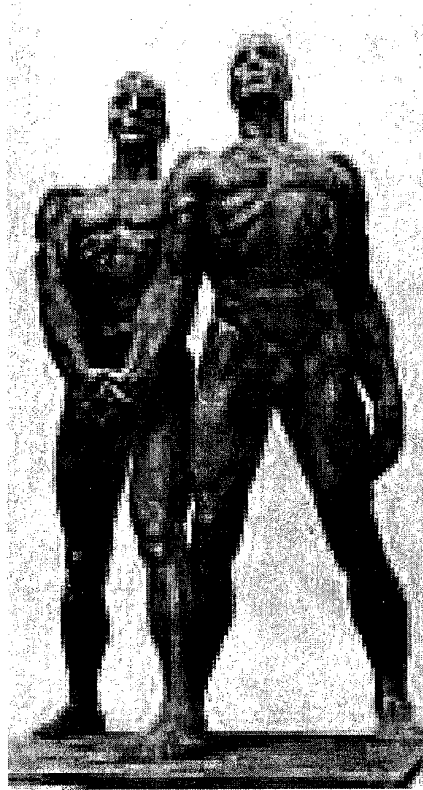


في صورة 6 وجهي ميدالية. الوجوه الصارمة المليئة بالوعيد والتهديد والعنف. اللباس العسكري والمعدات العسكرية في الدروع.

في صورة 7 يرى الشخص عاريًا ممسكًا بسيف ضخم. والعري هنا أحد رموز التحدي. فجسد المرأة العاري يعطي انطباعًا بالأمان الشديد. أما جسد الرجل العاري خاصة إذا عرض مواجهة كمثل هذا العمل فيعطي الإحساس بالهجوم. والسيف الضخم يزيد من هجومية الصورة على المشاهد. والمنظر الجانبي للوجه يؤكد الإحساس بأن

هذا الشخص لا يسمع لأحد وأنه لا يرى إلا شيئاً واحداً. أما النسر الذي يحمل علامة النازية فهو رمز الانطلاق بلا توقف.

صورة 8



في هذه الصورة نجد مرة أخرى جسدين ذكريين عاريين في المواجهة. كما ذكرنا فإن الجسد الذكري في وضع المواجهة يعبر عن حالة هجومية متحدية. ويبدو من تحالفهما معاً من خلال ارتباط الكفين أنه تحالف ليس من أجل السلام أو المحبة بل تحالف من أجل الهجوم والحرب.

من السهل الكشف عن طبيعة أي مجتمع في فترات زمنية محددة من خلال التحليل الاجتماعي للفن، لفهم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، إن كانت العلاقة مبنية على الظلم والبطش أم قائمة على الارتباط بين الحقوق والواجبات. واجبات الدولة التي هي حقوق المواطن، وواجبات المواطن التي هي حقوق الدولة من ناحية وطبيعة الفكر إن كان نسبيًا ديناميكيًا يقبل التجديد أم فكرًا مطلقًا ثابتًا لا يقبل التطور من الناحية الأخرى. ومن خلال هذا التحليل نذهب إلى النتائج التالية:

- في الدولة القديمة والدولة الوسطى كان يسود مصر فكر مطلق ثابت لا يقبل التطور أو التغيير.
- في الدولة الحديثة حدثت ثورة فكرية واتجهت الثقافة العامة نحو الفكر النسبي المتغير والقابل للتجديد.
- ظهر في طائفة الخدم بعض الشخصيات نوي الشعر الأشقر وربما كانوا أجناسًا أوروبية تعمل في مصر أو استجلبوا كاسرى حرب.
- كانت الأميرات والسيدات الراقيات يلبسن شعورًا مستعارة سوداء، ولم تظهر أبدًا سيده بشعر مستعار أشقر مما يدل على أنه لم يكن يعتبر رمزًا للجمال في هذا العصر بل ربما كان رمزًا للوضاعة، وظلت كل الباروكات سوداء كرمز للجمال والعزة.
- ساد معظم الوقت في الدولة المصرية علاقة متعادلة بين الحاكم والمحكوم.

- كانت قيمة الحب ليست فقط قيمة خاصة بين رجل وامرأة ولكن يبدو أنها كانت إحدى القيم العامة التي تبنى عليها العلاقات الإنسانية حتى السياسية منها، والتي تذكرنا بالمقولة المسيحية الشهيرة (الله محبة).

- كان وضع المرأة متميزًا جدًا في معظم مراحل الدولة المصرية.

إذا اعتمدت على الفن (كالأدب أو الموسيقى أو السينما أو الفن التشكيلي) للتعرف على طبيعة المجتمعات فأنت أقرب إلى قلب المجتمع ووجدانه. أما إذا اعتمدت على الصحافة السياسية وخطب وكلمات رجال السلطة والكتاب السياسيين الذين يخافون السلطة ويتجنبون غضابها، فأنت أبعد ما تكون عن الحقيقة.
الفن لا يكذب.

الفصل السابع

مقدمة

كما رأينا في الجزء الأول كيف بدأت حضارة العصر الحجري عن طريق صناعة بعض أدوات الصيد من ناحية، والرسومات الجدارية من ناحية أخرى. وتناولنا هذه النقطة بالتحليل حيث بدا واضحا أن الفنان كان شخصا متخصصا في هذا المجال ومتفرغا له، ولم يكن له دور يذكر في عمليات الصيد أو الحرب أو صناعة هذه الأدوات. في حين أن تكنولوجيا صناعة أدوات الصيد والحرب والقيام بهذا النشاط كانت تقتضي ظهور قائد آخر، في الغالب كان يعينه الفنان الذي كان الأب الروحي للجماعة الذي تحول بعد ذلك إلى الساحر. واستمرت هذه الازدواجية القيادة الروحية للفنان الذي تحول إلى الساحر، والقيادة الحربية لشخص كان يجب أن يكون أقوى شخص في القبيلة، وأن عليه أن يثبت ذلك. ظلت هذه الازدواجية حتى بداية الحضارات. فكان العصر العتيق والدولة القديمة هما القاعدة القوية المتكاملة للدولة الكلاسيكية في العالم. فتطور دور الفنان الذي أصبح الساحر، ثم إلى الكاهن الذي استمر في احتكاره للسلطة الروحية، حيث كان الكاهن هو الفنان الذي يخطط لكل التماثيل ورسومات المقابر، في حين يقوم بالتنفيذ

مجموعة من العمال المتخصصين. وكان هو المنوط به القيام بالشعائر الدينية وتفسير الدين وتحديد الخير والشر ورغبات الآلهة وما تريده وما تبغضه. أما الملك فكان يحتكر السلطة التنفيذية مثل قيادة الجيوش في الحروب. فلم يكن الملك مجرد شخص بدين يعيش بين الجوارى والمحظيات وينعم بأجمل المأكولات، بل كان لازماً أن يكون الملك في الميدان في مقدمة الجيوش كجزء أساسي من واجباته لحماية شعبه، بل كان كبير المقاتلين وكان لزاماً عليه القيادة في كل معركة، كما كان عليه أيضاً أن يؤكد قوته غير العادية التي هي الشرط الأول للاعتراف به كملك. فكان يؤدي كل ثلاثين عاماً مشهداً رياضياً أمام الناس في عيد كان يسمى (عيد سد) ليثبت أمام الجميع جدارته بالملك. وكان أن بدا مبكراً في الدولة القديمة أن ظهرت فئة من المهنيين مثل المهندسين والأطباء الذين كانوا في هذا الوقت المبكر نواة القوى المدنية والتي اصطلح على تسميتها فيما بعد بالبرجوازية¹⁰⁵، والتي أصبحت اليوم المؤسس الحقيقي للدولة المدنية وأهم أعمدتها. وليس مؤكداً إن كان بواكير الأطباء والمهندسين في مصر القديمة خريجي طبقة الكهنوت أم لا. ولكن على كل حال فإنهم لم يكونوا كهنة بالمفهوم التقليدي. فكانت الدولة المصرية تتكون من مثلث وهو الملك كسلطة تنفيذية يتبعه الوزير والجيش والشرطة يمثلون مع الملك ضلعاً، والكهنة يمثلون الضلع الآخر، والفلاحون الذين يخدمون الملك والكهنة يمثلون الضلع الثالث وهو المثلث الذي يشكل ما يعرف بالمجتمع الأبوي¹⁰⁶. وكانت بواكير المهنيين الذين كان يتعاطم دورهم في

¹⁰⁵ ارتبطت البرجوازية في الفكر الماركسي بالتطور الصناعي، ودون الخوض في مناقشة هذه القضية فنحن نعني بها الطبقة الوسطى التي تمتلك العلم والفن، والتي تكون خارج الكهنوت والأسر الملكية.

¹⁰⁶ المجتمع الأبوي هو المجتمع الذي تكون فيه السلطة لا تعتمد على أي حق في وجودها إلا الحق الإلهي. وتكون طاعة السلطة فرض مطلقاً وغير مرتبط بشرط عدالة الحكم. وتكون العلاقات الاجتماعية بين السلطة والشعب انعكاساً للعلاقات الأسرية.

الدولة المصرية القديمة في تصاعد مستمر يبنى بدورهم الحاسم في المستقبل. وهذا المثلث استمر حتى العصور الوسطى¹⁰⁷، بل حتى الثورة الفرنسية التي شهدت سيطرة هؤلاء المهنيين (البرجوازية). على الحكم وإنهاء المجتمع الأبوي الذي بدأ مع الدولة القديمة في مصر¹⁰⁸.

¹⁰⁷ : قال الملك ألفريد العشظيم ملك إنجلترا في القرن التاسع عشر:
الله خلق العالم علي شكل مثلث ، ضلع يحكم وضلع يصلي وضلع يخدم الضلعين
الأخرين .
¹⁰⁸ هناك بعض الظواهر التي تكسر القاعدة، وهي وجود ثورات واعتراضات على الملك
تعتبر كسرًا للشكل الأبوي للسلطة. كما يعتبر الإسلام في تحليله الاجتماعي هو أول محاولة
لحل المجتمع الأبوي، وإن كانت المجتمعات الإسلامية غرقت كلها بعد ذلك في برائن المجتمع
الأبوي.

المصادر المهمة للتاريخ

المصدر الأساسي لمعلوماتنا عن التاريخ المصري القديم هو كاهن مصري فرعوني من مدينة سمنود في محافظة الغربية في معبد سبينيتوس عاصر أوائل الفترة المعروفة بالبطالمة، في الفترة من 323 إلى 245 قبل الميلاد، وقد كتب كل التاريخ المصري بتقسيماته المعروفة من الأسرة الأولى حتى الأسرة الثلاثين.

كتب مانيتون باللغة اليونانية، ولكن هذه النسخة فقدت وتبقى لنا أجزاء لا بأس بها من الترجمة اللاتينية لكتابه ومن بعض الاقتباسات التي قام بها المؤرخ يوسيفوس.

المصدر الثاني لمعلوماتنا عن التاريخ المصري القديم هو الآلاف من شقائق الفخار التي كانت دروسًا للإملاء في مدارس تعليم الكتابة التي كانت منتشرة في كل أنحاء البلاد. وعليها تصحيح المدرس باللون الأحمر تمامًا كما يحدث الآن في مدارسنا.

بعد هذين المصدرين تتعدد المصادر الأخرى مثل حجر بالرمو في إيطاليا وهو حجر عليه قوائم لعدد لا بأس به من ملوك مصر، ثم برديات الأسرة 17. وهي برديات وجد منها أجزاء تدون تاريخ البلاد حتى هذه الأسرة. ثم في النهاية ما كتب في المعابد المختلفة وما وجد من برديات. ولكن يظل مانيتون ودروس الإملاء للأولاد المصدرين الأهم:

عصر الأسرات

يبدأ عصر الأسرات في مصر كما حدده مانيتون بالعصر العتيق الذي يشمل الأسرتين الأوليين. ثم الدولة القديمة وهي تبدأ بالأسرة الثالثة حتى السادسة. ويتبع ذلك كما حدده مانيتون عصر الانتقال الأول (عصر الثورة الشعبية الكبرى)، من الأسرة السابعة حتى الأسرة العاشرة. ثم الدولة الوسطى وهي من الأسرة العاشرة حتى الأسرة الثالثة عشرة. ثم عصر الانتقال الثاني. وهو يبدأ من الأسرة الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة. ثم تبدأ الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين. عصر الانتقال الثاني وهو يبدأ من الأسرة الواحدة والعشرين حتى الأسرة الخامسة والعشرين. ثم العصر المتأخر وهو من الأسرة الخامسة والعشرين حتى الأسرة الثلاثين.

البداية

العصر العتيق

الأسرة الأولى من 2980-3200 ق. م.

نعرمر وتوحيد القطرين

هو أول ملوك مصر المتحدة حسب تأريخ مانيتون، ومؤسس مصر بحدودها الحالية تقريباً¹⁰⁹. وصاحب أول وأطول وربما أعظم وحدة بين شعبيين على مر العصور.

كما رأينا في الجزء الأول ظهرت في مصر في فترة ما قبل الأسرات مدن متعددة في مناطق مختلفة حول نهر النيل. وكان أن اتحدت هذه المدن في مملكتين، واحدة في الشمال كانت عاصمتها بونتو (دسوق الحالية)، وكان ملكها يرتدي التاج الأحمر، وكان شعارها ثعبان الكوبرا (واد جيت).

كما ظهرت مملكة أخرى في الجنوب، كانت عاصمتها الكاب بالقرب من إدفو، وكان ملكها يرتدي التاج الأبيض وكان شعارها أنتى النسر (نخبة).

بدأت محاولات الوحدة بين المملكتين وكما يقول بعض الأثريين بملك اسمه العقرب (سعرقت) من جنوب مصر. ويؤكد هؤلاء

¹⁰⁹ هذا إذا استثنينا الصحراء التي كانت لا تعتبر أراضي لأي دولة، بل كانت كالقراغات بين الدول.

الأثريون خاصة الفرنسيين أن زمن هذه الوحدة الأولى هو 4500 قبل الميلاد. أي في زمن البداري وقبل نعر مر بأكثر من 1000 عام. ولكن لسبب ما لم تستمر هذه الوحدة وعاد الانقسام. حتى جاء نعرمر أو ميني (المشيد).

صورة 1



وما زالت تتعدد الآراء والنظريات. فبينما استقر الجميع على أن نعرمر صاحب الصلاة المشهورة (صورة 1) هو موحد مصر عام 3200 قبل الميلاد، يختلف الكثيرون على الملك العقرب. كما أن أسطورة عزة ووزير وهور (إيزيس وأوزوريس وهورس) تلح بشدة على إمكانية وجود ملك في زمن ما اسمه وزير (أوزوريس) موحد القطرين، ثم سلب منه العرش، ثم استعاد ابنه حور (هورس) عرش الوحدة مرة أخرى. ولكن أصحاب هذا الرأي لم يستطيعوا تحديد فترة زمنية لذلك. ولهذا فيظل نعرمر أو ميني (كما ذكره مانيتون) هو البداية المعترف بها.

الصلاة تصور مينا منتصراً على أهل الشمال، فيرى وهو يضرب أحد الأعداء في الوجه الأيسر للصلاة كما يشاهدوا (بضم الياء) وهم يهربون منه في نفس الوجه ولكن أسفل. وفي الجهة اليمنى يرى أسدين برقتين طويلتين متداخلتين، ربما كان هذا رمز الوحدة.

كما يرى الثور رمز قوة جيش الجنوب وهو يضرب أحد جنود الجيش الآخر.

يلاحظ أن نعمرر ملتح بلحية كاملة من الأذن حتى الأذن. وهذا امتداد لوجوه الرجال القريبة من الآشوريين في مرحلة ما قبل الأسرات. كما نلاحظ أيضاً نفس اللحية في الجندي المعادي الذي يضربه نعمرر. (كان سكان القطرين يتشابهون كثيراً على المستوى الإنثي) ومن هنا نستطيع تتبع تطورات إظهار الوجه منذ ما قبل الأسرات حتى ما بعدها، وكيف كانت اللحية طويلة تماماً كالسوريين والعراقيين المعاصرين لعصر ما قبل الأسرات. ثم أخذت تقصر في الأسرة الأولى. ثم اختفت بعد ذلك ولم يتبق منها سوى اللحية العيرة الرمزية. حتى أننا نرى نعمرر بالشكلين. أولاً لحية حقيقية تمتد من الأذن حتى الأذن في الصلاة، ثم اللحية الرمزية صورة 2 .

صورة 2 الملك نعمرر.



عرفت البشرية أنواعًا من الوحدات بين الشعوب. بعضها فشل وبعضها استمر. وتعبير وحدة تعبير حديث. فقد كانت عمليات الاندماج بين الشعوب تتم عبر حروب استعمارية. فينجح بعضها في القضاء التام على هوية المهزوم ودمجه إلى المنتصر. وقد يستمر هذا الدمج وقتًا أولًا يستمر. والأمثلة على هذه التجربة كثيرة منها كل الإمبراطوريات من اليونانية إلى الرومانية انتهاء ببريطانيا وفرنسا. وهذا الدمج يتم عن طريق سحق الآخر ومسح هويته وسيادة هوية المنتصر. هذا هو شكل الوحدة أو الدمج الذي عرفه العالم القديم والذي مازال موجودًا حتى اليوم. أما الدمج بين شعبين عن طريق الاتفاق والاحترام المتبادل فهذا لم يكن معروفًا في العالم القديم وهو ظاهرة حديثة نسبيًا. أشهر نموذج لذلك هو الاتحاد الأوروبي، إذ يقوم على الاتفاق ومراعاة مصلحة كل شعب والتعامل بالمساواة بين مصالح الشعوب وعدم طغيان مصلحة أو ثقافة شعب على الآخرين¹¹⁰. الدمج الذي ينشأ على قهر الآخر يفشل في معظم الحالات. أما الدمج الذي يقوم على احترام الآخر فحظه من الاستمرار أقوى.

بدراسة الوحدة بين قطري مصر نجد أنها ذات خصائص يجعلها وحدة نادرة الحدوث في التاريخ القديم والحديث. فهي أول وحدة في تاريخ البشر، وأطولها أيضًا. ربما من الممكن أن تسمى الوحدة المثالية. وهذا يحتاج إلى تحليل.

- كان الشعبان في جنوب الوادي وشماله متحدثين في اللغة والثقافة والدين. وهو ما جعلهما يشعرا بأهمية الوحدة، التي كما قال المؤرخون تعددت محاولاتها بالحاح. فلم يفكر أهل الجنوب في الاتحاد مع النوبيين الذين كانوا أقرب

¹¹⁰ يحاول العرب تحقيق اتحاد على نفس المنوال ولكنه أقل نجاحًا من الاتحاد الأوروبي.

- جغرافيًا. ولكنهم فكروا أكثر من مرة، - أو فلنقل كل مرة في أهل الشمال- رغم المسافة الشاسعة التي تفرقهما.
- رغم أن الوحدة نشأت نتيجة هزيمة عسكرية فإنها لم تتحول إلى هزيمة سياسية أو ثقافية. فارتدى ملك الجنوب المنتصر التاجين معًا. وهو أمر غاية في الحكمة. وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة في التاريخ التي يرتدي فيها ملك تاجًا مكونًا من تاج المنتصر والمهزوم معًا. وهو اعتراف بشرعية الملك في كلا القطرين.
- تحولت العاصمة من الكاب في الجنوب (المنتصر) إلى منف في شمال مصر (المهزوم). وهي تقع بالتحديد 18 كيلو مترًا جنوب القاهرة. وأطلق نعمر على هذه المدينة اسم الجدار الأبيض (جنب - حدج). ثم سميت بعد ذلك (من- نفر) في عهد الملك بيبى الأول ثالث ملوك الأسرة السادسة. ومن هذا الاسم جاءت التسمية اليونانية منفيس. والآن تعرف باسم منف وهو الاسم الأشهر.
- لم تعرف الدولة الجديدة أي مظهر من مظاهر التنكيل أو التعالي أو الغطرسة من المنتصر الجنوبي على المهزوم الشمالي، بل بدا الأمر وكأن النصر كان للجنوب والشمال معًا. والمنهزم هو التقسيم.
- منذ ذلك التاريخ ومصر أصبحت تسمى الأرضين. (طاوي). وأصبح في ضمير كل ملك وكل فرد أن بلده هي كل مصر من الجنوب حتى الشمال.
- نجد أن توحيد القطرين على يد نعمر رغم أنه كان نمجًا قصرًا عن طريق حرب، فإنه احترم تمامًا حقوق وثقافة

ومكانة الشعب الآخر على قدم المساواة. وأنا أعتقد أن هذه الوحدة تعتبر درسًا ليس فقط في التاريخ، ولكن في الوعي والحكمة السياسية. فكتب لها أن تكون وحدة فريدة في التاريخ.

إذا قارنا الوحدة المصرية بمحاولات الوحدة في العراق (على سبيل المثال) لوجدنا الكثير من العبر. فقد حاول الأكاديون توحيد المدن العراقية في عهد سرجون ولكن هذا لم يدم أكثر من 2371-2230 ق. م. أي حوالي 140 سنة فقط. ثم الكوتويون من 2211-2006 ق. م. أي 200 سنة فقط. ثم البابليون الأوائل من 1894-1595 ق. م. أي 300 سنة، ثم الآشوريون من 1600-612 ق. م. ثم بابل الثانية... هذا طبعًا بعد تلخيص شديد وحذف محاولات العموريين والكاشيين وغيرهم. فلم تدم أي وحدة أو اندماج في العراق¹¹¹، كما هو الحال في وحدة نعرمر في مصر. والحقيقة أن معظم الكيانات السياسية الأخرى في العالم القديم والجديد في سوريا واليونان وإيطاليا وألمانيا وفرنسا ويوغوسلافيا... وأخيرًا الاتحاد السوفيتي لم تخرج عن هذا السياق. أما وحدة نعرمر في مصر فهي ذات بعد آخر.

حكم نعرمر 62 عامًا. وهذا يعني أنه عاصر عيد سد مرتين. وهو العيد الذي لزامًا على الملك إثبات قوته فيه كما شرحنا قبلًا. أحد هذين العيدين مدونًا.

مات الملك المعظم والجد الأكبر والمؤسس الحقيقي لمصرنا الحبيبة في رحلة صيد عندما حاول مهاجمة أحد أفراس النهر، ولكن الغلبة كانت للحيوان العملاق الذي قتل الجد الأكبر.

¹¹¹ الغريب في الأمر أن التناقضات الإثنية في العراق من سني وشيعي وكرد و تركي وآشوري وغيرهما مازالت تهدد كيان الدولة، التي لن تستطع حتى الآن التئيب الكامل للتناقضات الإثنية داخل الكيان الكلي.

حكم بعد نعمر: حور عا- إتي الثاني (جر) 41 سنة - أتي
الثالث (واجيت) 23 سنة - خاستي (دن) - عرين 20 سنة - مر
بي با (عج إب) 10 سنوات - إري نتر (سمر خت) 9 سنوات -
قاع سني (قا عا).

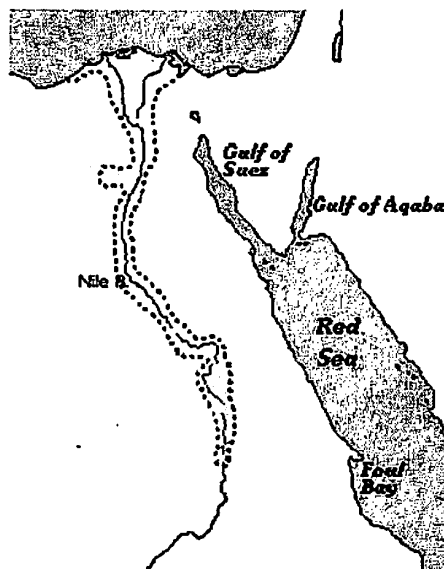
الأسرة الثانية 2880-2980 ق.م.

حوتب (حتب سخموي) 38 عامًا - نوب نفر (رع نب) 39 سنة -
ني نتر ونج بري إب سن (خع سخم) 40 عامًا- ونج 8 سنوات -
إب سن 20 عامًا - خع سخم 17 عامًا - بري ماعت - حتب نبوي
إمف.

الدولة القديمة

تتكون الدولة القديمة من أربع أسر: الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة. وربما أنه من أهم إنجازات الدولة القديمة هو تشييد الأهرامات التي أصبحت أهم مميزات مصر قديمًا وحديثًا. وكان تشييد هذه الأهرامات بداية لظهور مهندسي العمارة المصريين ومنهم إيمحتب الذي صمم هرم سقارة المدرج للملك سنفرو. وبعد موت هذا المهندس تم تقديسه وأصبح رب الهندسة فيما بعد، وتحول في اليونان إلى رب الطب. ربما كان إيمحتب مهندسًا وطبيبًا أيضًا.

صورة 3



في صورة 3 نجد خريطة مصر في العصر العتيق والدولة القديمة. وهي تمتد بمحاذاة النيل من البحر المتوسط شمالا حتى أسوان جنوبًا. هذه الخريطة تمثل نواة مصر الحالية. أي الأرضين الشمال والجنوب، حيث كانت أسوان تمثل حدود مصر والنوبة، واصل كلمة أسوان هو (سونو) أي السوق، حيث كانت سوقا للتبادل التجاري بين مصر والنوبة. الصحراء المتاخمة للوادي كانت سبب قلاقل مستمرة للمصريين. فكان تقريبًا كل فرعون يسجل انتصاراته على البدو الذين كانوا دائمي الإغارة على المدن المصرية نهبها وسرقتها¹¹². مع الوقت أصبحت هذه المناطق الصحراوية تحت السيادة المصرية وجزءًا من مصر رغم وجود البدو فيها (غير المعترف بمصريتهم في ذلك الوقت، إذ ظلوا يعيشون على الأرض المصرية يتحركون فيها دون أن تعترف الدولة بمصريتهم حتى القرن العشرين وبالتحديد عام 1956، حيث أعطاهم جمال عبدالناصر الجنسية المصرية وطبق عليهم نظام التعليم الإجباري والخدمة العسكرية وبدءوا يستقرون ويشعرون كمصريين).

بنى المصريون القلاع المختلفة للحماية من غارات البدو ومن الأعداء الذين بدؤوا في الظهور في الدولة الوسطى من آسيا الصغرى.

الأسرة الثالثة. 2780-2680 ق. م.

زوسر الأول (إري خت نتر)، زوسر الثاني (سانخت)، تتي (خع) (با)، نب كاوو، حوني

¹¹² حتى أنه هذا كان تقريبًا عملاً روتينيًا كل الوقت حتى ضمهم عبد الناصر عام 1956 إلى الشعب المصري وأعطاهم الجنسية المصرية وطبق عليهم قوانين التعليم الإلزامي والخدمة العسكرية.

ذكر مانيتون أن زوسر حكم من 2668 - 2649؛ ولكن التاريخ يحدد الكربون المشع بداية عهد بين 2691 و 2625

هرم زوسر (سقارة)



الملك زوسر



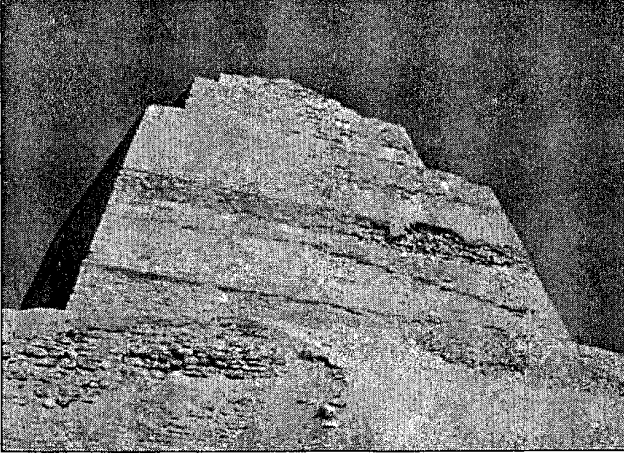
Photo: King of the World 30 years, author of the book 'The Great Sphinx of Giza'.

وبنى له المهندس إحتب الهرم المدرج على عدة مصاطب. وقد أصبح هذا المهندس فيما بعد شخصية مقدسة وتحول في اليونان إلى إله الطب. مما يشير إلى أنه بجانب كونه مهندساً كان أيضاً طبيباً.

وجاء بعد زوسر حكم زوسر الثاني، ثم الملك تتي، ثم الملك نب كاوو، ثم حوني

ويقال إن الملك حوني هو من بدأ في تشييد هرم ميدوم الذي أتمه بعد ذلك الملك سنفرو.

هرم ميدوم



الملك حوني



الأسرة الرابعة من 2513-2498

سنفرو، خوفو، جدف رع، خفرع، حورددف، با إف رع، منكاو
رع، جدف بتاح

الأسرة الرابعة هي أسرة بناء الأهرام الشهيرة.

مؤسس هذه الأسرة هو الملك سنفرو. ورغم أنها أسرة جديدة، ولكن يبدو أن انتقال السلطة كان سلمياً. فلقد تزوج سنفرو (ابن الملك حوني من زوجة فرعية) صاحبة الحق في وراثة العرش. وأسس الأسرة الرابعة. وهو ما أكدته المصادر الأدبية، إذ ذكر أحد أدباء الدولة الوسطي في نصوصه: "وبعد أن توفي جلاله الملك حوني نصب جلاله الملك سنفرو باعتباره ملكاً فاضلاً في هذه الدنيا كلها". من الملك سنفرو؟ سنفرو هو الاسم المختصر من "بتاح سنفروي"، أي "بتاح جملني".

هرم سنفرو أو الهرم الأحمر



الملك سنفرو



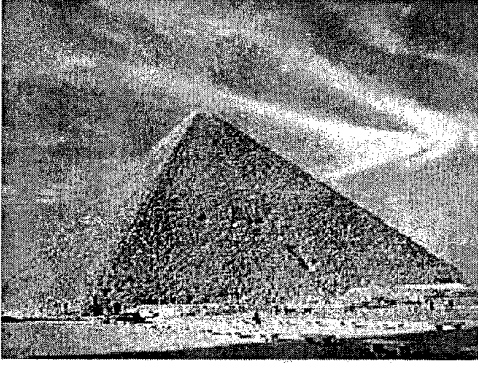
ويعتبر هذا الملك من الملوك الأقوياء الذين بدءوا الحملات العسكرية على الجهات الثلاث الغرب والشمال الشرقي والجنوب. فشن حملات تآديبية على بدو سيناء وترك آثارًا على جبل المغارة تدل على ذلك. وحملات على بدو ليبيا وحملات على النوبة (الذين أسماهم نحسيو) لتأمين الحدود والتجارة المصرية من غارات النهب. كما بدأ في إرسال أسطول بحري إلى جبيل في لبنان لشراء الأخشاب من هناك.

ثاني ملوك الأسرة الرابعة هو الملك خوفو (غنم أوف وي) (خنم أوف وي) باني الهرم الأكبر. تولى الحكم بعد وفاة والده سنفرؤ. وهو من قرية (منعت خوفو) أي (مرضة خوفو) وهي بلدة بني حسن حاليًا. أرسل البعثات إلى وادي المغارة لإحضار الفيروز. حيث وجد اسمه وصورة تمثله وهو يهوي على رأس شخص بدبوس قتال. له تمثال وحيد عثر عليه في أبيدوس من العاج، نقش اسمه على كرسي العرش، وطول التمثال خمسة سنتيمترات، وهو الآن بالمتحف المصري. حكم طبقًا لبردية (تورين) حوالي ثلاث وعشرين سنة. في عهده بني الهرم الأكبر في الجيزة، وكان أضخم بناء حجري في العالم في هذا الوقت، أطلق عليه اسم (أخت خوفو) بمعنى أفق خوفو شيد سنة 2650 ق. م. وقد صممه مهندس اسمه (حم إيونو)

قاعدة الهرم الأكبر مربعة والفرق بين جوانبها الطويلة والقصيرة نسبيًا حوالي 19 سنتيمترًا بينما يبلغ طول كل ضلع من أضلاع المربع أصلًا 230 مترًا، وارتفاعه العمودي 146,7 متر، وقد بني من 2,3 مليون حجر تزن الواحدة في المتوسط 2,5 طن متري. وقام بينائه 25 ألف عامل. الهرم الأكبر من الداخل به ممرات تؤدي لحجرات عديدة من أهمها حجرة دفن الملك خوفو،

وفي هذه الحجرات ترك الكهنة مقتنياته التي سيستعملها بعد الحياة،
ورغم سد الممرات بعد دفنه فإن لصوص المقابر نهبوا محتويات
المقبرة القيمة¹¹³.

الهرم الأكبر



الملك خوفو



بعد الملك خوفو يأتي الملك جدف رع. وقد حدث في عهده صراع
بين الأخوة على العرش. بنى هرماً لم يكتمل ولم يهتم أخوه خفرع
الذي حكم بعده باستكمالها. ويقال إنه صاحب تمثال أبي الهول.

¹¹³ راجع بناء الهرم في فصل التطور الاجتماعي في مصر القديمة.

هرم الملك جدف رع



الملك جدف رع

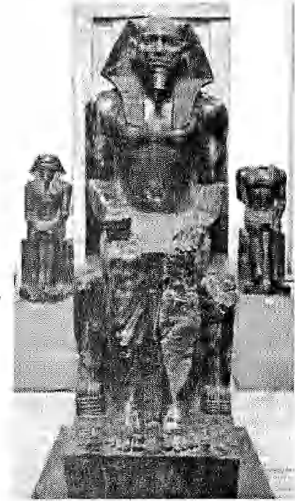


بعد جدف رع (الثابت مثل رع) يأتي الملك خفرع (خع إف رع) الذي حكم فترة تصل إلى 26 سنة بنى خلالها الهرم الثاني مع مجموعة هرمية متاخمة لمجموعة هرم أبيه خوفو ويصل ارتفاعه إلى 143,5 متر وحاليا 137 فقط.

هرم الملك خفرع



الملك خفرع



بعد الملك خفرع يأتي الملك حور ددف، ثم الملك با إف رع ثم الملك من كاو رع (منقرع).

صاحب الهرم الثالث وإن كان البعض ينسب الهرم الثالث إلى سابقه بإف رع. ثم الملك شيسكاف، ثم الملك جدف بتاح.

الأسرة الخامسة من 2560-2430 ق. م.

أوسركاف، ساحورع، نفر إر كا رع، شيسكا رع، نفر رع، ني وسر رع، منكاو حور، جد كا رع، (إيسيسي)، أوناس (ون إيس) تبدأ الأسرة الخامسة بالملك أوسركاف (وزير كاف) (إير ماعت) حكم سبع سنوات، ثم الملك صا حور رع وحكم 14 سنة، ثم الملك نفر إير كا رع، ثم الملك شيس كارع أو (شيسس كا رع) وحكم 7 سنوات، ثم الملك نفر إف رع أو (رع نفر إف) والذي حكم 4 سنوات تقريباً، ثم الملك ني وسر رع الذي حكم أكثر من 30 سنة، ثم الملك من كاو رع الذي حكم 8 سنوات، ثم الملك جد كا رع (إيسيسي) الذي حكم 28 سنة، ثم الملك ون إيس (أو ناس) الذي حكم 30 سنة وهو صاحب الهرم الشهير الذي به كتابات مهمة عرفت بمتون الأهرام. وهي نصوص دينية تمثل بها تلميحات مثيولوجية مهمة.

الأسرة السادسة من 2280-2420 ق. م.

تتي، أوسر كا رع، بيبي الأول، مررع (مري أن رع)، الأول، بيبي الثاني، مرن رع الثاني، منكاو رع، نيت إقرني (نيتو كريس) وأول ملوك هذه الأسرة هو الملك تتي وحكم تقريبًا 12 سنة، يليه الملك أوسر كا رع (وزير كا رع) حكم ربما 4 سنوات، ثم الملك بيبي الأول الذي حكم حوالي 24 سنة، ثم الملك مررع (مري أن رع) (عتي أم سا إف) الأول الذي حكم 10 سنوات، ثم الملك بيبي الثاني.

والملك بيبي الثاني (نفر كا رع) حكم حوال 96 عامًا، وهو يعتبر صاحب أطول مدة حكم في تاريخ البشرية. بدأ كحاكم قوي أرسل عدة حملات في الجنوب في بلاد النوبة، إلا أن نهاية فترة حكمه شهدت ضعفًا في مركزية الدولة وانفصالًا تدريجيًا لبعض حكام الأقاليم وبداية ما يعرف بظاهرة الأمراء المستقلين نسبيًا وهو ما أدى لظهور الإقطاع¹¹⁴.

وبعد بيبي الثاني ظهرت الملكة نيت أقرتي (باليونانية نيتو كريس) والتي قال عنها مانيتون أنها كانت أجمل نساء العالم. وذكر عنها هيروdot بناء على ما سمعه من المصريين أن مجموعة من الخونة قتلوا أخاها وعينوها ملكة على مصر بدلًا منه. ولكنها عندما اكتشفت هذه المؤامرة قتلت من قتلوا أخاها ثم انتحرت. ومن خلال وصف مانيتون بأنها أجمل نساء العصر، والوصف الذي نقله هيروdot من المصريين عنها أنها كانت أيضًا أنبل نساء العصر التي رفضت العرش بهذا الشكل غير الشرعي وانتقمت من

¹¹⁴ ظاهرة الإقطاع مرتبطة بضعف في مركزية الدولة وتزايد في نفوذ وقوة حكام الأقاليم ووضع أقاليمهم تحت سيطرتهم الكاملة بموافقة الدولة ولا يتبقى بينهم وبين الدولة المركزية سوى ولاء اسمي تدعمه بعض العطايا والهدايا، التي لا تصل إلى مستوى الضرائب.

المجرمين، بل وانتحرت معاقبة نفسها لإحساسها بأنها لعبت دورًا حتى دون أن تعي في الجريمة النكراء. نحن أمام شخصية فريدة في التاريخ. فلم نسمع عن هذا القدر من النبيل النادر في التاريخ.

كيفية انتهاء هذه الأسرة غير معروفة. ولكن يمكننا بعد انتحار الملكة نبيت إقرتي أن نتصور أن السلطة المركزية بدأت في الضعف وبدأ يتنامى دور حكام الأقاليم. والأمراء. وربما بدأ نوع من السلطوية والظلم يزداد على الفلاحين. وهناك تلميحات من مانتيون وغيره بأن البلاد شهدت فقرًا في المياه وبالتالي في الزراعة مما زاد الأمر حدة. وأدى ذلك بدء ظهور القلاقل في أنحاء متعددة.

عصر الانتقال الأول. الأسرات من 7 إلى 10. 2052-2280 ق.م.

الفترة الانتقالية الأولى هي عصر الثورة الكبرى. فيبدو أنه حدثت انتفاضة عارمة في كل أنحاء مصر من أسوان إلى الدلتا وقد رصدها كاهن يسمى إيبورو ور في بريدية له بهذا الاسم¹¹⁵. وقد حدث تغيير كبير في نظام الدولة فظهر الإقطاع في الأسرة السابعة والثامنة والتاسعة، ثم تحلل الإقطاع مع زيادة الاستقرار وزيادة المركزية. كما ظهر في الأسرة الثامنة مجلس شورى من حكام الأقاليم يشترك مع الملك في الحكم. وهو أشبه بمجلس الشورى الذي كونه محمد علي عام 1829. وحدث تغيير كبير في الدين يشير إلى التغيير الاجتماعي وهو المساواة بين الملك والشعب أمام الإله وزير (أوزيريس). فأصبح لكل شخص في مصر الحق في التكفين على أساس التوحد بالإله والعالم الآخر تمامًا كالملك وهو ما يشير إلى ظهور أول بادرة مساواة بين الملك ورعاياه في التاريخ.

¹¹⁵ راجع فصل التطور الاجتماعي في مصر القديمة.

الأسرة السابعة 2280

ويذكر مانيتون أن هذه الأسرة كانت 70 ملكاً حكموا سبعين يوماً.
وربما كان هذا إشارة إلى ظهور الإقطاع. وليست هناك معلومات
أثرية غير ترجيحات وتخمينات.

الأسرة الثامنة 2242-2280 ق. م.

نفر كا رع (الأصغر)، نفر كا رع نبي، جد كا رع شماي، نفر كا
رع خندو، نفر كا مين، ني كا رع، نفر كا رع تررو، نفر كا حور،
نفر كا رع ببي سنب، نفر ك مين عنو، قا كا رع إبي، واج كا رع،
نفر كا حور (حورس) نتري باوو، نفر إر كا رع (حورس) دمج
إب تاوي.

الأسرة التاسعة 2133-2242 ق. م.

أختوي الأول (مري إر رع)، نفر كا رع، أختوي الثاني، ستوت،
أختوي الثالث، مري.

الأسرة العاشرة 2052-2133 ق. م.

مري حتحور، نفر كا رع، أختوي الرابع، مري كا رع، أختوي
الخامس.

الدولة الوسطى: الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة.

الأسرة الحادية عشرة من 2060-2134

الأسرة الحادية عشرة أسرة ذات جذور من مصر العليا. وهي التي أعادت الهدوء والاستقرار في مصر وحكمت من محلية لها جذور في صعيد مصر الذي حكم من 2134 إلى 1991 قبل الميلاد.

إنيوتف الأول (سهر تاوي)، إنيوتف الثاني (واح عنج)، إنيوتف الثالث (نخت نب تبي نفر)، مونتوحتب الثاني (نب حبت رع)، مونتوحتب الثالث (سمنخ كا رع)، سنوسرت وآخرون، مونتوحتب الرابع.

الأسرة الثانية عشر 1778-1991

أمنمحات الأول (سحتب إب رع)، سنوسرت الأول (خبر كا رع)، أمنمحات الثاني (نوب كارع)، سنوسرت الثاني (خع خبر رع)، سنوسرت الثالث (خ عكا رع)، أمنمحات الثالث (ني ماعت رع)، أمنمحات الرابع (ماعت خرو رع)، سوبك نفرو (سوبك كارع)

مؤسس هذه الأسرة هو الملك أمنمحات الأول (سخم رع واح خاعو)

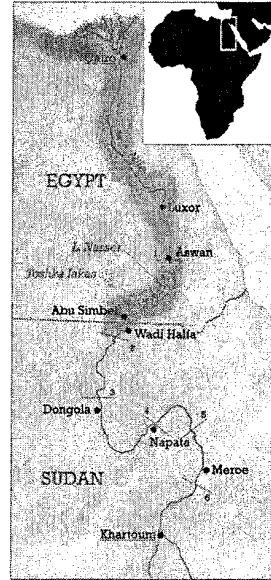
كان أمنمحات الأول (سحتب إب رع) أو أمنمحت الأول ابن كبير الكهنة الذي يُدعى سنوسرت وابن سيدة تدعى نيفرت، ثم أصبح وزيراً لآخر ملوك الأسرة الحادية عشرة) منتوحتب الثاني. ولما مات الملك دون وريث أعلن نفسه ملكاً على مصر حوالي 2000

ق. م. أرسل حملات تآديبية ضد بدو سيناء والليبيين. ونقل العاصمة من طيبة إلى الفيوم واسماها (أنيت طاوي) وتعني حامية الأرضين. في عهده كان هروب قائد جيوشه سنوحي إلى سوريا والذي عاد في حكم ابنه.

الملك سنوسرت الأول (خبر كارع) هو ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة. اشترك في حكم مصر مع والده لمدة 3 سنوات ثم حكم بعدها 43 سنة. في عهده كان الأدب والصناعة في أوجهما. كما تميزت هذه الفترة بازدهار الثروة المعدنية واستخراج المعادن كالذهب بوفرة.

في عهد هذا الملك بدأت السياسة المصرية تنظر بعين الاهتمام بالجنوب ولأول مرة تتوسع مصر جنوبًا وتضم أراضي من النوبة حتى وصلت إلى وادي حلفا. وهي تزيد قليلاً عن مصر الحالية من الجنوب.

خريطة مصر في عهد سنوسرت الأول سنوسرت الأول على هيئة وزير



الملك أمنمحات الثاني (نوب كارع) جاء بعد سنوسرت الأول. حكم مع أبيه ثلاث سنوات ثم 32 سنة بعدها وحده. لم يكن له نشاط ملحوظ سوى حملتين في فلسطين.

أمنمحات الثاني



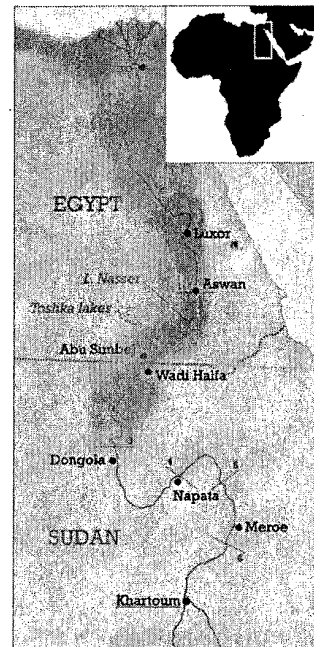
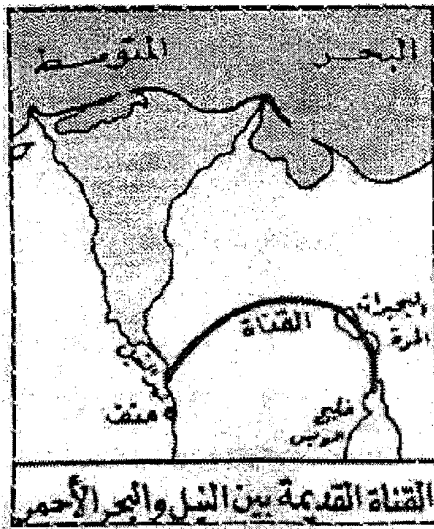
خلف أمنمحات الثاني ابنه سنوسرت الثاني (خع خبر رع). وهو من الفراعنة الذين أبدعوا في الزراعة فبنى قناطر لحجز مياه الفيضان واستغلالها بعد ذلك. وهو الذي بنى بحيرة قارون الحالية، وبنى لنفسه هرمًا في منطقة اللاهون.

بعد سنوسرت الثاني جاء الملك سنوسرت الثالث (خ عكار رع) وهو من عظماء الدولة الوسطى. وواضح أن طموحات مصر في التوسع أصبحت تتزايد باستمرار. فتوسع سنوسرت الثالث حتى الشلال الثالث في الجنوب. وفي الشرق بنى قلعة في مدينة جبيل في لبنان.

هذا يعني أن النفوذ المصري العسكري في شرريا بدأ مبكراً جداً. ومن الممكن رؤية القلعة المصرية في جليل كقاعدة عسكرية مصرية متقدمة على غرار القواعد العسكرية التي تبنيتها القوى الكبرى في دول مختلفة. كما بنى هذا الملك أول قناة تربط البحرين الأحمر والأبيض، وسجل كل ذلك على مسلة.

قناة سيزوستريس

حدود مصر في عهد سنوسرت الثاني



ويعقب الملك سنوسرت الثالث أمنمحات الثالث (ني ماعت رع). وهو أيضاً من أعظم ملوك الأسرة 12. وقد بنى معبداً جنازياً يبدو أنه كان مدهشاً. فقد زاره كل من ديودوروس شسيولوس وهيرودوت وانبهر به وذكر أنه أعظم من اللابيرانت اليوناني وتحدثوا عن

أعاجيب إغلاق وفتح أبوابه وما ذكره يذكرنا بخدع تشابه السينما الأمريكية. قال فيه هيرودوت: "إنه يفوق الوصف، يتكون من 12 بهوًا، ومن 3 آلاف غرفة، نصفها تحت الأرض ونصفها الآخر فوقها، والغرف العليا تفوق كل ما أخرجته الإنسان من آثار، إذ أن سقوفها كلها شيدت من الأحجار، ويحيط بكل بهو أعمدة مصنوعة من الأحجار البيضاء....". ولكن لم يتبق من هذا المعبد شيء يذكر.

أممحات الثالث



أممحات الرابع (ماعت خرو رع) حكم حوالي 47 سنة بشكل هادئ وبدون إنجازات كبرى.
بعد أممحات الرابع حكمت الملكة سوبك نفرو (سوبك كارع).

الملكات المصريات اللاتي حكمن هن أول ملكات في تاريخ البشرية. فقد رأينا من قبل الملكة نيت إقرتي (نيتو كريس). والآن الملكة سوبك نفرو.

عصر الانتقال الثاني

هذه الفترة شهدت الأسرات من 13 حتى 17. 1778 - 1570 ق.م.
الأسرة الثالثة عشرة من 1778- 1625 ق. م. كانت العاصمة
طيبة. وقد نكر مانيتون من ملوك هذه الأسرة حوالي 60 ملكا.
الأسرة الرابعة عشرة 1778- 1594 عاصمتها في سخا ويذكر
مانيتون أن عدد ملوكها وصل إلى 76 ملكا. حكموا 184 سنة.
الأسرة الخامسة عشرة 1675-1567 ق. م. (هكسوس)
الأسرة السادسة عشرة 1670-1567 (هكسوس)

الهكسوس

مازال الهكسوس يعتبرون لغزًا حتى الآن وذلك ليس بسبب نقص المعلومات، ولكن بسبب محاولات عدد من الباحثين الأثريين استغلال تاريخهم لأغراض سياسية. فيوسيفوس المؤرخ اليهودي كان من أوائل هؤلاء، إذ ادعى أن الهكسوس كانوا يهودًا. وأنهم بنوا إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف (على غرار تحتمس وما تبعه من ملوك مصريين وغير مصريين) ونحن لا نعرف كيف وصل خياله على هذا الحد. فقد كانوا يعبدون آلهة مصرية مثل رع وست وسوتخ وغيرها. ولم يعرفوا أية آلهة أخرى سوى بعض التلميحَات لِآلهة سورية مثل عشتارت.

حاول البعض إثبات أن الهكسوس آراميون بحكم أنهم أتوا من الأراضي السورية. ولكن هذا يظل احتمالًا بعيدًا. فالآراميون كانوا يملكون لغة وثقافة قوية، لم تظهر لها ملامح تذكر في هكسوس مصر الذين كانوا يكتبون في معابدهم بالهيروغليفية ويتحدثون المصرية.

يذكر مانيتون أن الهكسوس أتوا من مناطق مجهولة. وطبعًا لأن سوريا كانت معروفة تمامًا في مصر وكان بين مصر وسوريا تجارة كبيرة وعلاقة جوار جيدة جدًا كما تذكر البرديات المختلفة فإن تعبير مانيتون أن الهكسوس أتوا من مناطق مجهولة يدفعنا للشك في احتمال أنهم سوريون. كما أن هناك إشارة مهمة تقطع بأنهم غرباء عن سوريا وتمثل الدليل الحقيقي على أصلهم. فقد ذكر سنوحي الذي هرب من مصر في الأسرة الثانية عشرة في عهد أمنمحات الأول أنه وصل إلى سوريا وتحول إلى أمير أو شيخ قبيلة. وأن خطر الهكسوس ظهر في البلاد فاضطر لتجهيز جيش

قاتلهم في أكثر من موقع. وكان سنوحي هو أول من ذكر كلمة هكسوس قبل ظهورهم في مصر بأقل قليلا من 300 سنة. نستنتج أنهم كانوا بالنسبة للسوريين تمامًا كما هم بالنسبة للمصريين أجنبيون غرباء أعداء. ولهذا فنحن ننضم للتحليل القائل بأنهم قوم أوروبيون أتوا من آسيا الصغرى، وبدءوا في إثارة قلق واضطرابات في سوريا حتى استطاعوا الاستقرار بها، خاصة بعد ترك سنوحي لسوريا وعودته إلى مصر. وأنهم بعد استقرارهم في سوريا بدءوا الزحف على مصر كجماعات مهاجرة مع زوجاتهم وأطفالهم وثيران وخيول الفلاحة. كانت مصر في ذلك الوقت تعاني من الفوضى والانقسامات والتشرذم وغياب المركزية، فاستطاعوا التمرکز في المناطق الشرقية من الدلتا وبالتحديد في محافظة الشرقية الحالية. وبمرور الوقت كثر عددهم. والغريب أنهم نسوا لغتهم الأصلية بسرعة وتحذثوا المصرية كسكان البلاد. ولم يتبق من تراثهم سوى بعض الأسماء والتي اكتسبها من سوريا. وفي غياب السلطة المركزية لمصر، ومع ازدياد التشرذم المصري استطاعت هذه الجماعات المهاجرة تكوين سلطة لهم فرضت نفسها بعد ذلك على الدلتا وجنوبها قريبا من القوسية. ولم يصل حكمهم على كل البلاد، فظل الجنوب محرراً. وهو الذي استكمل تحرير البلاد بعد قصة كفاح رائعة.

الأسرة السابعة عشرة

أسرة المجاهدين الطيبية 1660-1570 ق. م.

رع حتب (سخم رع واح خاعو)، إنيوتف الخامس (سخم رع وبم اعت)، إنيوتف السادس (سخم رع حرو حر ماعت)، سوبك إم ساف الثاني (سخم رع شد تاوي)، تحوتي (سخم رع سمن تاوي)، منتوحتب الخامس (سعنخ إن رع)، نب إري إر أوت الأول (سواج إن رع)، نب إن اوت الثاني (نفر كا رع)، سمن نفر رع، صا أوسر إن رع، شدواست (سخم رع) إنيوتف السابع، سنخت إن رع، سقن رع (تاعا الأول/الأكبر)، سقن رع (تاعا الثاني) (الشجاع)، كامس (واج خبر رع).

الحرب ضد الهكسوس

سقن تاعا الثاني (الشجاع)

هناك بردية تسمى بردية سالييه.¹¹⁶

وتتحدث الوثيقة عن الهكسوس كالمطاعون الذي اجتاحت البلاد. وإن أبوفيس (أحد حكاهم) جعل من سوتخ (أحد أشكال ست) معبودًا لمصر. ولم يحترم الآلهة الأخرى. وكان المصريون يعبدون الإله رع. وتحكي البردية أن ملك الهكسوس أرسل إلى سقن رع الذي كان يحكم في طيبة. ويبدو أن هذا الكتاب كان بمثابة بداية ظهور مطامع هكسوسية جديدة في الجنوب، ولكن هذا الكتاب كان في الحقيقة بداية النهاية لهم. فقد كتب ملك الهكسوس في هذا الكتاب:

¹¹⁶ Gardiner, late Egypt stories, 5, ff: lefebyre, Romans et Contes Egyptien, p. 131 ff.

"على الملك سقن رع المصري أن يسكت أفراس النهر الموجودة في طيبة لأنها تقلق نومه".

وطلب منه أن يعبد الإله سوتخ الذي يعبد في مناطق الهكسوس. رغم أن هذا الإله كان مكروهاً جداً في طيبة.

ومن تحليل هذه الوثيقة نستخلص أنه كانت هناك مطالبات بتحريم مصر من الهكسوس. وقد وصل ذلك إلى ملكهم والذي عبر عن ذلك بأصوات أفراس النهر في طيبة التي تقلقه. وطلبه أن يعبد سوتخ في طيبة نفهمه على أنه جزء من إعلان الولاء التام لقوى الاحتلال الهكسوسية. وللأسف البردية لم تستكمل الأحداث. ولكننا نعرف أن معركة وقعت في منطقة القوسية بين جيش الفرعون المصري وجيش الهكسوس. والنتيجة النهائية للموقعة غير محددة. فواضح أن سقن رع من خلال تحليل موميائه قتل بضربة بلطة في الرأس وعدة طعنات في الصدر، وأن ذلك كان بالتأكيد في المعركة. وتعتبر هذه الضربات وسام عظمة هذا الفرعون ودليل إخلاصه. وتجعله مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الملك. كما أن وجود مومياء الملك محنطة بشكل جيد يشير إلى أن الهكسوس لم ينالوا نصراً حقيقياً وظلت الحدود على ما هي عليه، بل وسكنت مطالب الهكسوس من الجنوب بإعلان التبعية الدينية وزادت مطالب المصريين بالتحريم.

تبع سقن رع الذي مات في أول معركة مع الهكسوس ابنه أو أخيه الصغير كامس.

وصل إلينا نص عبارة عن قطعة إملء لصبي يتعلم القراءة والكتابة. وما أعظم النص. هذا النص تكرر في لوحة كارنارفون، والتي نشرها جادنر¹¹⁷. كان هذا النص في السنة الثالثة من حكم كاموس.

¹¹⁷ Op. cit. p. 132

"الملك القوي في طيبة كامس (كاموزه) له الحياة إلى الأبد. إنه ملك صالح وقد حباه رع ليكون ملكًا حقًا وسلم إليه القوة والحق. وكان جلالته في القصر وقال للمجتمعين من كبار رجاله الذين كانوا حوله: أريد أن أعرف مدى سلطاني إذا كان هناك في أوريس وآخر في كوش، وأجلس شريكا بين آسيوي ونوبي يحكم كل منا على جزء من مصر. إن هذا الذي يشاركني في الأرض يجعلني لا أستطيع الوصول إلى منف. وهي تابعة لمصر لأنه يتحكم في مدينة الأشمونين. والناس في حزن لأنهم يخدمون الآسيويين. ساحاربه وسابقر بطنه لأن رغبتني هي أن أخلص مصر وأسحق الآسيويين. وقد أجابته مجمع رجاله بما يأتي. انظر إن منطقة الآسيويين تمتد حتى القوصية، ثم حركوا أسنتهم وقالوا بصوت واحد: ولكننا هنا في طمانينة ونحكم مصرنا والفنتين بخير. وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا، والرجال يحرثون لنا أراضينا، وماشيتنا ترعى في الدلتا، ويأتينا الشعير علفا لماشيتنا. ولم يأخذ أحد ماشيتنا غضبا، ولم يعتد علينا معتد. هو يملك على أرض الآسيويين، ونحن نمتلك على أرض مصر. أما إذا جاء أحدهم واعتدى علينا فإننا نقاومه."

ويستمر النص فيعلن أن الملك صاح في وجوه أتباعه أنه سيذهب إلى الشمال لينقض عليه، وأنه واثق من النصر، وأن البلاد كلها ستهدف عنه كامس هو حامي مصر.

نلاحظ أن هذا الفرعون الجديد لم يخفه مقتل سابقه على يد الهكسوس، بل كان أكثر إصرارًا على محاربتهم وتخليص البلاد منهم. كما أن روح مجلسه الخائفة والمهزومة لم تثنه عن عزمه، بل كان إصراره أقوى من موت سابقه وضعف مجلسه فقرر

الاستمرار في عملية التحريز. ويستمر النص أن جيوش كامس خاضت أول معركة في مدينة نفروسي. فقد كان حاكمها (تيتي بن بيا) أحد الخونة الذين تعاملوا مع الهكسوس، وكانت عنده حامية هكسوسية قضى عليها كامس ببساطة.

ونستطيع متابعة انتصارات كامس على لوحين¹¹⁸ حيث ذكر أنه كانت هناك معارك حربية انتصر فيها الجيش المصري واستولى على عدد من السفن يصل على 300 سفينة. مصنوعة من خشب الأرز مليئة بالذهب والفضة والزيوت الدهن والعسل والبخور. وذكر على اللوحين كيف كان جيش الهكسوس يجري فزغاً أمام المصريين وأن نساءهم لن تلد بعد الآن بسبب الأهوال والرعب. ومما يستحق الذكر أن جواسيس كامس استطاعوا القبض على هكسوسي كان يحمل رسالة إلى ملك كوش من ملك الهكسوس يطلب منه في الرسالة أن يشترك معه في الحرب ضد كامس ثم يقسما معاً مصر بينهما. ولكن المصريين استطاعوا القبض على السرول وأخذة كامس ليريه استعداداته في الحرب وأراه أن مقاومة الهكسوس للجيش المصري ستكون مستحيلة. . واستطاع كامس أن يحرر المنطقة حتى أطفح في الجيزة، ولكن تحرير الدلتا والاستيلاء على عاصمة الهكسوس أوريس وتحرير كامل التراب لم يتم إلا على يد أحمس.

¹¹⁸ د. أحمد فخرين، مصر الفرعونية، ص 154-256.

الدولة الحديثة الأسرات من 18-20

الأسرة الثامنة عشرة 1304-1570

أحمس الأول (نب بحتي رع)، أمنحوتب الأول (جسر كا رع)،
تحوتمس الأول (عا خبر كا رع)، تحوتمس الثاني (عا خبر إن
رع)، حتشبسوت (ماعت كا رع)، تحوتمس الثالث (من خبر رع)،
أمنحوتب الثاني (عا خبرو رع)، تحوتمس الرابع (من خبرو رع)،
أمنحوتب الثالث (نب ماعت رع)، أمنحوتب الرابع، إخناتون (نفر
خبرو رع)، سمنخ كا رع (عنخ خبرو رع)، توت عنخ آمون (نب
خبرو رع)، أي (خبر خبرو رع)، حور محب (جسر خبرو رع)

تعتبر هذه الأسرة أهم أسرة في التاريخ المصري على الإطلاق.
وهي الأسرة التي وصلت حدود مصر فيها إلى الحد الأقصى الذي
لم تره بعدها، إلا لمدد بسيطة. ونشأت فيها أول إمبراطورية في
التاريخ. وهي الإمبراطورية التي تركت أثرًا خطيرًا في تاريخ
المنطقة ودفعت كل من جاء بعدها لإنشاء إمبراطوريات أخرى
تكون أراضي الإمبراطورية المصرية هي القلب فيها. وفي تاريخ
هذه الأسرة إجابات على ألغاز حيرت ولا تزال تحير العالم.

الملك أحمس الأول (أحم موزا)

رغم أن أحمس هو استكمال للأسرة 17، ولكن عبقرية مانيتون وضعتة على رأس أسرة جديدة. فقد كان أحمس بداية عصر جديد.

الملك أحمس



يذكر القائد (أحمس بن إبانا) أحد قواد أحمس الملك، والذي اشترك معه في حروب التحرير. يشرح لنا في مقبرته بالقرب من إدفو كيف اشترك مع أحمس في تطهير اورايس التي اتخذها الهكسوس عاصمة لهم، وكيف طاردهم المصريون حتى فلسطين في مدينة اسمها شاروهين حيث حاصروهم لمدة طويلة ثم سحقوهم. ثم عاد الجيش بعد ذلك وعاد الملك إلى طيبة.

كان احتلال الهكسوس لمصر هو أول تنبيه حقيقي لمناطق الخطر الاستراتيجية. فقد كانت غزوات البدو والنوبيين أشبه بغارات

الصوص على القرى لنهبها، أما الهكسوس فكانوا أخطر، فهم أغراب احتلوا البلاد. ولهذا استيقظ الوعي السياسي المصري وظهرت أول نظرية أمن في السياسة المصرية، وكانت السبب في الشعور بأهمية تأمين الحدود الشمالية الشرقية (سوريا) التي هي باب الخطر الحقيقي. وكان أن شعر الفراعنة فيما بعد أن ضمان أمن سوريا هو الضمان لأمن مصر. فتركز مجهود كل فراعنة مصر فيما بعد بأهمية ضمان أمن سوريا.

ويبدو أن نساء هذه الأسرة كان لهن دور عظيم في استنفار الناس والجيوش للقتال. فكانت الملكة تيتي شيري الجدة التي أسس لها أحمس معبدًا في أبيدوس. حيث يقال إنها كانت تشجع ابنها سقن رع على مقاتلة الهكسوس، كما شجعت حفيديها فيما بعد. ثم كانت الأم إاعح حوتب التي كتب عنها أحمس لوحًا في الكرنك قال فيه:

"اذكروا سيدة البلاد، وسيدة جزر البحر الأبيض. زوج الملك وأخت أملاك. عاشت متمتعة بالحياة والسلامة والصحة. وهي أخت ملك وأم ملك، هي العظيمة القديرة التي تهتم وتضطلع بشئون مصر. وهي التي جمعت جيشها وحمى الناس، وأعدت الهاربين وجمعت شتات الهاربين، وهدأت من حل بالصعيد من خوف، وأخضعت من كان فيه من عصاة الزوجة الملكية إاعح حوتب لها الحياة".

ومن هذه اللوحة من الممكن أن نستخلص أنه كان لإاعح حوتب دور مهم عندما كان ابنها أحمس في الشمال في الحرب ضد الهكسوس. فيبدو أنها استطاعت قمع حركات عصيان ما، ويبدو أنها أوت عددًا من الأسر الهاربة من المعارك، كما يبدو أنها أسهمت في رفع الروح المعنوية للجنود. والسيدة الثالثة هي زوجة كاموزا ثم أحمس فيما بعد. وظل لها نفوذ في عهد أمنتحوتب الأول، وقدست في أواخر عهد هذه الأسرة والأسرة التالية.

أمْنَحوتب الأول

يستحق هذا الملك أن يكون ابناً لأمس محرر البلاد وحفيداً لأجداده العظام. أسرع بحملات عسكرية في السودان وفي سوريا وفي ليبيا. ولحسن الحظ أن القائد أمس ابن أبينا الذي لازم أمس لازم أيضاً الابن أمْنَحوتب الأول.

تحتمس الأول 1495-1525

الإمبراطورية ونظرية الأمن القومي

مات الملك وتولى تحتمس الأول العرش بعد أن تزوج بالأميرة أمس بنت أمْنَحوتب الأب. وكان هذا الملك الجديد أيضاً من المحاربين العظام الذين أكملوا الفكر الاستراتيجي المصري في وضع أساس نظرية الأمن القومي.

لم ينتظر تحتمس الأول كثيراً بل سارع في فتوحات في الجنوب حتى تخطى الخرطوم. كان المصريون دائمي البحث في الجنوب تتبعاً لمنابع النيل. ثم جهز جيشاً واتجه على سوريا يتعقب بقايا الهكسوس حتى وصل هناك إلى نهر الفرات وهناك وضع صرخاً وأعلن أن الفرات هو حدود مملكته. وأصبحت هذه المملكة هي أساس الادعاء اليهودي أن الله أعطاهم أرضاً من النيل على الفرات. فهم لم يخترعوا هذه الخريطة، بل كانت هذه الأرض فعلاً تمثل حدود الإمبراطورية المصرية. أطلق المصريون على الفرات اسم النهر ذي المياه المعكوسة؛ لأنه يجري من الشمال إلى الجنوب بعكس النيل، وقضى تحتمس الأول هناك بضع سنوات استمتع فيها باصطياد الفيلة وأرسل منها إلى طيبة.

تحتمس الأول



غير هذا الملك العظيم نظام الدفن الهرمي إلى مقبرة تحت الأرض حيث تبعه في ذلك كل الملوك التاليين.

الزوجة أحمس لم تلد له أبناء، ولكنها ولدت له بنتاً ذكية اسمها حتشبسوت. وكان له أولاد من زوجات غير ملكيات أهمهم كان اسمه تحتمس كأبيه. ولما كان حق العرش يعطى لابن الأم الملكية أو زوجها فإن تحتمس تزوج بحتشبسوت وأصبح ملكاً على مصر. ربما لم يحكم هذا الملك طويلاً، ولكنه أرسل حملتين على الأقل واحدة إلى سوريا وأخرى إلى السودان. ولما توفى تولت حتشبسوت الحكم.

الملكة حتشبسوت

حات شبسوت (الأولى على السيدات) أو ماعت كارع (حقيقة هي روح رع) وهي ملكة مثيرة للتساؤل. فلها تماثيل باللحية العيرة التي يرتديها كل ملوك مصر الفراعنة. مما جعل البعض يفسر ذلك بأنها كانت تدعي الذكورية. ولكن هذا لا يستقيم لأن لها تماثيل عدة بجسد أنثوي واضح. ولكن يبدو أن تماثيلها باللحية الملكية هي الصيغة الرسمية لشكل الملك وليس ادعاء رجولة. وعلاقتها بابن زوجها تحتس الثالث هي أيضاً مثيرة للجدل. فالبعض يتصور أنها اغتصبت الحكم منه وأعلنت نفسها ملكة على مصر. والبعض يتصور أنها كانت كل الوقت وصية عليه. ولكن تحتس الثالث انتقم منها ومحا اسمها من مواقع أثرية كثيرة مما يقوي وجهة النظر أنها اغتصبت منه العرش. على كل فقد كان لها أعمال معمارية مهمة أهمها معبد الدير البحري الذي صممه لها المهندس سنموت. وهي صاحبة الرحلة التجارية المهمة إلى بلاد بونت (الصومال الحالية) وجلب الكثير من الأعاجيب من هناك. وهذه الرحلة مسجلة على جدران معبد الدير البحري. ولم تقم بحملات مهمة غير حملة قام بها تحتس في أواخر أيامها في النوبة وحملة في سوريا.

تحتس الثالث

المحارب العظيم وقاهر ممالك العالم القديم

ما إن أفاق تحتس الثالث من مشكلته مع عمته بعد سنة واحدة من انفراده بالحكم حتى قاد حملة لتوطيد ملكه في آسيا؛ لأن النفوذ المصري الجديد العهد كان قد بدأ يتراجع.

العقيلة الحربية الفذة لهذا المحارب جعلته يصحب معه مراسلين عسكريين يدونون معاركه التي وصلت إلينا بشيء من الدقة. كان ذلك على ملفات من البردي ثم نقلت إلى المعابد.

بدأ تحتمس الثالث في بناء أول طريق حربي يربط بين مصر وفلسطين. وهو طريق تتوزع في حاميات عسكرية تستقبل الجيوش وتزودها بالماء والزاد، والعتاد وتكون مراكز تموين مهمة. وكان هذا أول طريق عسكري في العالم. كان هدف تحتمس الثالث القضاء على تمرد أتخذ من مدينة مجدو حصناً له، فتقدم من غزة ثم إلى بلدة يقال لها يحم بدون مقاومة جادة. وعلم من رجال مخابراته أن الأعداء تجمعوا في مجدو وكان عدد زعمائهم 330 زعيماً من أنحاء متفرقة من سوريا مع قواتهم وجيوشهم. الغريب أنه كان هناك ثلاث طرق للوصول إلى مجدو. طريقان يدوران حول الجبل وطريق يخترق الجبل من خلال مضيق ضيق. نصحه قواده ألا يسلك الممر الضيق حتى لا يحول نفسه إلى لقمة سائغة أمام أعدائه. ولكنه حذر بعقليته أن هذا الطريق سيكون مفاجأة للأعداء. وعندما عارضه قواده وقف وصاح:

"لا أرغم أحداً، كلكم مخيرون، سأسلك هذا الطريق وسأكون في المقدمة وترجلا على أقدامي بدون عجلة حربية، فمن شاء فليتبعني".

فقاموا جميعاً وتبعوه. ولما وصلوا نصحه القواد بالانتظار حتى يتم وصول كل القوات قبل مهاجمة الجيوش المعادية، فوافقهم وانتظر. وفي الصباح هاجم تحتمس الثالث الأعداء من موقع لم يكونوا يتوقعونه طبعاً وذلك بجيش على شكل نصف دائرة، فجروا هرباً ومنهم من دخل المدينة وأغلق أبوابها. ويذكر النص المصري كما يقول د. أحمد فخري إنه لولا أن الجنود المصريين انشغلوا بنهب

المعسكر لكانوا أنهوا اقتحام المدينة في الوقت نفسه، وقد كلفهم هذا 7 شهور حصاراً حتى استسلم كل من كان في المدينة. ولكن أمير قادش مدبر هذا التمرد كان قد هرب متجهاً شمالاً. واتجه تحتمس بالجيش مستولياً على كل المدن ومؤدباً من لم يستسلم. كان تحتمس يقوم كل عام في بداية الصيف بحملة تأديب في سوريا. وفي الحملة السادسة عزم على تدمير مدينة قادش التي كان أميرها وراء كل محاولات التمرد في سوريا. فقام بحملة قوية يدعمه فيها الأسطول فقضى على كل مقاومة لها. وفي العام التاسع للحملات وصل إلى مدينة قرقميش وأقام على الضفة الأخرى لوحة تؤكد ملكه من النيل إلى الفرات بجانب لوحة جده تحتمس الأول. ولم يكف تحتمس الثالث بذلك بل قرر عبور الفرات إلى الجهة الأخرى إلى مملكة ميتاني، وهي مملكة توجد في شمال تركيا الحالية وشعبها من الشعوب الأوروبية. كما قرر غزو مملكة خيتا وهي أيضاً مملكة يسكنها شعب أوروبي. فبدأ بتجهيز السفن في مدينة جبيل بلبنان وحملها حتى شاطئ الفرات وعبر بها وأوقع هزيمة نكراء بالميتانيين والخيبيين (الحيثيين)، وانضموا إلى الشعوب الواقعة تحت الإمبراطورية المصرية ودفعوا الجزية. وأصبحت جميع جزر البحر الأبيض ومناطق من السواحل في البلقان واليونان تابعة لمصر. وفي الجنوب كانت الجيوش المصرية تخطت الخرطوم ويقول بعض المؤرخين إنه وصل إلى جنوب السودان وفي الغرب كانت الإمبراطورية توغلت في الأراضي الليبية حتى منتصف طرابلس.

تحتمس الثالث

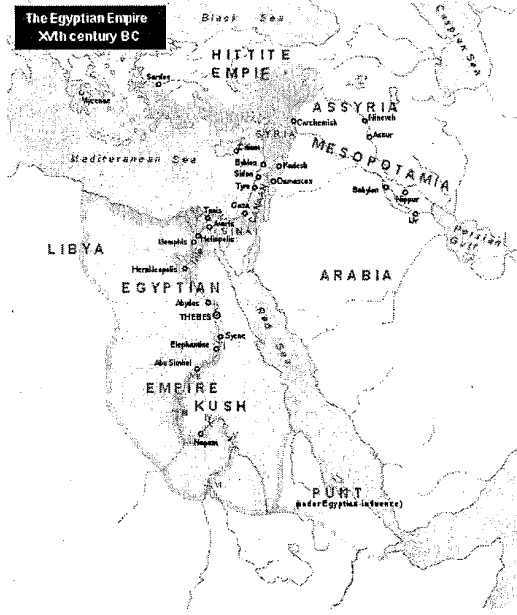
تحتمس الثالث



كان تحتمس رجل دولة من الطراز الأول. فكان يحكم بالقوة واللين. فكان يحضر الأمراء السوريين ليتلقوا تعليمهم في منف، ولكي يرتبطوا بها ويعيشوا مع الأمراء المصريين، ثم يعيدهم ليحكموا في مدنهم بالتعاليم والثقافة المصرية. كما أمر بإحضار جميع أنواع الحيوانات والنباتات والطيور غير المعروفة إلى مصر وأصبحت مصر مركزًا ثقافيًا عالميًا، فعرفت مصر فرق رقص إفريقية وأوروبية وآسيوية. وامتلأت الأسواق جميع أنواع المنتجات من جميع أرجاء العالم وظهرت طبقة من الخدم والعبيد والعمال شقراء أوروبية أو سمراء إفريقية وآسيوية¹¹⁹.

¹¹⁹ راجع التحليل الاجتماعي للفن في مصر القديمة.

الإمبراطورية المصرية في عهد تحتمس الثالث



وعم الرخاء البلاد. وكانت طيبة عاصمة العالم القديم، يأتيها من كل أرجاء العالم القديم المعروف رسل حاملون الهدايا والعطايا لإبداء الولاء والطاعة. والناس ترى الجيوش المصرية العائدة من سوريا وتركيا وميتان وخبثا ظافرة منتصرة محملة بالغنائم والأسرى. كان مشهدًا يتكرر كل عام من أعوام حكم تحتمس الثالث ولمدة 16 سنة.

أنجب تحتمس الثالث أمنتب الثاني (عا خبرو رع) الذي خلفه بعد موته بعد حكم دام أربعة وخمسين عامًا عاشها كواحد من أعظم من حكموا في الأرض.

أمنحتب الثاني

شب هذا الملك في صباه على بطولات أبيه الذي يذهب ليدحر الأعداء ويعود بالغنائم وقصص البطولات. وعاش الفترة التي كانت مصر فيها تخيف ملوك العالم بجيشها الجرار وملكها المحارب. وقد رباه أبوه تحتتمس الثالث تربية عسكرية، وتذكر لنا الصور كيف كان يدرّب على فنون القتال حتى أضحي فارسًا صغيرًا. وسريعًا ما اثبت ذلك. فبعد موت تحتتمس الثالث قهر الآسيويين والأوروبيين والأفارقة، إذ بادر المياتنيون بتشجيع حركات تمرد ضد مصر في سوريا فأسرع أمنحتب الثاني بجيشه القاهر إلى سوريا ومثل بالتمردين وأحضر معه 6 أمراء من قادة التمرد وأعدمهم في مصر. وكان ذلك درسًا قاسيًا جعل الإمبراطورية تضع تمامًا له. وأرسل حملات تأديب إلى السودان وليبيا.

ولكن يبدو أن خلافا على وراثة العرش نشأ بين أولاده الخمسة الذكور. فقد محيت أسماؤهم إلا الأمير تحتتمس الرابع الذي خلف والده في تولي الحكم.

تحتتمس الرابع. يبدو أن تحتتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي. فقد حدث صراع ما جعله يمحو أسماء أشقائه. وجعله يدعي أن الإله رع وعده بعرش مصر على أن يزيح الرمال من جانبي أبي الهول. وطبعًا الإله لن يعد ولي العهد بالعرش. على كل فقد تولى العرش بعد أمنحتب الثاني. وقد قام بحملة عسكرية كبيرة في سوريا لتأديب بعض من حاولوا التمرد. وتزوج من أميرة ميثانية أسماها المصريون (موت إم أويا) والتي أنجب منها أمنحتب الرابع الذي تولى الأمر بعده. وبموت تحتتمس الرابع انتهت فترة الملوك المحاربين وبدأت فترة ملوك الرخاء.

الفترة الثانية من الأسرة الثامنة عشرة

الملك أمنحتب الثالث

لا نعرف على وجه التحديد كيف اعترف الكهنة بهذا الرجل (أمنحتب الثالث) ملكًا على مصر. فقد كان من أم غير مصرية. وكان هذا أمرًا غير متبع على الإطلاق. ولم يكن هذا الملك يعرف من الملكية غير حياة الترف والنساء والجواري. فحتى هواية الصيد لم تستمر معه كثيرًا. لم يحاول أن يتعرف على ملكه في آسيا وأن يظهر أمام الآسيويين بعربته الحربية المخيفة وجحافل الجنود الجياشة. بل كان يطلب المحظيات والجواري. فطلب من ملك ميتاني أميرة فأرسل له أميرة وعندما حكم ابن هذا الملك الميتاني أرسل لأمنحتب الذي كان طاعنًا في السن أميرة أخرى، وطلب أميرات آشوريات وحيثيات، بل كانت سوريا ترسل له سنويًا 100 فتاة. وتزوج كملكة امرأة من عامة الشعب وليست من البيت الملكي.

امنحتب الثالث



ويبدو أن أمنحتب الرابع كان على غير هوى الكهنة. فقد أرسل ابنًا له إلى منف ليكون كاهنًا لبتاح. وأشرك ابنه أمنحتب الرابع معه في الحكم. وأحيا ديانة آتون ومات وهو في الخمسينيات.

أمنحتب الرابع

من شابه أباه فما ظلم. لم يكن هذا الفرعون الجديد محاربًا. ربما لم يتلق أي تعاليم عسكرية على الإطلاق كما يظهر جسمه. في البداية احترم كل الآلهة، ولكنه شخصيًا جنح إلى آتون الذي كان معروفًا حتى في الدولة القديمة. ثم بدأ يتعصب لعقيدة آتون وغير اسمه إلى (أخ إن آتون) أي المعين لآتون. وفي الوقت نفسه، بدأت الولايات الشمالية في آسيا الصغرى تنفصل عن مصر وانقطعت جزية العديد منها. ومع اشتداد المواجهة بينه وبين كهنة طيبة انتقل إلى تل العمارنة وأسس عاصمة جديدة أسماها أخت آتون. وأعلن حربًا غير مفهومة على الإله آمون وعلى غيره من الآلهة حتى وزير

نفسه (أوزوريس)، فبدأ بمحو اسم الآلهة الأخرى. وبدأت مملكة خيتا تغير على المناطق المصرية في سوريا. وكانت المناطق السورية تطلب النجدة ولكن لم يجيبها أحد. وهناك إحدى هذه الرسائل المهمة أرسلت من مدينة تونيب وترجو فرعون أن ينفذها بجيوشه وعجلاته الحربية ولكن لا حياة لمن تنادي.

وفي إحدى الرسائل طلب النجدة تذكر الرسالة أن قوم (عابيرو) تحدث اضطرابات في البلاد وأنها تساعد الحيثيين وأمراءهم، وهم بدو يأجرون أنفسهم للقتال وأسهموا في إسقاط مجدو من الحامية المصرية، وأسهموا في إسقاط أورشليم. وترجمت الكلمة الآرامية (عابيرو) إلى (خابيرو) بالمصرية. وبعض الأثريين يعتبرون هذا أول إشارة حقيقية لليهود أو العبرانيين¹²⁰. وفشلت إحدى محاولات اغتيال الملك إخناتون. حضرت أمه لبعض الوقت لتحاول أن تعلمه بالأخطار التي تحيق به من الكهنة ومن الذين انضموا إليهم. ويبدو أن إخناتون بدأ يشعر بالخطر فعين أخاه (سمنخ كارع) شريكاً له في الحكم والذي كان لا يزال على نيافته القديمة. ولكن الأمور انهارت فقتل (إخناتون) واختفت جثته ومثل به وتم مسح اسمه من أماكن كثيرة وأصبح يذكر بعد ذلك بالمارق.

¹²⁰ سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

إخناتون



لم يكن إخناتون يمتلك شخصية المحارب كما كان أسلافه (وليس أبوه). ويبدو أنه لم يتلق التعاليم الحربية المتبعة في تنشئة الملوك حتى اليوم. ويبدو أن أباه أمنحتب الثالث الذي جاء من أم ميتانية لم يكن يعي أهمية ذلك، بل ربما لم يكن يعي أساساً معنى الملك المرتبط تاريخياً بامتلاك القوة البدنية والعسكرية، فخرج ابنه ذو الجسد يقال إنه أقرب إلى النساء منه إلى الرجال وذا شخصية شاعرية وليست شخصية المقاتل. وهكذا حاز إخناتون على حب

الناس حتى اليوم. فالكثيرون يعتبرونه نبياً وشاعراً وعاشقاً
 وفليسوفاً تاريخياً. ولكن مصر فقدت في عهده الكثير من هبتها
 ومستعمراتها وبدأت الإمبراطورية في التراجع، ولم تستطع أن
 تصل أبداً بعد إخناتون إلى ما وصلت إليه قبله، رغم ظهور فراغة
 أقوى مقاتلين. ورسائل طلب النجدة من إخناتون تكشف مدى
 الخسارة التي خسرتها مصر بسبب غياب القائد الحقيقي المسنول.
 وهذا نموذج منها:

"إن عبيتك مدينة تونيب تقول من ذا الذي كان يستطيع فيما مضى
 أن يذهب تونيب دون أن ينتقم لها منخبريا (تحتومس الثالث) ويفعل
 بالناهب ما فعل بها؟ إن آلهة مولانا الملك وتمائيله مازالت لدينا
 وليسأل مولانا في ذلك المتقدمين في السن من رجاله ليعرف إن كنا
 نكذب. إذا لم تدر كنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة
 فإن عزيرو سيصنع بنا مثلما صنع مع مدينة "نيي" وحينئذ لن نبكي
 وحدنا ولكن سيبكي معنا ملك مصر".

وأخذ أهل تونيب يستغيثون مرة بعد أخرى وهذه آخر وسائلهم:

"والآن فإن مدينتك تونيب تبكي دموعها ولا ناضر لنا. لقد أرسلنا
 عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق منه رداً"
 هكذا كانت تضيع أملاك مصر ويتضاءل إنجاز الأجداد.

وربما كانت رواية (العائش في الحقيقة) لنجيب محفوظ خير معبر
 عن تصوير جانبي الحقيقة في مسألة إخناتون.

نهاية إخناتون. ونهاية الأسرة 18

كما ذكرنا فإن إخناتون عين أخاه (أو ابنه) سمنخ رع شريكاً له في الحكم. ولكن هذا لم يهدأ الكهنة. ويبدو أن حور محب الذي كان من اتباع إخناتون قد بدأ التملل منه والتحالف مع الكهنة. ويقال إنه حتى زوجته نفرتيهي هجرت قصره وعاشت منفصلة عنه في قصرها. ويبدو أن الكهنة - متحالفون مع حور محب - قضوا على الجميع: إخناتون وسمنخ رع ونفرتيهي ولا يعرف لأي منهم مقبرة أو أثر. وتم تعيين (توت عنخ أمون) الذي كان اسمه في العهد السابق (توت عنخ آتون) تم تعيينه ملكاً على مصر.

توت عنخ أمون

من خلال تحليل الحامض النووي تم القطع بشكل نهائي أن توت عنخ أمون كان ابناً لإخناتون وليس أخاً له. ربما من زوجته الثانية (كيا).

هناك خلاف على كيفية موته. فالبعض يعزي ذلك إلى عملية اغتيال بسبب وجود أثر لضربه في الرأس. والآخرين يتحدثون عن إصابة في الركبة أدت إلى (غرغرينة) سببت الوفاة. ولكنه مات صغيراً في عمر 20 عاماً. لم يكن له إنجازات، ولكن سبب شهرته هو اكتشاف مقبرته والتي تعتبر أقل المقابر سرقة وهذا يجعلها أكبر وأشهر كنز في التاريخ.

أرسلت الملكة إسن عنخ أمون أرملة توت عنخ أمون إلى ملك الحيثيين سوبيلو ليو ماس تطلب منه الزواج من ابنه؛ لأنها لا تريد الزواج من أحد رعاياها. ويبدو أن هذه الملكة تصرفت بحماقة

شديدة. فلم يصدق ملك الحيثيين هذا العرض غير الطبيعي. فقد كان يعلم أن التقاليد والمعتقدات المصرية لا تسمح بتأنا بتزويج البنات المصريات لأجانب. فأرسل لها يتأكد. وكان ردها غاضباً منه بسبب شكه. فلم يتردد هذا الملك وأرسل ابنه سرّاً إلى مصر ليتم الموضوع في صمت. ولكن يبدو أن المصريين كانوا على علم بما يتم فنصبوا كميناً للأمير الحيثي في سوريا وقتلوه. ويقال إن إسبن عنخ آمون حوكت وأعدمت كعقاب على جريمتها. ولا نعرف لها قبراً، ولم يذكرها أحد إطلاقاً فيما بعد. وتم تعيين أي الوزير السابق لتوت عنخ آمون ملكاً على مصر، ولكن هذا لم يدم طويلاً ومات أي وعين الوزير الثاني السابق لتوت عنخ آمون والذي كان قائداً للجيش في عهد إخناتون.

حور محب

اسمه الكامل حورمحب ميري أمون "حور في عيد، محبوب أمون." شهدت سنون حكمه حركات إصلاح داخلي في ميادين كثيرة خاصة الإدارات الحكومية والمناصب الدينية، كان الملك حورمحب أول من وضع تشريعات وقوانين لتنظيم حياة العامة في التاريخ، خاصة القوانين التي تنظم العلاقة بين الفرد والسلطات الحاكمة وهي سلسلة تشريعات غاية في التطور¹²¹.

اختار حور محب لخلافته رمسيس الأول أحد القادة العسكريين والذي يعتبر مؤسس الأسرة 19.

¹²¹ انظر الجزء الخاص بالتطور الاجتماعي في مصر القديمة.

حور محب والإله أتم



الأسرة التاسعة عشرة 1295-1188

رمسيس الأول (من بحتي رع)، سيتي الأول (من ماعت رع)،
رمسيس الثاني (أوسر ماعت رع)، مرنبتاح (مري إن بتاح) (با إن
رع)، (أمون مس سي) (من مي رع)، سيتي الثاني (أوسر خبرو
رع)، تا وسرت (سيت رع ميرت آمون)، سي بتاح (أخ إن رع)
(مري إن بتاح)

كان انتقال العرش إلى أي هو انتقال من أسرة إلى أسرة. وكان
انتقال العرش من أي إلى حور محب هو أيضًا انتقالًا من أسرة إلى
أسرة. كذلك كان انتقال العرش من حور محب إلى رمسيس الأول
هو أيضًا انتقالًا من أسرة إلى أسرة. تم كل ذلك ببسر. كما أن لا أي
ولا حور محب أسس أسرة، ولهذا فإننا نعتبر أي، وحور محب
امتدادًا للأسرة 18. أما رمسيس الأول فنعتبره مؤسس أسرة جديدة.

كان رمسيس الأول من الدلتا. واسمه الحقيقي (رع مس سو)؛ أي
ميلاده لرع. وكانت سايس في الدلتا عاصمة الهكسوس؛ حيث كان

الإله ست يعبد. كما كان للإله ست احترام خاص منذ الدولة القديمة في شرق الدلتا. وربما لهذه الأسباب أو لأسباب أخرى غير معروفة سمى هذا الملك ابنه (ستي). حكم رمسيس الأول عامين أكمل فيهما بعض الإصلاحات التي بدأها حور محب.

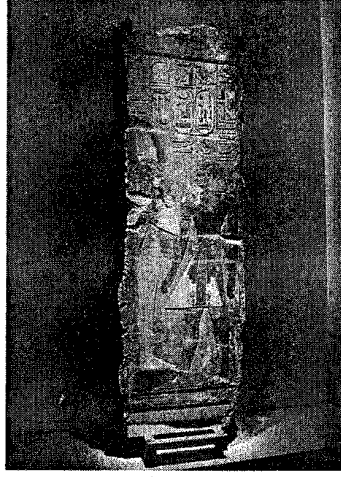
سي تي الأول

كان سي تي الأول قائدًا في الجيش. فلما أتم إصلاح ما بدأه حور محب وأبوه من مبان ومعابد، توجه لإعادة أراضي الإمبراطورية. فذهب بحملة إلى جنوب فلسطين لتأديب بعض قبائل البدو (شاسو). نما إلى علمه أن بعض المدن بدعم من مملكة خيتا (الحيثيين) قاموا بتمرد في منطقتين (حماة¹²² وبيسان)، فأرسل لهم حملتين في الوقت نفسه. ففضى على التمرد بسهولة وأخضع كل فلسطين ولبنان وجنوب سوريا حتى قادش. وكان سي تي يخطط للاستمرار ولقاء جيوش خيتا (الحيثيين) والقضاء عليهم إلا أن أنباء عن تحرشات أجنبية على الحدود الشرقية في ليبيا أجبرته على التراجع.

كانت هجرات أوروبية كبيرة قد استقرت في شمال إفريقيا. واستقر عدد كبير منها في ليبيا وبدأ يتطلع إلى مصر، وبدأ في التحرش بالقوات المصرية. فقابلهم سي تي في موقعتين ودحرهم وسجل انتصاراته في معبد الكرنك مع أخبار انتصاراته في سوريا. ربما كان ذلك في السنة الثانية من حكمه.

¹²² حماة أخرى غير حماة السورية.

سيتي الأول مع وزير (أوزيريس)



مع وصول الهجرات الأوروبية الكبيرة إلى الشمال الإفريقي أصبح الأوروبيون يشكلون خطرًا على مصر من الناحيتين الشرقية (عن طريق سوريا) والغربية (عن طريق ليبيا)، وأصبحت الحدود الشرقية بعد إن كانت لا تمثل خطرًا حقيقيًا غير بعض غارات البدو، أصبحت تمثل خطرًا على نفس مستوى خطورة الحيثيين والميتانيين في الشمال الشرقي.

نظرة عامة

كان العالم كله يعج في هذه الفترة بهجرات عديدة. فتأتي شعوب بأكملها وتحتل مناطق وتغير الشكل الحضاري لها من لغة ودين وتكون دولاً جديدة. كان هذا يحدث في هذا الزمن على نطاق واسع جداً. ولكن لأن الدولة المصرية قديمة، وكان لها حدود يقف عليها حاميات لحراستها، ولأن المصريين كانوا يمقتون الأجانب ويسمونهم (البري بري) أي الهمج. وكانوا يطلقون على أنفسهم (رومي)¹²³ أي متحضر. فقد كانت هناك مدينة على الحدود الليبية تسمى بري بري. واتخذ المصريون منها تعبيراً لوصف كل الشعوب غير المصرية بمفهوم الأجانب الذي كان يعني في الوقت نفسه الهمج. وحتى اليوم يقول المصريون (بلاد بره) أي الخارج. ويقولون (اطلع بره) أي اخرج. ولهذا التعبير نفس الدلالة على الهمجية والتوحش فنقول (النباتات البرية، والحيوانات البرية) كما في اللغة العربية تماماً¹²⁴. ونعني بهذا التوحش. فكان هذا التعبير بري بري) يعني في المصرية القديمة الأجانب والهمج في الوقت نفسه. وقد أخذه اليونانيون من المصريين وقالوا (برباريان) واستعملوه بنفس الطريقة على الشعوب الهمجية. وأصبح تعبيراً عالمياً عن البرابرة وهو يعني في أصوله (غير المصريين). وأيضاً تعبير (رومي) الذي يعني المتحضر أخذ فيما بعد ليكون اسماً للعاصمة روما. وأصبحت كلمة رومي تعني غير المصري رغم أنها في أصلها تعني المصري. ولكل هذه الأسباب، يضاف إليها قدم الدولة والإحساس المصري المبكر بالهوية الثقافية السياسية، إن لم يكن أيضاً بالتميز، فقد كان من الصعب بل ومن المستحيل أن تستقر

¹²³ كلمة رومي كلمة مصرية وتعني المصري المتحضر، وقد أخذها الأوروبيون وأطلقوها على روما، وتصور الجميع أنها كلمة لاتينية.

¹²⁴ اللغة العربية واللغة المصرية القديمة لغتان شقيقتان ومتفتحتان بشكل مدesh. ولهذا فهما تتفقان معاً في أصول ومعاني كلمة بري بري.

أي من هذه الهجرات في الأراضي المصرية. وفترة الهكسوس كانت تعرف في التاريخ المصري بالطاعون. أما بقية العالم فقد كان يعج بهجرات كثيفة من مناطق مختلفة. وهذا ما حدث في الشمال الإفريقي، وكان يمثل خطراً على مصر.

عودة إلى سيتي الأول

بعد أن استقرت الأوضاع في الغرب الليبي عاد سيتي الأول لتأديب الحيثيين أكبر قوة مناوئة لمصر في ذلك الوقت، وذلك لمداومتهم على تأليب سوريا ضد مصر. وجهاز حملة كبرى وذهب لملاقاتهم حيث قابلهم في قادش. وكانت المعركة درساً قاسياً لهم. حيث كتب ملكهم أنه ما كان أبداً يتمنى أن يحارب مصر، وما خطط لذلك. وأنه يتفادى مواجهة مصر بكل السبل، وأن هذه الحرب فرضت عليه فرضاً¹²⁵. والحقيقة أن سيتي استمر في حملاته ضد خيتا (الحيثيين) حتى وصلت حملاته إلى أربع حملات تأديبية، وحتى اضطر ملكهم مواتالي على توقيع معاهدة سلام يعترف فيها بالحدود المصرية في سوريا حتى شمال قادش. وكان لسيتي الأول إنجازات معمارية في كل بقاع الإمبراطورية. وفي نهاية حياته شارك ابنه رمسيس الثاني الحكم؛ حيث تولى ابنه الحكم بعد أن حكم الأب 13 سنة فقط أثبت فيها أنه ينتمي بالفعل إلى طائفة الفرعنة العظماء.

¹²⁵ أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص 342.

رمسيس الثاني

وهو واحد من أشهر فراعنة مصر. حكم 67 سنة. ربما بدأ حكمه في سن 25. بدأ بأن استكمل بناء ما بدأه أبوه من معابد. ورغم وجود معاهدة سلام بين مصر وحيثا فإن حيثا بدأت بحملات بحرية ضد المدن السورية، وكانت كالعادة تُولب أمراء سوريين ضد مصر، فتوجه رمسيس الثاني بحملة تأديبية إلى سوريا حقق فيها نصرًا على جيوش حيثا وأسر القراصنة الحيثيين وأتى بهم أسرى إلى مصر. ولكن في السنة الخامسة من حكمه بدأ صراعًا حقيقيًا بينه وبين حيثا.

كانت حيثا وصلت إلى أوج مجدها. يبدو أن ملك الحيثيين (موتلي) راوده حلم تحقيق نصر حقيقي نهائي على مصر والقضاء على أملاكها في آسيا التي تقف عقبة أمام أي توسع له. فأخذ يجهز لجيش جرار تحالف فيه مع كل الدول المجاورة له وهم: أورزاوا، دورني، كشكش، ماسا، بدسا، إيرونا، كريسكا، لوكيا، كيزوادنا، قرقميش، أوجاريت، قدي، نوجس، موشانيت، وأمراء من قادش، وجيوش من بحر إيجه. ودفع الحيثيون أموالاً طائلة لتأليب كل هؤلاء ضد مصر والقضاء عليها. وهذه هي أكبر تجمع لجيوش في تاريخ العالم القديم كله. هذا هو سر شهرة هذه المعركة. ولكن رمسيس الثاني استعد لهذه المعركة بأربعة جيوش هي جيش آمون وجيش رع، وجيش بتاح وخيش ست. وتقدم رمسيس بجيوشه الأربعة في بلاد كنعان (الفينيقيين) حتى شمال بيروت، ثم استمر حتى نهر الكلب، وتوغل إلى نهر العاصي. ووقع في أسر الجيوش المصرية بعض الأسرى الحيثيين وأوهم رمسيس بأن موتلي (الملك الحيثي) تقهر إلى حلب عندما علم بقدوم المصريين. ولكن الحقيقة أنها كانت خدعة. فقد كانت الجيوش الحيثية تختبئ عند

قادش في انتظار تقدم المصريين. وهنا تسرع رمسيس وكسر أهم قواعد العسكرية المصرية وهو انتظار تجمع كل الجيوش للتقدم، وإرسال رجال مخابرات وجواسيس للتأكد كما كان يفعل الأجداد. فطمع رمسيس وتسرع وتقدم بجيش أمون وعبر نهر العاصي. وعندما بدأ جيش رع في العبور هاجمه على الشاطئ الآخر جيوش الحيثيين وأوقعوا به. كان الجيشان الأخران بتاح وست مازالا بعيدين، ولكن رمسيس اضطر إلي أن يعود بجيش أمون إلى نهر العاصي لإنقاذ كتائب رع، فحاصره الحيثيون من كل جانب، وتذكر أخبار المعركة أن رمسيس أخذ يحارب وحده لساعات طوال أعطته بطولة وشهرة في التاريخ غير مسبوقه. ويذكر أيضاً أن جماعات من الشباب والفلاحين السوريين تجمعت وقفزت إلى أرض الميدان لإنقاذ الجيوش المصرية مما أدى إلى أن تنتهي الليلة الأولى من المعركة بنتيجة متعادلة. وفي الليل كانت بقية الجيوش المصرية قد تجمعت وباتت المعركة الحاسمة في اليوم التالي. واشتد القتال في اليوم الثاني بعد أن تغير الوضع، وبدأت الدوائر تدور حول جيش الحيثيين. فطلب ملكهم الصلح. وقد ترجم نيكولا جريمال الأستاذ في جامعة السوربون موقف ملك خيتا بناء على الآثار المصرية الحيثية كالآتي:

"يعلن خادمك المتواضع على الملأ أنك ابن رع الذي ولدك من صلبه استودعك مختلف البلدان المتحدة. أما القطر المصري وبلاد الحيثيين فهم خدامك. لقد وهبهم إياك والدك الإله رع. لا تلجأ إلى استخدام ما أوتيت من سلطة ضدنا. أجل إن سلطاتك لعظيمة. وقوتك تثقل وطأتها على الحيثيين. ولكن هل من الصواب قتل خدامك لتظل مرهوب الجانب منهم وبنون رحمة؟ انظر لما يحدث. بالأمس قضيت يومك في ذبح مائة ألف رجل. وعدت اليوم ولم تبق

على حياة الورثة. فلا تتوسع في الاستفادة من تفوقك. أيها الملك
الظافر فالسلم أفضل من الحرب. امنحنا نسيم الحياة¹²⁶ .

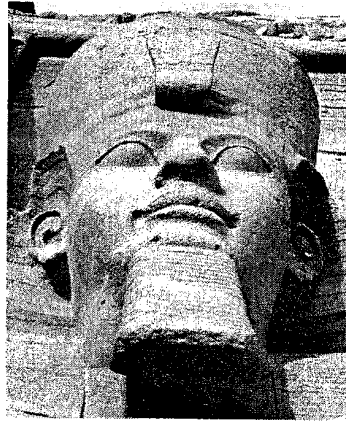
وقعت معاهدة صلح بين الجيشين، واعترف الحيثيون بأملاك
مصر في سوريا، وبعدم التعرض لها. وكان أن اشترط رمسيس أن
ياخذ ابنة الملك موتلي زوجة له لضمان تنفيذ المعاهدة. واستجاب
الملك لطلبه. وعاد إلى مصر محملاً بالغانم والأسرى والبطولة
التاريخية. يقول المحللون إن جيش الحيثيين كان عدده حوالي 20
ألفا منهم 7500 من المركبات، في حين أن الجيوش المصرية لم
تكن تزيد على 15 ألفا¹²⁷. والعجيب في الأمر أن هذه المعاهدة لم
تهدي الأمور بين مصر وختينا، فما لبثت خيتا أن استمرت في تأليب
وشراء أمراء سوريين ضد مصر فقامت بعد سنتين فقط حركات
تمرد جديدة وصلت إلى حدود مصر في سيناء، فانتهز رمسيس
الفرصة وحمل إلى سوريا فأسكت تمردًا في عسقلان وأخضع
فلسطين كلها وتقدم حتى ضم بلاد الأموريين التي كانت تقع ضمن
أملاك خيتا (الحيثيين)، وأدار معركة حامية ضد الحيثيين في حصن
(دبور) واستولى عليه، ثم استولى على مدينة تونيب من الجيوش
الحيثية، وهي في شمال سوريا. وهو يكون بذلك قد تجاوز الحدود
التي نصت عليها المعاهدة السابقة بكثير. بل وامتدت المعارك حتى
جزر البحر الأبيض التي ضمها رمسيس لمصر وأخضع كريت
وقبرص كما أخضع بابل وأشور لأملاكه. حتى اقترب كثيرًا من
حدود تحتمس الثالث من قبل. ويبدو أن شهرة هذا القائد العظيم لم
تكن فقط نتيجة معركة قادش، ولكن نتيجة هذه الحرب التي أخضع
فيها مناطق جديدة من أكثر من نوبة لمصر من الدول التي كانت
تدعم الحيثيين. وكانت هذه الحملة الأخيرة درسًا قاسيًا للحيثيين

¹²⁶ Nicolas grimal, Histoire de L Egpte ancienne, P. 333.

¹²⁷ احمد فخري، مصر الفرعونية.

الذين باتوا لفترة طويلة يتحاشون أن يتسببوا في غضب فرعون مصر الذي أثبت أنه شديد الانتقام. سعت خيتا لتجديد معاهدة السلام السابقة مع مصر بعد موت الملك موتلي. فعقدت معاهدة بدون حرب بين خاتوسيلي الملك الجديد لخيتا ورمسيس، يعترف كل منهم بأمالك الآخر ويتعهد بتسليم المجرمين الفارين إليه. وأراد الملك الجديد لخيتا تعزيز صداقته مع رمسيس فأتى إلى مصر مع ابنة أخرى له زائراً في ضيافة رمسيس، وترك ابنته هدية منه إلى رمسيس لتأكيد ولائه. واحتفل بذلك احتفالاً كبيراً. وقد أمن ذلك الأوضاع في آسيا لفترة طويلة. كان هم مصر الأول هو الاحتفاظ بسوريا مهما كان الثمن. فالتخلي عنها كان يعني وقوع مصر نفسها في الخطر. فكان أمن مصر يتطلب من كل فرعون بذل كل جهد في تأمين سوريا من الأخطار.

رمسيس الثاني



بدأت جحافل الهجرات المستمرة تشتد في المناطق المحيطة بمصر. وكانت كلها هجرات هندوأوروبية. فبعد موت ملك خيتا خاتوسيلي الذي خضع تماماً للنفوذ المصري، بدأت تظهر في هذه المناطق

شعوب جديدة تنتشر كالجراد في كل مكان. وكانت هجرات بعضها برية وأخرى بحرية، جحافل من البشر مع زوجاتهم وأطفالهم تجرهم أبقار وخيول يلتمسون العيش في مناطق غنية. فتغير الوضع الإثني في خيتا وبحر إيجه واليونان وجزر البحر الأبيض. ووصل الخطر مرة أخرى إلى شمال إفريقيا. مما جعل رمسيس يبني سلسلة من الحصون في الصحراء الغربية. حكم رمسيس 64 سنة مليئة بالمعارك والانتصارات. وكان من أكثر من أقام معابد في مصر. فهو صاحب معبدي أبي سمبل في الجنوب. وغابة الأعمدة في الكرنك، وأكمل معبد سيتي الأول وبنى بجانبه معبدًا آخر في أبيدوس، وأقام مسلتين وغيرها.

أشرك رمسيس ابنه مرنبتاح معه في أواخر أيامه. وكان خير خلف.

مرينبتاح

مرينبتاح



كان الابن رقم 13 من أبناء رمسيس. تولى الحكم في هدوء من بعد أبيه. اعتمد على حالة الاستقرار بين خيتا ومصر التي أسسها أبوه، حتى أن مصر أرسلت كميات من القمح لخيتا كمساعدة في مجاعة حدثت في عهد مرينبتاح. ومن الآثار المهمة لهذا الملك أنه سجل حملة تأديب مرت بفلسطين ذاكراً مواقع تم تأديبها وذكر كلمة إسرائيل (إسرائيل) كموقع تم تأديبه وأنه. (لن يعود له قائمة بعد الآن) وهذه هي المرة الوحيدة التي يذكر فيها هذا الاسم على الإطلاق. فقد كانت تسمى قبل هذا التاريخ وبعده ب (حورو)، ولكن الخطر الجديد الذي كانت تمثله الشعوب الجديدة التي استقرت في ليبيا بدأ يدق باب مصر في عهد مرينبتاح. فظهرت شعوب تدعى الليبو (الذي سميت ليبيا على اسمه فيما بعد)، المشاوش، الأكواش،

الشاكلش، التورشا واستقروا جميعًا في أرض نحيو. قررت هذه الشعوب محاولة الهجرة وغزو مصر فاتحدت معًا وكونت جيشًا دخل الأراضي المصرية لكن مرينبتاح تقابل معهم، ويبدو أنه ارتكب فيهم مجزرة كبيرة فقتل منهم الآلاف وعاد بستة آلاف أسير. كانت هذه أولى محاولات من أطلق عليهم المصريون اسم (شعوب البحر) وهو الاسم الذي استعملته كل الدول بعد ذلك.

تعليق

تحمل الأسرة الثامنة عشرة أسرارًا مهمة تهم كل البشر. ومن أهم هذه الأسرار المسألة اليهودية والنبي موسى عليه السلام. قبل أن نخوض علينا بكشف بعض الحقائق.

اسم موسى باعتراف التوراة اسم مصري وليس عبريًا. والغريب أن الاسم تكرر كثيرًا في الأسرة 18. (كاموزا، راموزا، إعموزا (أحمس)، تحوت موسى (تحتمس).....)

تاريخ النبي موسى عليه السلام كما تحدده التوراة هو 1350 قبل الميلاد. وهذا التاريخ يوافق بالتمام تاريخ إخناتون. وهنا المشكلة. فتاريخ إخناتون مدون بدقة ولا يعطي فرصة للأحداث التوراتية للتواجد في هذا الزمن. ولكن هناك تشابهات تثير الخيال. فديانة إخناتون تتفق مع ديانة موسى عليه السلام.

فكيف يمكن أن تتفق الأحداث الدينية مع التاريخ، وكيف يمكن استخلاص الحقائق من خلال الاتفاقات والتناقضات التاريخية الدينية؟

هناك تفسيران لا ينبعان من القناعات والقصص الدينية ولكن من الأحداث التاريخية.

التفسير الأهم هو تفسير فرويد في كتابه:

Der Mann Moses und die monotheistische Religion. Drei Abhandlungen

انطلق فرويد من حقيقة أنه كان في عهد إخناتون وزير اسمه (رع موسى) الشهير بـ (راموزا). وأن هذا الوزير لم يدفن في مقبرته

ولا يعرف كيف انتهى أمره. فتصور فرويد أنه بعد ثورة الكهنة ضد إخناتون والتخلص منه، وبعد إعادة الوضع الديني لسابق عهده. فإنه من الطبيعي أن تصر مجموعة على الاحتفاظ بدين التوحيد الإخناتوني حتى بعد مقتله. وتصور فرويد أن الوزير (رع موسى) أحد هؤلاء. وأنه - بشكل طبيعي - حاول الهرب من القمع والملاحقة ضد ديانة التوحيد الجديدة مع بعض المؤمنين بالمسألة وتوجه بهم إلى سيناء. ومن بعد سيناء حاولوا التوجه إلى فلسطين. ولأن المعتقدات الجديدة التي لم تكن لها جذور حقيقية بعد، وكانت لاتزال في طور التكوين، فقد أخذت تتطور بشكل عشوائي منفصل، خاصة أنها لم تكن مدونة عند الهاربين. وأن الوزير (رع موسى) الهارب بهم ربما كان الوحيد بينهم الذي يمتلك القدرة على الكتابة، وكان بالطبيعة أعلمهم بالدين الجديد بحكم كونه وزيراً سابقاً عند إخناتون، فهذا جعله يأخذ موقع النبي في نظرهم والمرسل المباشر لهم من الإله الواحد، وأن إخناتون توارى مع الوقت واختفى من المسألة بشكل طبيعي أو بشكل مقصود. والذي يدعم هذا التصور هو أن نشيد إخناتون هو نفسه المزمور رقم 104 من مزامير داوود المدونة في العهد القديم. بل إن التشابهات بين العهد القديم والمثيولوجي المصري تتخطى هذا بكثير¹²⁸ مما يدعم نظرية فرويد.

التفسير الثاني:

وهو الذي بني على بعض الإشارات التاريخية.

¹²⁸ انظر الجزء الخاص بالديانة المصرية.

الإشارة الأولى هي الرسائل الدبلوماسية من تل العمارنة في عهد إخناتون التي أسلفنا الذكر عنها كان الحديث عن قبائل عابيرو التي تعاون الحيثيين وتعمل معهم لاحتلال المدن والقرى.

والإشارة الثانية هي لوحة مارينبتاح الذي ذكر أنه أدب بعض المدن منها إسرائيل. وما بين الإشارتين حوالي 120 سنة. ويخرج بعض المحللين أن إحدى القبائل العربية القادمة من شرق الأردن حاولت كسابقتها أن تجد لها مكانًا في فلسطين كجزء من عمليات الهجرة المعتادة من شرق الأردن إلى غربه. ولأن هذه الهجرة جاءت متأخرة نسبيًا، فلم يعد هناك متسع لقرى أو مدن جديدة، مما دعا القادمين الجدد إلى التعامل مع الحيثيين والأمراء المتعاونين معهم عساهم يساعدهم أن يجدوا موطنًا في فلسطين، فارتبطت مصالحهم بالحيثيين الأعداء. ويبدو أنه في خلال المائة والعشرين عامًا التالية استطاعوا بالفعل بمعاونة الحيثيين أعداء مصر وأعداء المنطقة إيجاد مكان ما أسموه إسرائيل. وبالتالي كان من الطبيعي أن يقضي عليهم مرينبتاح باعتبارهم قوى محسوبة على الأعداء. ولأن الديانة المصرية كان لها تأثير حاسم على ديانات المنطقة بأسرها خاصة فلسطين. فليس من الغريب أن تتأثر إحدى القبائل بديانة إخناتون، والتي أصبحت بعد موت إخناتون ديانة غير محببة عند الملوك المصريين الذين تبعوه.

ويؤيد هذا التحليل العلاقة الحاسمة بين كلمة عربي وعبري. فالفرق بين الكلمتين هو تبادل حرفي الباء والراء لأماكنهما. وهو ما يدفع للقول إنهما كلمتان من أصل واحد. وهذا الأصل يعني التحرك. فالفعل (عرب) يعني التحرك ولهذا يشتق منه كلمة عربية بمعنى المكان المتنقل، والإعراب بمعنى تعيين الحركة في الكلمة. والإعرابي تعني البدو الرحل. والفعل عبر يعني أيضًا التنقل. وكلمة

العرب العاربة تعني العرب المتنقلين. وجمع المذكر السالم لكلمة العاربة هو العاريون. وجمع المذكر السالم من كلمة عبر هو عابرون. والنون تحذف عند الإضافة. فنقول مثلا (عابرو سبيل) وإذا أطلنا الكسرة في نفس الكلمة لنطقنا الكلمة (عابيرو) وهذا يجعلنا نتأكد من أن أصل العبرانيين أنهم قبيلة عربية قادمة من شرق الأردن اضطرتها الظروف أن تتحول إلى قبيلة ترتبط مصالحها بالأعداء لكي يساعدها في احتلال قطعة أرض. وهو ما أصبح قدرًا لازمهم حتى اليوم، رغم أنهم - على مر السنين وبحكم التزاوج والتناسل - خرجوا من البوتقة العرقية العربية، وأصبحوا أوروبيين أكثر منهم عربيًا.

النظرية الثالثة وهي النظرية التوراتية والتي نتحدث عن دخولهم مصر 12 أحمًا مع أبيهم (النبي يعقوب عليه السلام وأبناؤه) في عهد النبي يوسف عندما كان وزيرًا على مصر. ثم استمروا في مصر 400 سنة (كما ذكرت التوراة). حتى ظهر النبي موسى. فإذا كان موسى ظهر كما تحدد التوراة 1350 قبل الميلاد فإن دخول اليهود مصر كان 1750 قبل الميلاد وهو تاريخ قريب جدًا من تاريخ الهكسوس. أما خروجهم من مصر بعد سلسلة من المعجزات مثل موت كل بكر في مصر حيوانًا كان أو إنسانًا، وتحول النيل إلى نهر من الدماء، وموت كل أخضر في مصر بسبب الجراد، وعدم إشراق الشمس لمدة ثلاثة أيام على مصر، ثم شق البحر وغرق الفرعون والجيش في المياه. فكل هذا للأسف ليست هناك أية إشارة عليه على الإطلاق. وحتى يمدنا الزمن بإشارات جديدة تظل هذه هي الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.

عودة إلى الأسرة 19 :

انتهت الأسرة 19 نهاية سيئة، فاغتصب العرش شخص يدعى (أمون مس) ثم خلفه شخص آخر يدعى (مريبتاح سابتاح)، ثم خلعه شخص يدعى سيتي الثاني والذي كان على صلة بالبيت الحاكم السابق في هذه الأسرة الـ 19، ثم خلفه ابنه (رمسيس سي بتاح)، ثم تمزقت البلاد وأعلن عدد من حكام الأقاليم استقلالهم، ويقال إن شخصاً ما من أصول سورية أعلن نفسه ملكاً. حتى وصل للحكم (ست نخت) الذي استطاع إعادة الأمور إلى نصابها.

الأسرة العشرون 1195-1080 ق. م. :

ست نخت (أوسر خعو رع)، رمسيس الثالث (أوسر ماعت رع) (مري يمون)، رمسيس الرابع (حق ماعت رع) رمسيس الخامس (أوسر ماعت رع) سخبر إن رع)، رمسيس السادس (نب ماعت رع)، رمسيس السابع (أوسر ماعت رع) (أخ أن أمون)، رمسيس الثامن (أوسر ماعت رع) (مري أمون)، رمسيس التاسع (نفر كا رع)، رمسيس العاشر (خير ماعت رع)، رمسيس الحادي عشر (من ماعت رع) (ستب أن بتاح)

الملك ست نخت

هو حاكم عجوز حكم ثلاث سنوات كان ابنه رمسيس الثالث فيها هو الحاكم الحقيقي. ربما كان ست نخت من البيت المالكي القديم. على كل تبعه ابنه في الحكم بدون عناء.

رمسيس الثالث:

كانت فترة حكمه صحوه قوية مفاجئة أعادت مصر إلى سابق عهدها. حكم 32 سنة. كانت بلاد الشرق وبلاد الغرب من مصر تعج بهجرات إندوأوروبية كما أسلفنا الذكر. فقد اختفت مملكة خيتا مع ممالك أخرى تحت وطأة موجات الهجرات الجديدة. وهكذا كان كل ما أنجزته مصر من فرض قوتها على الجميع ونشر الخوف والحذر من بطشها وغضبها كان قد اختفى مع الواقع الجديد والشعوب الجديدة. وكانت الشعوب الجديدة في حاجة لأن تعرف توزيع القوى في المنطقة وما هو قابل للاحتلال وما هو مستحيل الاقتراب منه.

اهتم رمسيس الثالث بإعادة تنظيم البلاد، ولكنه اضطر إلى عمل حملة سريعة على سوريا لإخماد تمرد قام به أمير أموري. وكتب عن الحملة وعن هذا الشخص أنه انتهى وانتهت ذريته. في السنة الخامسة من حكمه بدأت الحروب الجادة مع الشعوب الإندوأوروبية. إذ تحالفت هذه الشعوب القادمة من الغرب وجهزت جيشًا جرارًا لغزو مصر قابله رمسيس الثالث في الصحراء وهزموا شر هزيمة. وأسر منهم رمسيس الثالث ألقا أرسلوا ليعملوا في القلاع والحصون المصرية. بدأت هذه الشعوب الجديدة تعي خطورة مصر. وأنها لن تستطيع غزوها كما فعلت في آسيا الصغرى وأوروبا بقاع العالم القديم، فبدأت بتجهيز عمل عسكري ضخم لإنهاء النفوذ المصري. بدأت هذه الشعوب بتجهيز أسطول بحري وجيش بري لغزو مصر عن طريق البحر والبر معًا. وكان رمسيس الثالث على وعي كامل بهذه الأخطار فأخذ هو أيضًا يجهز للمعركة الفاصلة بتجهيز أسطول ضخم وجيش عالي التدريب. وتقابلت الجيوش البرية في سوريا والبحرية في البحر الأبيض وكانت معركة قيل إن البحر

الأبيض تحول فيها إلى بحر من الدماء. وكانت هزيمتهم كارثية أنهت شوكة هذه الشعوب تمامًا ولم يعد لها قائمة. ولكن الخطر الكامن في ليبيا بدأ في التحرك، فضم فلول هذه الجيوش لبناء جيش عملاق يحاولون به استكمال المحاولة لكسر مصر مرة أخرى وتصوروا أن مصر خرجت من المعركة منتصرة، ولكن بالتأكيد مجروحة أو ضعيفة. وبدءوا في حملة عسكرية كبرى قابلها رمسيس الثالث في الصحراء وكانت معركة قاسية. انتقم منهم رمسيس الثالث انتقامًا عنيفًا وقتل منهم الآلاف وتبعهم حتى 20 كيلو مترًا في الصحراء وأسر ملكهم مششر. وبذلك استوعبت الشعوب الجديدة الدرس كما استوعبته الشعوب السابقة. ولكن رمسيس لم يهدأ وقرر كسر كل ما تبقى من مقاومة، وتطهير سوريا من بقايا شعوب البحر، كما فعل التحامسة من قبله بعد الهكسوس. فقد وعى الدرس واستوعب نظرية الأمن القومي المصري وهو تأمين سوريا لضمان سلامة مصر. فحمل على سوريا، وأخذ يطهر المدن السورية الواحدة تلو الأخرى حتى أنه عبر الفرات إلى الناحية الأخرى ووصل إلى ما وصل إليه تحتمس الثالث سابقًا. أما شعوب البحر فقد تفرقت واستقر بعض بقاياها كسكان مسالمين في نواحي البحر الأبيض وجزره، وكانت هذه الشعوب هي التي أخرجت اليونان ومناطق البلقان وروما فيما بعد.

ولكن يبدو أن هذه الحروب استنفذت جزءًا كبيرًا من اقتصاد البلاد وقبل أن تنعم البلاد بمكاسبها الجديدة بدأت تظهر اضطرابات عديدة. ويبدو أن هذا البطل واجه حطًا عائرًا لازمه وقضى عليه رغم انتصاراته العظيمة. فشهدت البلاد سلسلة من الاضطرابات من إضرابات واعتصامات لعمال ومظاهرات وهجوم على مراكز

تخزين حبوب¹²⁹. ووصل الأمر إلى حد أن أحد الوزراء قام بثورة ضد الملك في الدلتا. كان مركزها في أتريب (بنها)، ولكن الثورة لم تتجح. ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل دبرت عملية اغتيال للملك قامت بها إحدى زوجاته لتولية ابنها بنتاؤور على الحكم. ولكن قبض على المتآمرين وتمت محاكمتهم بمن فيهم الأمير بنتاؤور نفسه¹³⁰.

خلف رمسيس الثالث مجموعة ملوك يسمون برمسيس الرابع والخامس والسادس حتى رمسيس الحادي عشر. حكموا جميعًا حتى عام 1080. وكانت قوة الفراعنة تقل بمرور الوقت وتزداد قوة الكهنة تدريجيًا، حتى حدث ما لا تحمد عقباه وهو استيلاء الكهنة على العرش وتأسيس الأسرة الحادية والعشرين وتعيين كبير كهنة آمون ملكًا على مصر. وتتوحد لأول مرة منذ العصر الحجري السلطتان، الدينية والسياسية.

أخذ النفوذ المصري في آسيا يتضاءل تدريجيًا حتى استقر على فلسطين فقط. ولكن حتى هذا لم يستمر فقدت مصر في النهاية فلسطين واقتصرت على حدودها. تذكر البرديات وقطع الفخار عن هذه الفترة الفارغة من الملوك الأقوياء بعض الإشارات لرمسيس منها ما بنى معبدًا أو جدد معبدًا. كما ذكرت البرديات أحداث سرقة المقابر في عهد رمسيس التاسع. الذي ذكر فقط في هذه الحادثة.

ومن الملاحظ أن نظام المحاكم الذي كان غاية في التطور تفهقر كثيرًا في هذا العصر، وحل محله الكهنة الذين اعتمدوا على ما

¹²⁹ راجع الجزء الخاص بالتطور الاجتماعي في مصر القديمة.

¹³⁰ راجع التطور الاجتماعي في مصر القديمة.

يسمى بأوامر الآلهة ورغباتها. فكان أن المتضررين يذهبون إلى المعابد للشكوى. ويضع الكاهن طرفي الشكوى عند أقدام تمثال الإله ويعلم حكمه. ويكون حكمًا نهائيًا. يرضخ الجميع له. بل وصل الأمر إلى حد أن تعيين الموظفين كان يتم بنفس الطريقة وهي رغبات الآلهة وليس كفاءة الشخص. فتسرب الانحلال إلى جميع مرافق الدولة. وبدأت سرقات المقابر تتزايد بشكل كبير. بل كانت تدفع رشوي للكهنة لغض البصر.

وتذكر بردية (ابوت) أن شخصًا يدعى (باسر) حاكم شرق طيبة تقدم بتقرير للوزير يكشف فيه عمليات سرقات المقابر. وكلف الوزير لجنة ببحث الأمر. وانتهت اللجنة إلى نتيجة أن ادعاءات باسر كاذبة وأن المقابر سليمة. واحتفل الكهنة بذلك احتفالًا كبيرًا وكان كبيرهم (باورعا) وهو أكثرهم انخراطًا في عمليات سرقة المقابر، وأكثرهم سعادة بنتيجة لجنة تقصي الحقائق. تقدم هذا الكاهن باورعا بشكوى ضد باسر على اتهاماته. ولما شكلت لجنة جديدة لبحث الشكوى المضادة انتهت إلى حقائق خطيرة وهي أن تقرير باسر حقيقي، وأن سرقات المقابر حقيقية وأن لجنة تقصي الحقائق زورت تقريرًا كاذبًا..

وبدأ الكهنة يرسمون أنفسهم على نفس القدر من الأهمية والمساواة التامة مع الملك نفسه.

وظهرت دعوة للإصلاح إلى (عصر نهضة) في زمن رمسيس الحادي عشر، ولكنها انتهت سريعًا ولم تستطع أن تصد الفساد والانحلال في جسم الدولة.

وهناك في معبد خونسو نص كثير الدلالة فيرى الكاهن حريحور يتحدث عن الملك في بداية النص بكل احترام، ثم نراه بعد ذلك

يضع اسمه بجانب اسم الملك، ثم يضع اسمه مقدماً على اسم الملك، وفي نهاية النص نرى حريحور يحمل التاجين معاً ويلقب باللقاب الفراعنة. وهكذا انتهت الدولة الحديثة وبدأ عصر الاضمحلال وحكم الكهنة.

الأسرة الواحدة والعشرون 1085-950 ق. م.

سمندس (نسو بانب جدت) في تانيس، حريحور في طيبة، بسوسينيس (با سبا خع إن نبوت) في تانيس، بينزم في طيبة، أمأويت في تانيس، سي أمون في تانيس، بسوسينيس الثاني في تانيس.

أعلن حريحور - كبير كهنة أمون - نفسه ملكاً. وكان في الدلتا أيضاً ملك آخر اسمه سمندس. مات حريحور وتولى ابنه بهنجي المنصب ولكنه تخلى عن وصف نفسه كملك واعترف بملك الشمال (سمندس) واكتفي بمنصب كبير كهنة أمون. بعد سمندس حكم ابنه (بسوسينس). وبعد بسوسينس أعلن كبير كهنة أمون في طيبة نفسه ملكاً كجده حريحور. تولى (منخبر رع) منصب كبير كهنة أمون وتولى في الشمال إم أوبت منصب الملك، ولكن منخبر رع أعلن نفسه ملكاً بناء على رغبة الآلهة. وسمى نفسه بسوسينس الثاني، واستمر الحل حتى انتهت الأسرة الحادية والعشرين. وربما كانت خبيئة الدير البحري هي الحسنة الوحيدة لملوك هذه الأسرة، حيث أعادو دفن الملوك في خبيئة خاصة لحمايتها من السرقة. واحتفظ الزمن بهذا السر حتى القرن 19، حيث عثرت أسرة عبد الرسول على هذا الكنز وبدأت في بيعه، وبدأت آثار مصرية تظهر في أوروبا، حيث كان القنصل الإنجليزي منخرطاً معهم في هذه

الجريمة. ووصل الأمر إلى حد أن مومياوات مصرية كانت تطحن وتتحول إلى تراب لتخصيب الأرض الزراعية في إنجلترا. إلى أن اختلف الإخوة فيما بينهم وأبلغ أحدهم عن المكان. وهو الأمر الذي تعرض له المخرج شادي عبد السلام في فيلمه الخالد المومياء. وكانت المفاجأة أن مومياوات عظماء تاريخ مصر وأبطالها مثل سقن رع وأحمس وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني والثالث مدفونة معًا في هذا المكان الموحش. هي الآن بالمتحف المصري.

الأسرة الثانية والعشرون 730-950 ق. م.

شاشانق

بدأ تقليد شراء جنود من خارج مصر (مرتزقة) للعمل في الجيش المصري ينتشر في الأسرة 18. بل إن بعض الأسرى كانوا يرسلون إلى بعض الحاميات والقلاع. وكان عدد لا بأس به من الأغنياء يتخذون من أسرى الحرب عبيدًا حيث كانوا أيضًا يعملون كنوع من الحرس. هذه الظاهرة تصاعدت وأصبح عدد منهم أهل ثقة وتحولوا إلى ضباط عاديين في الجيش. ومع الوقت ومع ظهور أجيال جديدة منهم كانوا يتحولون إلى مصريين ويسمح لهم بتولي الوظائف. وكان من هؤلاء شخص يدعى شاشانق تعود أصوله إلى ليبيا. كان أن نهبت مقبرة ابنه فقدم شكوى وصلت إلى فرعون الذي أهداه تمثالاً باسم ابنه وضع في معبد أوزوريس في ابيدوس. كانت هذه العائلة الشاشانقية التي نزلت إلى مصر في عهد الرعامسة قد تمصرت تمامًا لغة وديانة وانتماء. بعد موت الملك بسوسينيس اعتمد على شخصيته القوية وزعامته وتقربه من الملك السابق،

وأظهر حبًا وولاء للبيت الملكي، وزوج ابنه من الأميرة (ماعت كا رع) وأعلن نفسه ملكًا. فكان أن مر حوالي 6 أجيال على وجود هذه العائلة في مصر مما لا يصح أن نحفظ نحن بتسميتهم بالعائلة الليبية كما يصر بعض الباحثين. فلم يكن لهم وطن آخر يعرفونه أو ينتمون إليه غير مصر. الغريب في الأمر أن البحث في أصول بعض الأسر المصرية وصبغهم بصبغة أجنبية على قلتهم أمر يثير الريبة من هؤلاء الباحثين. فملكة إنجلترا من أصول ألمانية ولا يقول أحد إن ألمانيا تحكم إنجلترا. والأسرة الحاكمة في إسبانيا من أصول نمساوية ولا يقول أحد إن النمسا تحكم إسبانيا. ولهذا فتسمية شاشانق بالفرعون الليبي إحدى الظواهر التي ننظر إليها بعين التوجس. فقد كان مصريًا قلبًا وقالبا.

وتوجس كهنة آمون خيفة من ظهور فرعون جديد يهدد مكانتهم. وحدث الصدام بالفعل فهرب عدد منهم إلى السودان. ويبدو أن شاشانق ذهب في حملة إلى فلسطين وأخضعها مرة أخرى إلى سلطاته. وعاد بغنائم طائلة. وقد ذكر العهد القديم أن فرعون مصر أن (شيشاق) ملك مصر أغار على جيروزاليم واستولى على غنائم جمّة¹³¹.

خلف شاشانق ابن (أوسكرون)، وتبعه تكلوت الأول. ثم أوروسكون الثاني، ثم شاشانق الثاني، ثم شاشانق الثالث، ثم الملك بامو، ثم شاشانق الخامس.

¹³¹ الملوك الأول، 14، 18/16.

الأسرة الثالثة والعشرون 817-730 ق. م.

بدي باست، شاشابق الرابع، أوسوركون الثالث، تكلوت الثالث،
آمون رود، أوسركون الرابع.

كانت هذه الأسرة في معظم فتراتهما موازية للأسرة الشاشانقية.
وانتهى الصدام بين الأسرتين على قبول كل منهما الأخرى وأصبح
لمصر ملكان في الوقت نفسه بل وفي الدلتا أيضًا. كان مؤسس هذه
الأسرة هو (با دي باست) بل وكان كبير كهنة طيبة يكتب اسمه
أيضًا في خرطوشة ملكية. وتبع با دي باست الملك شاشانق الرابع،
ثم تبعه أروسكون الثالث، ثم تبعه تكلوت الثالث، ثم أمون رود، ثم
أروسكون الرابع

الأسرة الرابعة والعشرون 730-715 ق. م.

تف نخت، بكوريس (باك إن رنف)

ظهر في الدلتا أكثر من ملك يدعي أنه فرعون مصر. استطاع
أحدهم وهو (تف نخت) في تل بسطة إخضاع الآخرين له. ثم توجه
جنوبًا إلى طيبة. ولكنه التقى بجيوش قادمة من الجنوب بقيادة
بعنجي القادم من النوبة. وبعد موته حاول ابنه (باك إن رنف)
استكمال مسيرة الأب واصطدم بجيوش بعنجي مرة أخرى، ولكن
بعنجي انتصر وأعلن نفسه فرعونًا. بعد انتصار بعنجي أذعن له
كل أمراء الدلتا. وبذلك تأسست أسرة جديدة.

الأسرة الخامسة والعشرون 715-656 ق.م.

بعنخي، شاباكا، شبتاكا، طهرقا، تانوت أمانى. عندما تولى شاشانق أمر البلد في الأسرة الثانية والعشرين رفض كهنة آمون في طيبة الاعتراف به وانتقل عدد منهم إلى النوبة حيث كانت تعج بمعابد كبيرة هناك. أعلن هؤلاء الكهنة أنهم سادة المنطقة من النوبة إلى طيبة. وعندما بدأ (تاف نخت) في الزحف جنوباً جهز بعنخي جيشاً وقابله عند الأشمونين وهزمه وتقدم إلى الشمال حتى منف التي حاصرها حتى استسلمت له. أذعن الجميع لبعنخي حتى (تاف نخت) استسلم له. ترك بعنخي البلاد بشكل غير مفهوم وعاد إلى النوبة فظهر تاف نخت مرة أخرى وأعلن نفسه ملكاً على الأرضين. اشتهر هذا الملك بتشريعاته القانونية حتى أن اليونانيين حسبوه واحداً من أعظم المشرعين. وبعد موته تولى ابنه (باك إن إنف) الحكم. واهتم أيضاً بالتشريع، ولكنه بدأ في تأليب الأمراء الفلسطينيين ضد آشور التي أصبحت سيادة المنطقة في شمال سوريا وآسيا الصغرى. فأرسلت آشور حملة تأديب هزمت جيوش الأمراء المتحالفين مع مصر ولم تستطع المساعدات التي قدمتها مصر لهم أن تنقدهم من الهزيمة، مما جعل الملك باك إن إنف يغير اهتمامه للأمور الداخلية. والتي جعلته يشتهر بالحكمة الشديدة كما ذكر مؤرخون يونانيون.

نلاحظ هنا أن مصر الفرعونية في أواخر أيامها بدأت تلعب لمدة 300 سنة نفس الدور الذي كانت تلعبه خيتا من تأليب الأمراء السوريين ضد مصر ولكن لمدة 1000 سنة.

حكم باك إن رنف (بوخوريس كما أسماه اليونانيون) 6 أعوام . انتهت عندما عاد شاباكو ابن بعنخي وأعاد احتلال مصر.

بدأ شاباكو سياسة خارجية مختلفة فأرسل هدايا إلى (سرجون) ملك آشور الذي تفاجأ بالأمر غير المتوقع فأرسل هدايا في المقابل.

حكم شاباكو 16 سنة تبعه أخوه (نبتكا). عين نبت كا ابنه (طهرقا) قائداً للجيش، والذي استطاع إخماد كل الحركات المناوئة لأبيه في الدلتا. مات سرجون ملك العراق وتولى ابنه (سنحريب) الأمر. قرر سنحريب تجهيز حملة كبيراً إلى سوريا ومنها إلى مصر. قرر طهرقا قائد الجيش مقابلته على الحدود المصرية، ولكن الجيش الآشوري نفى فيه الطاعون فعاد أدراجه. في عام 681 مات شبتكو فتولى بعده طهرقا. حدثت في عهد طهرقا مواجهات حاسمة بين مصر وآشور التي كانت قد وصلت إلى أوج قوتها كانت مصر قد وصلت إلى أقصى ضعفها. حاول طهرقا استعادة أملاك مصر في سوريا فأرسل قوات عسكرية تساعد بعض حركات التمرد التي طردت القوات الآشورية من صور، وأجبرت سرحدون إلى الحضور على رأس جيش لاستعادة المدينة، ولكنه لم يستطع فاتجه بجيشه إلى مصر مباشرة مستغلاً وجود قواتها في فلسطين. واستطاع الاستيلاء على منف. أسر عائلة طهرقا وأولاده واستولى على غرب الدلتا، ولكن طهرقا عاد واستطاع هزيمة الجيش الآشوري واستعاد منف وطرد الآشوريين من مصر. فعاد سرحدون مرة أخرى وتقدم بجيش جرار لملاقاة الجيش المصري ولكن الملك الآشوري قتل في الطريق وعاد الجيش أدراجه. ولكن ابن سرحدون بانبيال كان قد قرر الانتقال لأبيه وجهاز جيشاً من الآشوريين والسوريين ومناطق أخرى عديدة وتمكن من الاستيلاء على منف. ولكن أمراء من الشمال والجنوب جهزوا قوات لمهاجمة بانبيال الذي استطاع من خلال دعم جديد وصل إليه أن يحقق انتصاراً عليهم وتقدم جنوباً حتى طيبة. وقبض على الأمراء المصريين وعلى رأسهم (نخاو)

الذي أرسل إلى نينوى عاصمة آشور. لكن الملك الأشوري أعجب بشجاعة نكاو فأعاده بكثير من الهدايا وأهداه إمارة صا الحجر التي كان أميرًا عليها، كما أهدى ابنه إمارة أتريب.

مات طهرقا في الجنوب، والذي كان مازال يعترف به كملك مصر رغم وجود بعض الحاميات الآشورية. خلف طهرقا ابنه (تانتوت أماني). وبعد موت هذا الملك خلفه عمه طهرقا الثاني الذي جهز جيشًا لتطهير البلاد من بقايا الحاميات الآشورية، فاتجه شمالًا إلى الدلتا واستطاع بالفعل تطهير معظم المدن هناك. ولكن ملك آشور أرسل جيشًا آخر استطاع التغلب على طهرقا الثاني وتدعيم الوجود الآشوري في مصر.

الأسرة السادسة والعشرون 656-525 ق. م.

بسماتيك الأول، نكاو، بسماتيك الثاني، واح إب رع (إبريس) أحمس الثاني (امازيس)، بسماتيك الثالث.

لم تتوقف الهجرات الإندوأوروبية. فتحولت إيران إلى منطقة تعج بهذه الهجرات القادمة من أواسط أوروبا، والتي بدأت في تنمية مدن جديدة. كما بدأت الهجرات في منطقة اليونان تفرز كيانات سياسية مهمة. ولكن المنطقة اليونانية بالتحديد لم تكن تشكل أي خطر على مصر. فكانت شعوبها تحتفظ باحترام وراثي لمصر. وكان عدد كبير منهم يحج إلى مصر للدراسة فيها وخاصة في مدينة (سايس) أو صا الحجر التي كانت تمتلك مدرسة عالمية كبيرة متعددة الأفرع من رياضة إلى فلك إلى هندسة إلى كيمياء، إلى فيزياء. حتى أن

كلمة كيمياء تعني في الحقيقة العلم المصري، فقد اشتقها اليونانيون من اسم مصر في ذلك الوقت وهو كيمي أو كمت. ونقل اليونانيون هذا العلم من مصر إلى بقية أوروبا باسم (المصري). كما كان هناك عدد لا بأس به من التجار اليونانيين المقيمين في مصر. بل كان هناك أيضاً عدد من الجنود اليونانيون يعملون في الجيش المصري. فلم يكن اليونانيون يمثلون خطراً على مصر، بل كانت اليونان بمثابة الأخت الصغرى لمصر التي تحترم، بل وتقدس أختها الكبرى. فقد كان كل فيلسوف يوناني يتعلم في مصر يعترف بالجميل المصري ويكرر عبارة (اليونانيون مازالوا في مضمار الحضارة بالنسبة للمصريين مجرد أطفال)¹³². كما كانت هناك أسر حاكمة في اليونان وخاصة في أسبرطة وأثينا من أصول مصرية¹³³. كما أن الاساطير اليونانية تعج بالمصريين الذين علموا اليونانيين الكثير. بل إن كلمة يوناني في حد ذاتها كلمة مصرية وتعني سكان أيون (سكان مدينة أون عين شمس)¹³⁴ ولكل هذا كان لليونانيين وضع خاص كأجانب يختلف عن بقية الشعوب الأجنبية.

بسماتيك الأول

كان بسماتيك الأول أحد أمراء الدلتا الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم على حكم مصر رغم وجود مصر تحت السيطرة الآشورية. استطاع بسماتيك تكوين جيش مستعينا ببعض القوات اليونانية. استطاع إخضاع كل أمراء الدلتا ثم طرد الآشوريين من مصر، الذي هربوا واحتموا بمدينة أشدود في فلسطين. أصبحت سوريا

¹³² انظر الفصل الخاص بالتطور الاجتماعي في مصر القديمة.

¹³³ Black Athena, Volum 1, p, 157.

¹³⁴ المصدر السابق، ص 162.

هدفًا حيويًا لكل فرعون مصري لأهميتها الاستراتيجية. فقرر بسماتيك كما رأى تحتس الأول أهمية تطهير سوريا من كل العناصر الغريبة. فتبع الآشوريين حتى خلص كامل التراب السوري منهم وأضحت سوريا بالكامل مرة أخرى تابعة لمصر. ثم اتجه إلى طيبة وعين أحد رجاله المخلصين وهو (نس ناو ياو) حاكمًا على الجنوب. وبنى أسطولًا وجيشًا كبيرًا، ولكن كان عدد الجنود اليونانيين به ليس بسيطًا. وبدأ في الإصلاحات الداخلية. بعض المحللين يعيرون على بسماتيك إدخال الجنود اليونانيين في الجيش المصري؛ لأن هذه الظاهرة ستنتهي بما لا يحمد عقباه. فقد تسبب ذلك في توسع التجار اليونانيين، وزيادة الجالية اليونانية في مصر. حكم بسماتيك 50 سنة استعادت فيها مصر مكانتها التي فقدتها من قبل. وتبع بسماتيك الملك نكاو الأول.

نكاو الأول

كان يظهر في العراق صراعات لا تنتهي بين الممالك المختلفة التي لم تتوحد أبدًا مثلما توحدت مصر في عهد نعرمر. فتحالف البابليون مع الميديين وهي القوى الجديدة الصاعدة في إيران. واستطاع المتحالفان هزيمة آشور وتدمير نينوى العاصمة، واقتسما مملكة آشور بينهما. وبدأت آشور تحاول القصاص. ورأت مصر أن معاونة آشور أفضل من ترك القوى الجديدة الصاعدة تزداد قوة. فوجهت جيش إلى فلسطين لملاقاة الجيوش الجديدة وكان يوشيا ملك يهوذا أقرب المعاونين للقوى الجديدة فسحقه الجيش المصري وقتل يوشيا. ولكن ابنه تولى العرش واستمر في سياسة أبيه ولكن الجيش

المصري هاجمه وأسره وأرسلوه إلى مصر. وقرر نكاو تعيين ابن يوشيا وكان اسمه (اليقيم) وكان مواليا لمصر. كما قبل دفع تعويضات وتقديم جزية. أتم نكاو إخضاع كل المدن السورية وقضى على كل القوى المؤيدة للميديين والبابليين وضمن ولاء سوريا التام لمصر. ثم قرر الاستمرار ليصل إلى ما وصل إلي جده تحتتمس الثالث ورمسيس الثالث. فعبر نهر الفرات واستقر هناك. كان جيش نكاو يبعد كثيرا عن مصر، وقريبا جدا من عواصم بابل وميديا الإيرانية. فاستطاعوا توحيد جيوشهما واستعانوا بكل ما وصل إليهم من جيوش آشور السابقة بالإضافة لإعادة إحياء قوى مناوئة سورية فتقابلت الجيوش عند مدينة قرقيش في شمال سوريا واستطاع التحالف البابلي الإيراني هزيمة نكاو الذي عاد إلى مصر. وبدأ نكاو في إعادة بناء الأسطول المصري ربما في محاولة لاستعادة سوريا. كما بنى أسطولا صغيرا في البحر الأحمر وأرسله في مهمة استكشافية فأبحر هذه الأسطول من البحر الأحمر حتى عاد من البحر المتوسط بعد أن دار حول القارة الإفريقية. وذكر هيرودوت شيئا هو نفسه لم يصدقه. فذكر أن البحارة المصريين قالوا إنه في بداية الرحلة كانت الشمس تشرق من اليسار، ثم أصبحت تشرق من اليمين. وهو طبعا الاحتمال الوحيد الممكن حسب علمنا الآن في حين أن هيرودوت ذكر الرواية وهو غير مصدق لها.

بدأ نكاو في إعادة فتح القناة التي تربط البحرين الأحمر والأبيض عن طريق النيل. ولكنه توقف بعد ظهور نبوءة تعلن أن القناة لن تخدم مصر ولكن ستخدم أعداءها. وهو بالفعل ما اعتقده محمد علي باشا عندما عرض عليه الأمر بعد نكاو بحوالي 2200 سنة.

بعد وفاة نكاو حكم ابنه نكاو الثاني.

ونحن نعلم أن هذا الملك أرسل حملة إلى سوريا لتأمين الأوضاع وحملة إلى السودان.

وبعد موته حكم خليفته (واح إب رع)

كان اليونانيون يسمونه (أبريس). تذكر التوراة كما يذكر التاريخ البابلي أن سوريا وقعت في تطاحن دويلاتها، وأن البابليين انتهزوا الفرصة وانقضوا عليها ودمروا أوراشليم وأسروا عددًا كبيرًا من اليهود (الأسر البابلي) وأن عددًا كبيرًا منهم لجأ إلى مصر وأواهم الملك (واح إب رع) في جنوب مصر في منطقة الفنتين. انقسمت سوريا بين مصر وبابل. فكانت المناطق الساحلية تابعة لمصر والداخلية لبابل. ويبدو أن السبب في ذلك كان التفوق البحري المصري من خلال أسطولها القوي. لكن الملك (واح إب رع) لم يقنع وقاد جيشًا إلى فلسطين مدعماً من الأسطول الذي هزم البابليين في البحر وتقدم برياً حتى شمال سوريا.

كان بعض المصريين قد بدأ يتنمر من تزايد اليونانيين في الجيش وفي الحياة المدنية. وقد ظهر هذا التناقض عندما استجدت ليبيا بمصر من الهجرات اليونانية على أراضيها. فأرسل لهم (واح إب رع) جيشًا به عدد قليل من اليونانيين خوفًا من أن يرفضوا محاربة بني جلدتهم. ولكن الجيش وقع في كمين تسبب فيه أحد الضباط اليونانيين في الجيش. فقامت ثورة عارمة في البلاد. فأرسل الملك أحد قواده لتهدئة الوضع. كان هذا القائد اسمه أحمس. ولكن أحمس أعلن العصيان على الملك وانضم للثورة. وبايعه الجنود والشعب فرعونًا فقبل البيعة. واستعان الملك بالجنود اليونان لحمايته، ولكن الجيش المصري الخالص دحر القوات اليونانية التي احتوى بها الملك. وأسر الملك. ولكن أحمس أحسن معاملته وقبل أن يستمر ملكًا على أن يحكم معه أحمس. واستمر الحال ثلاث سنوات. ولكن

الملك خان العهد وكان يمهد طول الوقت لدحر أحمس عن طريق اليونان. وفجأة تقابل جيشان مرة أخرى في مصر أحدهما يوناني يناصر الملك والآخر مصري يناصر أحمس. وانهزم اليونان شر هزيمة وقتل الملك، وأكرم أحمس رفاتة وأحسن دفنها بعناية تليق بملك.

أحمس الثاني

بعد تولي أحمس الحكم أدرك تعقد الأمر فقد كانت الحالة السياسية العالمية غاية في التعقيد. فالوضع في آسيا أصبح خطرًا بسبب العداء التقليدي والمنافسة بين بابل وميديا من ناحية ومصر من ناحية أخرى على سوريا وأطماع كل منهما في الآخر. كما تصاعدت قوى اليونان بشكل ملحوظ. ورأى أحمس أنه لا يستطيع معاداة كل الشرق مع اليونان في الوقت نفسه. فأقام بعض التغييرات الداخلية في بعض المواقع العسكرية تقلل من الوجود اليوناني وترضي المصريين وتبقي على علاقات مودة بين المصريين واليونان كدولتين وشعبين. بدأ أحمس في بناء قلاع في الناحية الغربية في سيوة والواحات انقاء لشر اليونانيين الموجودين في ليبيا. كانت هذه القوى كلها مصرية. أما في الغرب فقد أودع الجنود اليونانيين في مقابلة الخطر البابلي. وفي أول محاولة بابلية في فلسطين تصدى لهم الجنود اليونانيون في الجيش المصري ولكنهم هزموا. وهنا انطلق أحمس بالأسطول المصري فاحتل جزيرة قبرص واستعد لملاقاة البابليين هناك. ثم أنزل أحمس قواته في الأراضي السورية وبدأ يستعد لملاقاة البابليين.

بسماتيك الثالث

بعد 42 سنة حكم مات أحمس الثاني وتولى بعده ابنه بسماتيك الثالث. وبعد أن كان الخطر قادمًا من بابل تحول الخطر إلى ليأتي من منطقة جديدة.

قبل موت أحمس كان ملك إيراني من ميديا قد ظهر مجد اسمه قورش، واستطاع إخضاع كل المناطق الميديا والمناطق المتاخمة لها، ثم انقض كالصاعقة على ليديا التي كانت في تحالف مع مصر واستولى على بابل نفسها عام 539. وأصبح سيد غربي آسيا بلا منازع، ولكنه لم يجرؤ على التحرش بمصر حتى مات قبل موت أحمس بنحو خمس سنوات. وتولى بعده ابنه قمبيز. وبدأ قمبيز يتم ما بدأه ابوه فأخضع باقي دويلات آسيا الصغرى والجزر اليونانية نفسها وجمع جيشًا مخيفًا من كل هؤلاء لمهاجمة مصر. وكان أحد القواد اليونانيين في الجيش المصري قد هرب من مصر وانضم لجيش قمبيز وأخذ يغريه بمهاجمة مصر ويرسم له الخطط ويوضح له مواطن الضعف والقوة في الجيش المصري. وللأسف مات أحمس قبل هذه المقابلة التاريخية.

كانت قد خرجت نبوءة من معبد آمون في سيوة تحذر قمبيز من محاولة غزو مصر وتنبأت بنهاية مفاجئة له ولقواته جميعًا أبشع مما حدث في أي حرب سابقة. ولكن هذا لم يثته. بل قرر أنه سيغزو مصر ويدمر هذا المعبد.

تقابل الجيشان المصري والفارسي عند تل الفرما. تغلبت القوات الفارسية فترجع الجيش إلى منف وتحصن هناك. تبعته القوات الغازية وحاصرت المدينة واضطر المصريون إلى التسليم. أكرم قمبيز وفادة بسماتيك وأحسن معاملته، ولكن بسماتيك قرر أن يستمر

في الحرب وأخذ يحاول أن يجمع قوات للمقاومة، ولكن قمبيز قبض عليه وانتحر بسماتيك. قرر قمبيز الاستمرار في فتح مصر فنزل بقواته إلى طيبة ثم بقى مع نصف الجيش في طيبة للاستمرار في الفتح جنوباً، وأرسل الجزء الثاني من جيشه لهدم معبد آمون. انتهز المصريون الفرصة وتعاونوا من قوات من نباتا وهاجموا جيش قمبيز في طيبة ودحروه. أما الجيش الذي ذهب إلى معبد آمون في سيوة فقد اختفى كله عن بكرة أبيه في الصحراء ولم ينج منهم شخص واحد. وأمام هذا الفشل الذريع أصاب قمبيز بالجنون وهرب إلى بلاده ولكنه مات في سوريا. وظل موجوداً في منف واليًا فارسياً اسمه (أريانوس). صادف هذا الرجل متاعب جمّة، فقد بدأ بسياسة فارسية وتطبيق القوانين الفارسية في مصر، والتي كانت غاية في القسوة، ففشلت ولم تهدأ الأوضاع أبداً في مواجهة الفرس بل زادت حدة. فاستدعى ملك الفرس شخصية مصرية تدعى (وجي حرر سنت) الذي نصحه بتقديم القرابين للآلهة المصرية والعمل في مصر بقوانينها الخاصة التي كانت أكثر تطوراً من القوانين الفارسية. وبدأ داريوس في هذه السياسة الجيدة التي هدأت الأوضاع. وأتى داريوس إلى مصر وقدم القرابين للآلهة المصرية. في هذه الأثناء قامت معركة حربية تسمى معركة ماراثون بين اليونان وبارس انتصرت فيها اليونان. انتهز المصريون الفرصة فهبت ثورة عارمة في الدلتا ضد الفرس بسبب خسائر ضخمة. ومات داريوس وخلفه كركيس وأتى إلى مصر على رأس جيش كبير لإخماد الثورة، ولكن الأمور تفاقمت ووصل الوضع إلى حرب شاملة داخل مصر بين المصريين والفرس، حتى أن المصريين حاصروا مدينة منف التي كان يحتمي بها جيش الفرس المكون من 400 ألف جندي لمدة 18 شهراً. ولكن كان وصول نجدات جديدة لهم، ومساعدة اليهود للفرس كان السبب في فك الحصار. وحاول الفرس بعد فك الحصار تهدئة الأوضاع حتى

أنهم كرموا أبناء زعماء الثورة، وعبدوا الآلهة المصرية ورغم كل المحاولات فإن الثورة لم تهدأ حتى حدث الانفجار العارم سنة 410 حيث تم التحرير الكامل .

الأسرة السابعة والعشرون 404-525 (فارسية)

قمبيز، دارا الأول (داريوس)، خشيارشا (كسركيس)ن الاتخشاشا (ارتكسركيس)، دارا الثاني.

الأسرة الثامنة والعشرون 398-404 ق. م.

آمون حر (أمير تايوس)

لم تهدأ مصر إطلاقاً طول فترة حكم الفرس. وحاول الفرس استعمال جميع الطرق الممكنة للسيطرة على الوضع ولكن بلا فائدة. كانوا مرة يستعملون اللين وتقديم الولاء للآلهة المصرية، ويحسنون معاملة حتى الثوار أنفسهم، وتارة يستعملون الشدة، ولكن هذا لم يهدئ الأحوال. حتى ظهر قائد يسمى (آمون حر) الذي استطاع تنظيم جيش تحرير دحر كامل القوات الفارسية وهرب الباقي منها من مصر. دانت لآمون حر كل البلاد واعترف به الجميع. كان المعبد اليهودي في الفنتين قد حرق ودمر تماماً انتقاماً منهم لدعمهم للأعداء. تبقى عدد من اليهود أصروا على الاستمرار في مصر واستطاعوا كسب تعاطف المصريين فغفروا لهم خيانتهم

وسمحو لهم بالاستمرار في مواقعهم التي كانوا فيها. بعد موت أمون حر انتقل الملك إلى أسرة جديدة.

الأسرة التاسعة والعشرون 378-398

نفرتس الأول (نايف عاو رود)، هكرا (اكوريس)، بيس اموت (بساموتيس)، نفرتس الثاني (نايف عاو رود)

انتقل الملك بدون اضطرابات إلى أسرة من منديس. ربما كان مؤسس هذه الأسرة (نايف عاو رود) أحد زملاء أمون حر في الثورة بدأ نايف عاو رود في دعم أسبرطة اليونانية، ولكنه ترك الصراع الدائر بين أثينا وأسبرطة والفرس وانتقل للاهتمام بالسياسة الداخلية.

تبع هذا الملك ملك يدعى هكرة وقاد بدا في دعم أثينا ضد الفرس ومدهم بالأموال والقمح. ثم تلاه الملك (بيس أموت) ثم تلاه الملك (نايف عاو رود).

الأسرة الثلاثون 341-378 ق. م.

نختبو الثاني (نخت حر حب)، جد حر

لم يكن هذا الملك يميل إلى التحالف مع اليونانيين، بل كان ضد صعود الوجود اليوناني في مصر. وكان أهم ما شكك المصريون في صدق اليونانيين هو سماح القوات اليونانية في غرب مصر

بالمساح لجيش قادم من سوريا بالتوغل في الأراضي المصرية حتى الدلتا. ولكنهم اضطروا بعد ذلك للانسحاب.

كان لهذا الملك ابن طموح اسمه جد حر. وكان أكثر ثقة في اليونانيين. وما إن تولى الحكم حتى قرر أن يقطع دابر الفرس ويقضي عليهم. وتقابل مع الفرس في عدة مواقع وهزمهم حتى كاد أن يحتل كل سوريا ويتوجه إلى إيران، ولكن حدث شيء غريب جداً، وهو أن أخاه في مصر وابنه الذي كان معه في سوريا تأمرا عليه. فتركه ابنه وحيداً في سوريا وعاد بقواته إلى مصر. فاضطر الملك المنتصر الذي كان على وشك القضاء على الفرس إلى تسليم نفسه للمهزومين.

نخبوا الثاني كان ابن الملك جد حر الذي تأمر ضده. عندما عاد وقعت البلاد في فتنة كبرى بسبب موقفه الخبيث من أبيه، وحاول شخص يدعو مندس من البيت المالكة القديم للأسرة التاسعة والعشرين استعادة الملك، ولكن الأمور استقرت في النهاية لنخبوا الثاني. وعاشت البلاد فترة استقرار. تولى الحكم في فارس ملك يدعى (أوخوس) أو ارتاكريكس. وقرر الانتقام من هزائم الفرس في سوريا والتخلص من القوة المصرية تماماً، فجهز جيشاً ضخماً وتقدم به عام 351 ولكنه هزم وعاد أدراجة. ولكن قرر نفس هذا الملك إعادة المحاولة من خلال البحر والبر وجهز جيشاً ضخماً وهاجم مصر من جهتين واستطاع احتلال منف. وهرب نخبوا الثاني إلى الصعيد وحكم من طيبة، ولكن القوات الفارسية تقدمت إلى هناك وأتمت احتلال مصر بالكامل.

عودة الفرس 332-341

لم تهدأ مصر أبدًا طول السنوات الثمانية بل قاد المقاومة شخص يدعى خباشا الذي أعلن نفسه ملكًا واعترف به كهنة منف. كان هذا اثناء وجود قوات فارسية غير قادرة على التصدي لما يحدث. وبدا يصعد نجم شخص يوناني اسمه الإسكندر.

كان مع الإسكندر في حروبه قائد مصري يدعى (تاف نخت) ويبدو أنه أثر عليه لدخول مصر وتخليصها من الفرس. وربما لم يكن الإسكندر يحتاج إلى هذه النصيحة، فقد كانت مصر بالنسبة لليونانيين الأم الحضارية لهم. فالكثير من فلاسفتها درسوا في مصر والذين لم يدرسوا فيها اعترفوا بأنهم أخذوا منها المعرفة والفن.¹³⁵

وهناك بعض الملحوظات التي يجب أن نعرفها حتى نفهم حقيقة الاسكندر بمصر والتي لا تذكر في سرد هذه الفترة.

- سمى الإسكندر نفسه ابن آمون. وهو لم يفعل ذلك في مصر تقريبًا من الناس والكهنة، بل كان يسمى نفسه ابن آمون دائمًا حتى أنه وقع وصيته الموجودة في متحف لندن باسم الإسكندر ابن آمون.

- أعلن الإسكندر مدينة الإسكندرية عاصمة ملكه ولم يعلن أية مدينة يونانية عاصمة لإمبراطوريته.

- اوصى الإسكندر في وصيته أن يدفن في مصر مع الفراعة حسب طقوس الدفن الدينية المصرية وليس في

¹³⁵ راجع الفصل الخاص بالتطور الاجتماعي في مصر القديمة.

اليونان مع ملوك اليونان حسب مراسيم الدفن اليونانية. وقد دفن بالفعل في الإسكندرية وتم تحنيطه كفرعون مصري.

- لم يكن مسموحًا لأي شخص غير مصري بالدفن والتحنيط حسب المراسيم الدينية، ولكن الكهنة المتشددون أعطوا الإسكندر هذا الحق واعترفوا به مصريًا وابنًا لأمون ككل الملوك المصريين من قبل.

- يتساوى هذا مع ما يطلق عليه حديثًا بالتجنس بالجنسية المصرية.

كل هذا يدفعنا للتساؤل: هل نعتبر الإسكندر يونانيًا بناءً على أصوله، أم نعتبره مصريًا بناءً على رغبته؟

سنعرض في الجزء الثاني من هذه السلسلة لفترة حكم الإسكندر، البطالمة، الرومان، المسيحية، الإسلام.

الفصل الثامن

اللغة المصرية القديمة

مقدمة

يقول جادنر في كتابه المهم (Egyptian grammer) إن اللغة المصرية تقع بين عدة لغات. فهناك تأثيرات سامية واضحة وقوية عليها، وهو ما جعله يعتمد اللغة العربية في فك وحل معظم الإشكاليات فيها. ولكنه يعود ليذكر بأن التسليم بأن اللغة المصرية سامية فقط لا يفسر التشابهات بينها وبين اللغة الأمازيغية¹³⁶، واللغة الأمازيغية كلغتين هاميتين. هذا الرأي لجاردنر يعني أن اللغة المصرية تقع بين أسرة اللغات السامية والحامية.

ولكن الأبحاث الإثنية واللغوية الجديدة أثبتت أن اللغة الأمازيغية واللغة الأمازيغية هما أيضًا لغتان ساميتان. وهو ما يؤكد أن اللغة المصرية تنتمي إلى أسرة اللغات السامية بشكل نهائي. فكل خصائصها اللغوية وقواعدها سامية. مفرداتها سامية، ونظام الكتابة بها يعود إلى النظام السامي. وهذا مهم لأنه يساعد في فهم وتحليل كثير من الظواهر في هذه اللغة.

¹³⁶ اللغة الأمازيغية هي لغة بربر شمال إفريقيا.

في نفس الكتاب يوضح جاردر أن نظام الكتابة في اللغة الهيروغليفية هو ككل اللغات السامية يسير من اليمين إلى اليسار. ولكنه أوضح أنه سيعتمد النظام المخالف (من اليسار إلى اليمين). وذلك لتفادي مشكلات التناقض بين نظام الكتاب الإنجليزي والنصوص المصرية، وكذلك تسهلاً على الدارس الأوروبي، وذلك استناداً إلى بعض الاستثناءات التي اعتمدها المصريون في الكتابة التي كانت من اليسار إلى اليمين.

والعجيب في الأمر أنه رغم أننا في مصر في بلد عربي لغته من اليمين إلى اليسار تمامًا كاللغة المصرية القديمة ولا نحتاج إطلاقاً لنظام جاردر (المعكوس)؛ لأن كتبنا كلها وطلابنا يكتبون من اليمين إلى اليسار، فإننا للأسف الشديد نستعمل نظام جاردر (المعكوس) بدون مبرر إلا التقليد بدون تفكير، فنشوه لغة الأجداد ونصعبها على الأحفاد .

تنطق معظم الأحرف المصرية القديمة في كل العالم كأحرف عربية فيقال لحرف النسر (الف) (Alif)، ولكن في مصر ينطق (A) ولا علم لي بالسبب، إلا إذا كنا نهدف إلى ربط المصرية القديمة باللغات الأوروبية قصرًا، وقطع كل الروابط الطبيعية التي تربطها بشقيقتها العربية.

لكننا في هذا الكتاب سنعمل بالنظام العالمي الذي يعرب الأحرف المصرية القديمة وينطقها على الطريقة العربية. وبهذا سنتعرف أكثر على اللغة ونقترب منها أكثر لأنها تطابق اللغة العربية تمامًا.

لا يعرف الكثير من الطلبة - ربما كلهم - أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى المصرية القديمة. بل إن الأحرف المصرية ذات الطابع الحلقي السامي مثل العين والحاء تنطق في المعاهد المصرية

بالطريقة الأوروبية التي تعتمد على إلغاء العين أو تحويلها إلى ألف واستبدال الحاء بالهاء. هناك مشكلة أخرى: ينطق الدارس المصري أسماء الآلهة المصرية والملوك المصريين بالطريقة اليونانية التي تعطيهم طابعًا يونانيًا وتنزع عنهم الطابع السامي. فيتحول الإله (وزير) إلى أوزوريس. في حين لو نطقه الدارس المصري بالنطق الصحيح لاكتشف قربه إليه وإلى تراثه الثقافي العربي السامي.

طريقة تدريس اللغة المصرية القديمة تخفي تمامًا ارتباط اللغة العربية الشديد باللغة المصرية من ناحية، وتقوي الإحساس بأن من كان يمتلك اللغة المصرية القديمة قوم لا علاقة لهم بمن يعيش اليوم في مصر، ومن ناحية ثالثة تجعل من اللغة المصرية القديمة شيئًا عسيرًا على الفهم والاستيعاب كالصيني أو الياباني، تمامًا كمن يعيش في القاهرة ويتوجه إلى بنها عن طريق الإسكندرية.

أما لو تم تدريسها بالطريقة الصحيحة لاكتشف الدارس كم هي قريبة منه، وأنه امتداد طبيعي لأجداده، حتى على المستوى اللغوي. وأنه لم ينحرف بعيدًا عن هويته القديمة، بل ربما لم ينحرف إلا بالشكل الطبيعي للتطور الزمني. وتجعل فهم اللغة واستيعابها أبسط بمراحل. كما أن تدريس اللغة المصرية القديمة بالشكل السامي الصحيح كما اتفق عليه العالم (إلا مصر) سيجعل المصريين أقدر الناس على حل بعض مشكلاتها وتصحيح التصورات والأخطاء المنتشرة عنها، واحتلال موقع القيادة العالمية في هذا المضمار، بدلًا من جلوسنا في موقع التلميذ أمام الأساتذة الأوروبيين حتى في لغة أجدادنا، كما سنرى.

ما معنى لغة سامية؟

مفهوم السامية

يعود مفهوم السامية إلى إحدى قصص العهد القديم (التوراة). حيث تقول القصة إن نبي الله نوح كان عنده 3 أبناء. هم سام وحام ويافت. وكان أن تعرى نوح من الهواء أثناء غفوة سكر، فرأى ابنه حام عورته. فأخبر أخواه. فدخل سام ويافت مغمضين العينين وغطيا الأب. وعندما أفاق الأب دعا على حام أن يكون هو وذرئته عيدًا لأخويه وذرئتهما¹³⁷. وتذكر التوراة أن أبناء سام هم الآشوريون وعيلام وأركشاد ولود وأرام. أما أبناء حام فهم الكنعانيون، والمصريون والبابليون والأوركيون والأكاديون والإثيوبيون واليمنيون. وأبناء يافت هم جومر وماجوج وماداي وياوان وتوباك وماشك وتيراس. وظلت هذه التقسيمة بكل ما فيها من غموض هي المعترف بها كتقسيمة للبشر حتى القرن 19 مع محاولات تفسير أن الأوروبيين هم أبناء يافت. أما الآسيويين فلم يستطع أحد إيجاد مكان لهم في هذه التقسيمة.

هذا يعني أن العراق قسمت لتكون نصف سامية ونصف حامية. وبقت الجزيرة العربية سامية. ولكن المهم أن اليهود بقوا ساميين في هذه التقسيمة. وكانت الشام ومصر واليمن ونصف العراق وإثيوبيا حامين.

بعد تقدم العلوم الإثنية والأبحاث اللغوية في بداية القرن العشرين حدث إعادة توزيع في المنظومة التوراتية. فقد شعر بعض الباحثين أن هناك توجهات سياسية في تقسيم التوراة لإثبات مزاعم اليهود في شرعية احتلالهم للأرض من النيل إلى الفرات؛ لأنها عطية لهم من

¹³⁷ العهد القديم، سفر التكوين، 10، 21، 27.

الخالق¹³⁸، ولأن شعوب هذه المنطقة يجب أن تتحول لخدم وعبيد لأبناء سام تحقيقاً لرغبة النبي نوح. فضموا كل هذه المنطقة تحت مظلة حامية وهم المغضوب والمدعو عليهم من أبيهم نوح. وبدأت الأبحاث تثبت أن الشام، والعراق والجزيرة العربية واليهود من أصول عرقية ولغوية واحدة خصوصاً بالساميين. وبقت مصر تعرف على أنها نصف سامية نصف حامية. أما إثيوبيا فكانت حامية مع إضافة إفريقيا وبعض مناطق أخرى لها.

مع التقدم في نفس العلوم نهاية القرن العشرين تم إضافة إثيوبيا وشمال إفريقيا بما في ذلك الأمازيغ إلى العنصر السامي. وأصبح بعض العلماء يطلقون على هذه اللغات والشعوب اسم اللغات والشعوب السامية، أو الأفروآسيوية. وهو تعبير يوازي تماماً ما يعرف اليوم بالعرب¹³⁹ (مع إضافة إثيوبيا).

ولكن.

تظل هذه النظرية العالمية حبيسة المعاهد العلمية المتخصصة في أوروبا وأمريكا وبقية العالم. والعجيب أنه في الوقت نفسه في قوانين هذه الدول ومحاكمها وإعلامها وقناعات كل شعوبها فإن السامي هو اليهودي فقط. فأنت لا تستطيع أن ترفع دعوى معاداة السامية ضد شخص يحقد على الفلسطينيين أو السوريين أو كل العرب. ولكن تستطيع رفع الدعوى بنفس الاسم إذا ثبت أن شخصاً ما يكره اليهود فقط. وأنت عندما تدرس تاريخ المنطقة وتقرأ عن تاريخ سوريا القديمة وتجد أن الساميين سكان سوريا هم أصحاب هذه الحضارة القديمة، فيجب أن تعي أن هذه العبارة تعني لك

¹³⁸ أصل هذه الأسطورة أن أول إمبراطورية في التاريخ كانت بالفعل على أرض تمتد من النيل إلى الفرات، ويبدو أنها داعبت أحلام اليهود، فظهرت منهم على شكل وعد إلهي.
¹³⁹ انظر الجزء الأول. حضارة النوتافيان والموشابيان.

وحدك قداماء السوريين، ولكنها تعني اليهود لزميلك الأوروبي الجالس بجانبك. وهي أيضا تعني اليهود لمن يقرأها في روسيا والهند والصين وجنوب إفريقيا وكندا وأمريكا وفنزويلا وكل العالم. وبهذا يتم نسب الحضارة القديمة في منطقة الشام إلى اليهود القداماء وليس إلى أهلها الحقيقيين. ونحن نتوهم أن الجميع يعي أن الساميين هم نحن العرب واليهود، ولكن الحقيقة أن لا أحد يعي هذا إلا قلة محدودة وتخفي حتى هذه الحقيقة ولا تريد نشرها ولكن يتم خداعنا بها. وتظل نظرية أن العرب ساميون فقط حبيسة في إطار منعدم التأثير. وهي ظاهرة غاية في الغرابة.¹⁴⁰ فالدستور والمحاكم والرأي العام والأحداث السياسية وقناعات الناس كلها تتحرك بشكل خاطئ يتناقض مع العلوم الأكاديمية. يتم كل هذا بوعي بالقضية وتجنب إثارتها.

ولهذا فربما كان من الأفضل استعمال مصطلح الشعوب العربية وليس السامية، لما لهذا المصطلح من لبس مقصود. فتعبير عرب أكثر دقة وأقل لبسا وإثارة للجدل، رغم أنه تظهر في مصر وبعض الأقطار العربية محاولات غير مفهومة وربما ذات بعد طائفي لتفريغ هذا المصطلح (العرب) من محتواه، ومحاولة تصوير أن كل هذه الشعوب لا علاقة لها ببعضها البتة. وهذا طبعا يصب تماما في مصلحة إسرائيل وأمريكا بوعي أو بجهل.

¹⁴⁰ عندما كنت أدرس المصريات في هامبورج كنت أستعمل مصطلح قداماء السوريين أسوة بمصطلح قداماء المصريين. فدعاني البروفيسور التن مولر طالبا مني عدم استعمال هذا المصطلح واستعمال المصطلحات التي اتفق عليها العالم وهو مصطلح الساميين. فلما أجبته بأن هذا المصطلح يعني اليهود. رد مستهزئا بأن هذا تفسير رخيص للتلفزيون الجاهل، وإن الحقيقة العلمية هي أن العرب ساميون أكثر من اليهود. فطلبت منه أن يعطيني هذا الكلام كشهادة كتابية موثقة. صمت ولم يجب. وتركتني أستعمل المصطلحات التي أفضلها. كان يعلم أن مثل هذه الشهادة كافية بتغيير الدستور الألماني نفسه، وهدم ما يعرف بقانون معاداة السامية بالكامل.

مقدمة في اللغة المصرية

والخط الهيروغليفي

الأحرف الهجائية

الخط الهيروغليفي يحتوي على 25 حرفاً (أو علامة) ذات دلالة صوتية واحدة

طائر العقاب

ألف، أ



قصبية مزهرة

ألف مكسورة، إ



ي



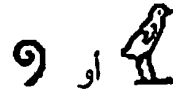
ساعد

ع



كتكوت

و







ساق

ب



مقعد	ب ثقيلة	□
حية ذات قرنين	ف	حرف
بومة	م	حرف
ماء	ن	حرف
فم	ر	حرف
كوخ من البوص	ه	□

حبل مجدول	ح	
	ح	
حاجز		
بطن حيوان	خ	
	غ. وقد احتار	
	جاردنر في هذا	
	الحرف، وتصور	
	أنه يمثل ch باللغة	
	الألمانية	
مزلاج	ز	

قماش مطوي

س



حوض ماء

ش



تل

ق



سلة بأذن

ك



حمالة زير

ج



رغيف خبز

ت



عقال أو حبل

ث



يد

د



ثعبان الصل




ج معطشة



هناك علامات ذات دلالات صوتيتين أو حرفين معاً، وهي كثيرة جداً مثل:




عمود	• عا	
لوحة لعب بقطعها	من	
العضو الذكري	مت	
وجه	حر	
إله الشمس	رع	
سيد	نب	

هناك علامات أخرى ذات 3 دلالات صوتية وهي أيضًا عديدة،
مثل:

الجعران	خبر	
نصف أسد	حات	
رغيف على حصيرة	حطب	

بعض الملاحظات على الأحرف

فسره جاردنر على أنه يماثل ال ch الألمانية والتي تنطق بين الشين والحاء العربية. وهو حرف لا وجود له في اللغات السامية. والأغلب أن هذا الحرف هو حرف ال غ العربي السامي. وليس لهذا الحرف وجود في اللغات الأوروبية، بل هم يعتبرونه نوع من ال R. ولا يتصورون له وجود مستقل. ويشاطرنى هذا الرأي الباحث Bernadette Menu¹⁴¹.





- نلاحظ أولاً عدم وجود حرف (ل) في الأحرف الهيروغليفية. واعتبر جاردنر أن المصريين لم يكن عندهم حرف اللام. ولكن ربما كان من الأقرب للتصور أن المصريين كان يعتبرون حرف الراء  هو لام وراء في الوقت نفسه. فالكثيرون ينطقون الراء لام لضعف في اللسان. كما أن بعض الكلمات التي أتت من سوريا وكانت تحتوي على راء ولام في نفس الكلمة كان كلا الحرفين يكتبان ب . ويساعد هذا التفسير حل مشكلة حرف الجر  بمعنى إلى. فيكون في هذه الحالة (ل) وهو لا يزال موجوداً بنفس النطق كحرف جر.

- الكلمات المؤنثة تحوي تاء التانيث في نهاية الكلمة تماماً كاللغة العربية. وهي أحياناً تسقط في النقط كما يحدث تماماً في اللغة العربية. فيقال - على سبيل المثال - : (إزت) للآلهة إيزيس أو (إزة) لنفس الآلهة وهو نطق مصري صحيح.

- تستبدل بعض الأحرف بأحرف أخرى، مثل: الخاء والشين، والغين والحاء، وحرف الألف المكسور يستبدل أيضاً بحرف العين. ففي المثل السابق للآلهة (إزة) يقال لها أيضاً (عزة) وهو





¹⁴¹Bernadette Menu, Petit lexique de L égyptien hieroglyphique, 1989.

النطق الذي اخترناه: أولاً لأنه نطق مصري صحيح، ثانياً ولأنه النطق الذي عاشت من الاسم حتى يومنا هذا. فالتّي تحمل اسم (عزة) هي في الحقيقة تحمل اسم آلهة مصر القديمة التي يقال لها اليوم خطأً (إيزيس) وهذه الإلهة ظلت تعبد في المنطقة العربية خارج مصر وبالتحديد في الجزيرة العربية بنفس الاسم حتى جاء الإسلام وقضى على عبادتها بشكل نهائي.

- يذكر جادنر أن هناك مشكلة في بعض الأحرف الساكنة الضعيفة مثل: الألف  والألف المكسورة  والياء  والواو . ونحن نعي تماماً ما يعنيه جادنر. فهي مشكلة لغير العرب، ولكنها ليست مشكلة للعرب. فالألف حرف ساكن وليس حركي فينطق أحياناً في حالة الفاتحة (a). فإذا اكتسب كسرة تحول إلى (i) اللاتينية ويظل نفس الحرف. كذلك الواو والياء. فهي حروف ساكنة تنطق كبقية الأحرف الساكنة حسب الحركة. وهو ما يعتبر بالنسبة للأوروبيين مشكلة.

وعلامة الأفعال  تظهر لتعني فعل

هناك ما يعرف بالمخصصات. وهي صور توضع بجانب الكلمة ولا تقرأ، ولكنها تزيد في توضيح المعنى مثل:

 السماء،  الإله،  إله،  سيدة

تركيب الجملة

تتكون اللغة المصرية القديمة من جمل اسمية (مبتدأ وخبر) وجمل فعلية تبدأ بالفعل، تماماً كالعربية.

فمثلا الجملة الاسمية:

السماء (الملكوت)	في	رع
بت	إم (م)	رع

وهنا نلاحظ بعض الملاحظات:

- تكتب كلمة رع بالأحرف ثم تضاف إليها رمز رع. وتكتب كلمة السماء (بت) بالأحرف ويوضع فوقها رمز السماء.
- تتطابق اللغتان تمامًا في تركيب الجملة.
- حرف الجر يتكون من حرف واحد فقط ساكن وهو الميم


وجود حرف جر من حرف واحد فقط ظاهرة معروفة في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى. لأنها لغات تكتب بحروف ساكنة وليس بها حروف الحركة اللاتينية وهي (aeiou) وحروف الجر التي تتكون من حرف واحد مثل حروف (ب) مثل (هو يكتب بالقلم)، وحرف ال (ك) (هو يجري كالحصان). ويظل السؤال، كيف نطق حرف الجر المصري القديم المكون من حرف واحد ساكن؟ هل توضع الحركة قبله أم بعده؟ الإنجليز والأوروبيون يضعون الحركة قبل الحرف فيقولون (in, on, up) وهلم جرًا. ونحن نضع الحركة بعد الحرف مثل ل، ب، ك، في. ويعترف جاردنر أنه قرب النطق بهذا الحرف إلى الإنجليزية فأصبح ينطق (إم) على الطريقة الإنجليزية، وليس (مي) على الطريقة السامية. ومما يزيد الأمر تعقيدًا أن هناك كلمة أخرى وهي ولهذا فقد تم تفسيرها على أنها نفس الكلمة السابقة في العبارة السابقة وهي حرف الجر إم. ولم يتم وضع احتمال أن تكون كلمة أخرى موجودة في العامية

المصرية وهي (يم أو يمة) بمعنى جهة أو ناحية. فيقال مثلا (فلان راح يم الجامع) أي فلان ذهب ناحية الجامع.

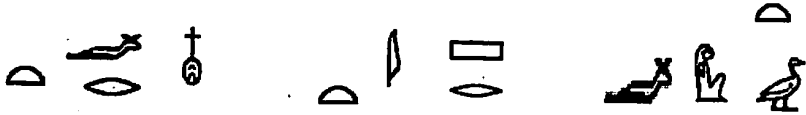
أداة التوكيد
والجملة السابقة (رع في السماء) توجد بإضافة كلمة زائدة عليها في
المقدمة. وهي (إيو) بالهيراوغليفية
فتكون:



وقد فسر جارندر هذه ال (إيو) أيضًا على الطريقة الإنجليزية التي لا تعرف الجملة الاسمية التي يختفي فيها فعل الكينونة، فهذه الجملة هناك في أوروبا لا بد أن تحتوي على (Verb to be) ولهذا فقد تصور جارندر أن هذه الكلمة لا يمكن أن تكون إلا صورة من فعل الكينونة (Verb to be) وذلك لأنه لا يملك أي تفسير آخر. والصح أن نعتبر (إيو) أداة تأكيد مثل (إن). فنقول (رع في السماء) أو (إن رع في السماء) تمامًا كأجدادنا. والذي يؤكد ذلك أن هناك كلمات عربية عدة تقترب من حرف التأكيد (إيو) مثل (أي) للتفسير، و (أي نعم) للإيجاب. و(أيوه) أيضا للإيجاب.

وكلمة رع ليست اسم الإله. فهو غير معروف الاسم إلا من خلال
 حفيدته (إزة أو عزة) بالمصرية (إيزيس باليونانية). فهي الوحيدة
 التي تعرف اسمه ولم تسر به لأحد. فكلمة رع هنا صفة. ولا تعني
 قرص الشمس. وهي في الغالب رائع أو راع. أما قرص الشمس
 فيقال له (إتن) 

والتطابق في تركيب الجملة المصرية القديمة والعربية الحديثة أيضًا
 مدهش إذا تعاملنا مع اللغة المصرية القديمة بالشكل الصحيح. وذلك
 لأن كل البناء القواعدي متطابق من صفة تأتي بعد الموصوف أو
 ضمير ملكية بعد الشيء المملوك إلى آخر كل قواعد تركيب الجملة
 كالاتي:



نفرت (نفرة)

شريت (شرية)

ساتف

جميلة

الصغيرة

ابنته

أما ترجمة الجملة باللغة الإنجليزية أو أي لغة أخرى فيجب إعادة
 تركيب الجملة بالكامل. فتأتي الصفة قبل الموصوف الضمير في
 البداية وفعل الكينونة في المنتصف. ونجد أنفسنا أمام لغة أخرى.
 ولكن الترجمة من المصري القديم إلى العربية الحديثة لا تحتاج إلا
 إلى تبديل المفردات ويبقى تركيب الجملة صحيحًا. حتى المفردات
 فهي ربما كلها ذات أصول مشتركة. فكلمة صا وصات (ابن وابنة)
 بالعربية كانت تستعمل قديمًا وتبقى منها كلمة ذا. فيقال الفتاة (ذات
 الشعر الأحمر) أي الفتاة ابنة الشعر الأحمر في العربية القديمة.
 وهلم جرًا. وكلمة نفر المصرية القديمة التي تعني رجلًا جيدًا،

ونفرت أو نفرة والتي تعني امرأة حسنة مازالت تستخدم في العربية بمعنى رجلاً جيداً. وهي أيضاً تستجد في الريف المصري بمعنى رجل جيد أو (جدع).

المثنى والجمع

المثنى والجمع يتطابقان تماماً في المصري القديم مع العربي كما أفرد جارندر في كتابه وكما اتفق جميع الباحثين في هذا الميدان، ولكننا نضيف بعض الملاحظات في مسألة التطابق.

يقال (أرض) مفرد و(أرضين) للمثنى في حالة النصب والجر العربية. ونقول (طا) أو (طاو) للأرض في المصري القديم. وللمثنى (طاوي). ولكن مع وجود مضاف إليه في العربية الحديثة والمصرية القديمة يتطابق المثنى تماماً المصري القديم والعربي الحديث تماماً. فنقول (أرضي مصر) في العربية و(طاوي مصر "كمة" في المصرية القديمة. وهو ما يجعل التشابه الذي أكده جاندر وغيره من العلماء أقوى بكثير مما اعتقدوا. فنقول:

والكلمة (طا) أو (طاو) والتي تعني الأرض هي أيضاً موجودة في العربية القديمة (الوطا) بعد قلب حرف الواو. وظاهرة قلب الأحرف معروفة في كل اللغات. وكلمة (الوطا) هي الكلمة التي اشتقت منها الصفة النسبية (واطئ) بمعنى متدن أو أرضي.

•



طاوي

نب

وهذا المصطلح يعني الملك

نبي (سيد) الأرضين

كلمة نبي كانت تعني في العربية القديمة (سيد) أيضاً

والجمع في المصرية القديمة كما اتفق كل الباحثين يتفق أيضًا مع الجمع في العربية. فالجمع يبدأ من رقم ثلاثة. ويعبر عنه بواو الجماعة مثل جمع المذكر السالم. فيقال (عامل/عاملون) وفي حالة الإضافة يقال (عاملو المصنع) وهذه هي حالة الجمع في المصري القديم. و مثال على ذلك أن كلمة إله تعني بالمصرية (نثر) والجمع (نثرو):

نثر نثرو

نثرو

نثر

ألهة

إله

وكلمة نثر المصرية القديمة مازالت موجودة في لغتنا على شكل (نذر) وهو قربان الآلهة. وإذا قال شخص ما إن عليه نذرا، فهو يعني أنه وعد بعباء شيء لله ولم يف به. فالنذر كان قربان الآلهة، وقبل ذلك كان الآلهة نفسها.

الجملة الفعلية

يأتي الفعل في المقدمة قبل الفاعل كما في اللغة العربية. فيقال:



بت

إم، مي

رع

وين

الملكوت

في

بان رع (رانع)

وطبعا العلاقة بين فعل (وين) المصري القديم وفعل (بان) العربي بمعنى ظهر واضحة. بل إن كلمة (بت أو بيت) تعني في العربية القديمة ملكوت أيضا.

الفعل في المصدر في اللغة المصرية القديمة هو الفعل الثلاثي المصدر مع هو في الماضي. تماما كاللغة العربية مثل: كَتَبَ، زَرَعَ، حَصَدَ. وكما استخدم العرب فعل (فَعَلَ) للقياس، فكان المصريون القدماء يستخدمون فعل (سَجَمَ) بمعنى (سَمِعَ) للقياس. وهذا الفعل باعتراف جادندر له علاقة قوية بنظيره العربي (سَمِعَ). والذي لا يعرفه جادندر ويعرفه العرب والمصريون جميعا أن فعل (سَجَمَ) موجود في اللغة العربية حتى اليوم، ولكننا نستخدم المصدر الخماسي منه (انسجم). ففعل (سجم) هو الأصل الثلاثي لفعل (انسجم).

لأسباب غير مفهومة نطق جاردندر هذا الفعل (سِجْمَ إِف) وأصبح كل دارسي المصرية القديمة ينطقونه بهذا الشكل الغريب. فقد تحول من (فَعَلَ) إلى (فَعَلْ) أي إلى أمر من الفعل الرباعي (فَعَّلَ) مثل (عَلَّمَ) و(دَرَّسَ)... وبهذا فقد أفقد جاردندر الفعل المصري خاصيته تماما كفعل ثلاثي وحوله نتيجة النطق الغريب إلى فعل رباعي.

والأغرب أن الضمير (ف) الذي يضاف إلى نهاية الفعل ينطقه جاردنر على الطريقة الإنجليزية (إف)! فأصبح الفعل الثلاثي (سَجَمَ) (سَجَمَ إف). والمشكلة هنا أن الإنجليز وغالبية الأوروبيين يتعاملون مع التشديد بشكل مختلف. فيكتبون اسم (ياسر) بتشديد السين (Yasser) لأن التشديد هنا له علاقة بالمقاطع في لغاتهم. في حين أن التشديد في العربي هو نطق الحرف مرتين أولهما بسكون الثانية بحركة. فيكون نطق الفعل بطريقة جاردنر مشدداً في المنتصف لا يعني الكثير له، ويظل في نظره فعلاً ثلاثياً. ولكنه يتحول عندنا نحن - الساميين - إلى فعل رباعي يختلف عن الفعل الثلاثي في المصدر في المصرية القديمة والعربية واللغات السامية الأخرى. هذا تشويه للفعل المصري لا يراه إلا الساميون مثلنا، وهنا المشكلة. ولا أعرف الحكمة من زج الضمير (ف) في الموضوع طالما المقصود هو الفعل الثلاثي فقط وليس الفعل الثلاثي وفاعله معاً. الطبيعي أن ينطق (سَجَمَ) فقط. تماماً كما تنطق جميع الأفعال الثلاثية في المصري القديم والعربي أيضاً مثل فعل (وَبَنَ) بمعنى ظهر أو بان الذي رأيناه في الجملة الفعلية السابقة وبقية الأفعال في المصري القديم.

أسماء بعض الآلهة

مع النطق الصحيح

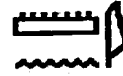
أتوم

النطق الصحيح لهذا الإله هو أتم. والمعنى يبدو واضحًا من
الاسم فهو يعني الإله الإله الكامل.



أمون

النطق الصحيح لاسم الإله هو (إمن) أو (أمن) وهو ما



مع معنى الاسم تمامًا

مع

يتوافق

(الخفي) أو (الذي لا يراه أحد).

أنوبيس

واسمه الحقيقي إنبوه، هو ابن وزير ونفتيس. وهو حارس
الجبانة وإله التحنيط، لأنه من قام بتحنيط الأب وزير. هو ابن
وزير ونبوة



أوزيريس

لهذا الإله أسماء متعددة، ومنها: وزير، أوزير، أوزيريس، أزار، أسر، أسري. وهو الإله الضحية، أخو عزة وزوجها وأخو ست ونبوة.



إيزيس

والنطق الحقيقي للاسم هو إزت، إزة، عزت، عزة. وهو يعني العرش أو الحكم كما في العربية القديمة. وهي زوجة وزير وأخته وأخت نبوة وست.



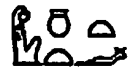
بتاح

معنى الاسم غير معروف تمامًا. كان يصور على شكل إنسان بدون خصائص مميزة له. وهو إله خالق للبشر.



تفنوت

وهي إلهة الرطوبة. وقد ظهرت من بصاق الإله أتم. كما يظهر الاسم في من فعل (تف) وهو فعل قديم مازال يستعمل في مصر. وتعتبر مع أخيها وزوجها شو أول ما خلق أتم



جب
وهو إله الأرض كما هو واضح من الاسم. مثل على شكل رجل.
كان يعد قاضيًا.



حابي
وينطق حابي. وهو الإله الذي يدفع بمياه النيل. وهو على
شكل إنسان يجمع بين الأنثى والذكر مع ترهل في
الجسم والثدي



حتحور



والنطق الصحيح حت حرو. ويعني بيت حرو أو بيت حورس.
وهي زوجة حورس. الكلمة حت أو حتة مازالت تستعمل في مصر
بمعنى حي. فيقال ابن الحتة أي ابن المنطقة.

حورس



النطق الصحيح هو حرو. ويعني البعيد. وربما كان الاسم يعني
أيضًا القادم. وهو ابن وزير وعزة الذي سينتقم من عمه ست.
كان دائمًا رمزًا للملك

خبري



وينطق خبري. الذي أتى للوجود بذاته. وربما كان أحد
صور الإله رع. أحيانًا يسمى خبر- رع.

خنوم



النطق الصحيح هو غنم. والاسم له علاقة بكلمة غنم العربية.
وهو أيضًا يصور على شكل كبش. ويعتبر الخالق. ومن
ألقابه خالق البشر. كان مركز عبادته جزيرة الفنتين.

الإله رع

- يكتب اسم هذا الإله ليس من خلال حروف بل من خلال صورة قرص الشمس. وهو ما يجعل التحليل أصعب. ولكن نبدأ البحث من خلال نقطتين. أولاً أن هذا الإله غير معروف الاسم. ولهذا فصورة قرص الشمس تعني صفة ما. والنقطة الثانية أن قرص الشمس له اسم آخر وهو (إتن) ولهذا فنحن نتصور أنه ربما كانت الصفة هي الرائع أو الراعي. فهذا الإله كان يظهر في بعض النصوص كراع للبشر.

الإله ست

والنطق الصحيح لهذا الإله هو ست، ستش، ستخ.. وهو أخو وزير وعزة ونبة، وزوج نبة.



سخت

وينطق سخت أو سخمة.. ربما كان يعني الاسم القوي. والكلمة مازالت تستعمل حتى الآن في الريف: فيقال سخام أو سخامة بمعنى الكريه. وربما لأن وجه هذه الإلهة فعلا كريه.



الإله شو

وهو إله الهواء. والشوب كلمة تستعمل حتى اليوم للتعبير عن الهواء الساخن.



ماعت

تنطق ماعت، أو ماعة. وهي آلهة الحق والعدالة والنظام. وهي الساس الذي خلق عليه العالم ابنة رع.



موت

والنطق الصحيح لاسم هو موة أو موت. وتعني الأم. وهي زوجة لأمون.



مين

والنطق الصحيح للإله هو منو. وهو إله الخصوبة والجنس. ويعتقد أن كلمة مني للسائل المنوي جاءت منه.



نفتيس

والنطق الصحيح هو نبة هوة، أو نبت هوت. وهو يعني ربة البيت. وهي أخت عزة ووزير وست، وزوجة ست.



نوت

وهي إلهة السماء. ومن الممكن نطق اسمها (نوة) وهي كلمة ما زالت تستعمل للتعبير عن نوبات تغير الطقس. خصوصًا في الإسكندرية. وتمثل مع أخيها وزوجها جب أبوي عزة ووزير ونبوة وست.



المؤلف في سطور

1954/9/27	تاريخ الميلاد:
طنطا	محل الميلاد:
1984	بكالوريوس فنون جميلة جامعة الإسكندرية:
1998	ماجستير تاريخ الفن: جامعة هامبورج:
2002	دكتوراه تاريخ الفن: جامعة برلين

مؤسس ومدير أكاديمية شحاتة للفنون بهامبورج.
ووكيل اتحاد الباحثين العلميين العرب بهامبورج

عضو الموسوعة العالمية لكبار الشخصيات Who is who
المعارض: فرنسا، سويسرا، مصر، إيطاليا، أمريكا، بلغاريا،
ألمانيا.

كتب خاصة:

المنهج 1، المنهج 2، ثلاثية هامبورج.

مقالات عديدة في صحف ألمانية ومصرية

الفهرس

5 مدخل نظرى
9 مقدمة
17 تقسيم
19 الفصل الأول
19 التاريخ الأنثروبولوجي والعصر الحجري
20 الأرجاستر
23 الهومو أركتوس
28 النيندرتالر
30 الهوموسابيانس

33 خلاصة
41 الفصل الثاني
41 العصر الحجري القديم
42 الكهوف
43 الباليوليتيك الأوسط
43 بولبوس
48 الباليوليتيك الأعلى
48 كهف شوفيه
61 مجموعة كهوف بين 17، 20 ألف سنة قبل الميلاد
61 التاميرا
64 لاسكو
68 نيوكس
78 المرأة في العصر الحجري
85 العصر الحجري الحديث
85 هجرات وأصول مشتركة
89 النيوليتيك في الجزائر
89 هضبة تاسيلي

95	جنوب وهران
98	كهوف تادرات أكاكوس في ليبيا
102	كهف لاس جيل في الصومال
105	كهف العوينات في مصر
111	عصر النيوليتيك في منطقة النوتيفيان (الشام والعراق)
114	عصر النيوليتيك في أوروبا
116	تال كامونيك
119	الفصل الثالث
119	الحضارة القديمة في مصر ما قبل الأسرات
121	المرحلة الأولى (البداري)
125	المرحلة الثانية (نقادة الأولى)
137	المرحلة الثالثة (نقادة الثانية)
143	المرحلة الرابعة (نقادة 3)
149	الفصل الرابع
149	مقدمة
152	مصر المنسية تعبر عن نفسها
155	العلاقة بين الحاكم والمحكوم تحليل مقارن

165	قصص ذات دلالة
165	الفلاح الفصيح
168	الكاهن ددي والملك خوفو
171	صاحب الجلال وصاحبة الدلال
175	ظروف العمل
179	الثورة الشعبية الكبرى
183	إضرابات ومظاهرات
185	الثقافة والفكر غير المطروق
187	نظرة على القانون المصري
191	نموذج لمحاكمة
195	نماذج من القوانين المصرية تشريعات حور محب
198	النص الكامل لبردية ايبورو
215	الفصل الخامس
215	الديانة المصرية
216	نظريات الخلق
216	نظرية الأشمونين
218	نظرية الخلق في أيون (عين شمس)

220	بقية المعبودات
222	نظرية الخلق، تاسوع منف
225	إيزيس وأوزوريس
231	تحليل الدلالات
233	تحليل لحقيقة ست
234	المحاكمة
237	المخلص أو المهدي المنتظر
243	تحليل نظرية الخلق
245	ديانة آتون والإله الواحد
248	نظرة على الديانة اليونانية
249	نظرية الخلق عند اليونان
253	تحليل
257	الفصل السادس
257	الفن المصري تحليل اجتماعي
257	المثالية في الفن
274	الثورة الرومانسية في الفن المصري
292	الفن في ألمانيا النازية

301 الفصل السابع
301 مقدمة
304 المصادر الهامة للتاريخ
305 عصر الأسرات
307 البداية العصر العتيق
307 الأسرة الأولى من 2980-3200 ق. م
313 الأسرة الثانية 2880-2980 ق. م
314 الدولة القديمة
315 الأسرة الثالثة 2680-2780 ق. م
318 الأسرة الرابعة 2498-2513 ق. م
322 الأسرة الخامسة 2430-2560 ق. م
323 الأسرة السادسة من 2280-2420 ق. م
324 عصر الانتقال الأول. الأسرات من 7 إلى 2280-2052 ق. م
325 الأسرة السابعة
325 الأسرة الثامنة 2242-2280 ق. م
325 الأسرة التاسعة 2133-2242 ق. م
325 الأسرة العاشرة 2052-2133 ق. م

- 326 الدولة الوسطى: الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة
- 326 الأسرة الحادية عشرة من 2060-2134
- 326 الأسرة الثانية عشر 1778-1991
- 332 عصر الانتقال الثاني
- 333 الهكسوس
- 335 الأسرة السابعة عشرة
- 335 الحرب ضد الهكسوس
- 335 سقنن تاعا الثاني (الشجاع)
- 339 الدولة الحديثة الأسرات من 18-20
- 339 الأسرة الثامنة عشرة
- 340 الملك أحمس الأول (أعح موزا)
- 342 أمنحوتب الأول
- 342 تحتمس الأول
- 342 الإمبراطورية ونظرية الأمن القومي
- 344 الملكة حتشبسوت
- 344 نحتمس الثالث
- 349 امنحوتب الثاني

- 350 الفترة الثانية من الأسرة الثامنة عشرة
- 350 الملك امنحتب الثالث
- 351 أمنحتب الرابع
- 355 نهاية إخناتون. ونهاية الأسرة
- 355 توت عنخ آمون
- 356 حور محب
- 357 الأسرة التاسعة عشرة
- 358 سيتي الأول
- 360 نظرة عامة
- 361 عودة إلى سيتي الأول
- 362 رمسيس الثاني
- 367 مرينبتاح
- 369 تعلق
- 373 عودة إلى الأسرة
- 373 الأسرة العشرون
- 374 رمسيس الثالث
- 378 الأسرة الواحدة والعشرون

379 الأسرة الثانية والعشرون
379 شاشانق
381 الأسرة الثالثة والعشرون
381 الأسرة الرابعة والعشرون
382 الأسرة الخامسة والعشرون
382 الأسرة السادسة والعشرون
385 بسماتيك الأول
386 نكاو الأول
389 أحمس الثاني
391 بسماتيك الثالث
392 الأسرة السابعة والعشرون
392 الأسرة الثامنة والعشرون
393 آمون حر
393 الأسرة التاسعة والعشرون
395 الأسرة الثلاثون
397 عودة الفرس
397 الفصل الثامن

397	اللغة المصرية القديمة
397	مقدمة
400	مفهوم السامية
403	مقدمة في اللغة المصرية والخط الهيروغليفي
403	الأحرف الهجائية
409	بعض الملاحظات على الأحرف
410	تركيب الجملة
414	المثنى والجمع
416	الجملة الفعلية
418	أسماء بعض الآلهة

مناذبيع الهيئة المصرية العامة للكتاب

- مكتبة المعرض الدائم**
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
٢٥٧٧٥٠٠٠
ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلي ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩
- مكتبة المتديان**
١٣ش المتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة
مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
٢٥٧٢١٣١١ : ت
- مكتبة الجيزة**
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
٢٥٧٨٧٥٤٨ : ت
- مكتبة مركز الكتاب الدولي**
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
٢٥٧٨٨٤٣١ : ت
- مكتبة ٢٦ يوليو**
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
٢٥٧٨٨٤٣١ : ت
- مكتبة جامعة القاهرة**
خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى
بالجامعة - الجيزة
مكتبة رادوييس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوييس
- مكتبة عرابى**
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
٢٥٧٤٠٠٧٥ : ت
- مكتبة أكاديمية الفنون**
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
٢٥٩١٣٤٤٧ : ت
- مكتبة شريف**
٣٦ ش شريف - القاهرة
٢٣٩٣٩٦١٢ : ت
- مكتبة الحسين**
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
٢٥٩١٣٤٤٧ : ت

- مكتبة الإسكندرية**
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥
- مكتبة المنيا (فرع الجامعة)**
مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا
- مكتبة طنطا**
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤
- مكتبة الإسمايلية**
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (١) - الإسمايلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨
- مكتبة المنية المحلة الكبرى**
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً - المحلة
- مكتبة قناة السويس**
مبنى الملحق الإداري - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسمايلية
- مكتبة بورفؤاد**
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد
- مكتبة المنصورة**
٥ ش السكة الجديدة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩
- مكتبة أسوان**
السوق السياحي - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠
- مكتبة منوف**
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف
- مكتبة أسوط**
٦٠ ش الجمهورية - أسوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢
- مكتبة المنيا**
١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤
- مكتبة المنية**
مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام
ميدان التحرير - الزقازيق
ت : ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢ - ٠٥٥٣٣٦٢٧١٠

مكتبات ووكلاء

البيع بالدول العربية

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات

والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -

شارع الستين - ص.ب: ٣٠٧٤٦ جدة :

٢١٤٨٧ - ت : المکتب: ٦٥٧٠٧٢٢ -

٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨ .

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -

الرياض - المملكة العربية السعودية -

ص.ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت:

٤٥٩٣٤٥١ .

٤ - مؤسسة عبدالرحمن

السديري الخيرية - الجوف -

المملكة العربية السعودية - دار الجوف

للعلوم ص.ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف:

٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع

ت: ٤٦١٨١٩١ - ٤٦١٨١٩٠

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين

ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦٦ +

تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +

ص.ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة -

بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣

ص. ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيروت - الفرع الجديد - شارع

الصيداني - الحمراء - رأس بيروت -

بناية سنتر مارييا

ص. ب: ١١٣/٥٧٥٢

فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -

سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد -

المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص.ب: ٧٣٦٦

- الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة . ٤ شارع الطاهر صفر-

٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض

(ص.ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع

طريق الملك فهد مع طريق العروبة -

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب